في التاريخ الإسلامي
فصول في المنهج والتحليل

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
تقديم
حول تداول السلطة في العصر الراشدي
موقف ازاء التراث
دراسة مقارنة في سياسات يزيد بن عبدالملك
ملاحظات في مصادر الطبري عن صدر الدولة العباسية
ملاحظات عامة
موارد الطبري عن صدر الدولة العباسية
١ – المصادر الشخصية
٢ – المصادر المكتوبة
الشعر
معطيات الطبري الشخصية
المواضيع الاساسية
النقد والاسلوب
فكرة الطبري التاريخية
دراسات بلدانية
ملاحظات في خطط الحلة
اهم المصادر
نقد : (الصفحات الاخيرة من حضارتنا)
اقتراحات : (في التدريس والمنهج التاريخي)

تقديم

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا دراسات شتى في حقول تاريخنا الاسلامي الواسع المتشعب .. دراسات كتبت في اوقات متباعدة بعضها يرجع إلى السبعينات وبعضها يرتد إلى الستينات .. وقد اخترت منها – بعد جولة فيها – نماذج تعمدت ان يمثل كل واحد منها لعصر من عصور تاريخنا هذا .. فاذ يناقش احدها مسالة تداول السلطة في العصر الراشدي ، يتناول ثانيها بحثا مقارنا عن شخصيتين من العصر الاموي ، ويحلل بحث ثالث مصادر الطبري المؤرخ عن بدايات العصر العباسي ، ويقدم بحث رابع دراسة بلدانية لمدينة ظهرت ونمت في العصر السلجوقي ، وينقد بحث اخر كتابا موجزا يتناول جانبا من الدويلات الاسلامية بالتحليل.

واضفت اليها بحثين اثنين يتناول احدهما مسالة (التراث والمعاصرة) التي تستقطب اهتمام المثقفين في الوقت الراهن ، ويعرض الاخر لعدد من الاقتراحات بشان التدريس والمنهج التاريخي.

ولم اقف في هذه الفصول عند حدود التعامل مع (الموضوع) بل حاولت ان اقدم لمسات متواضعة عن بعض جوانب (المنهج) الذي يتوجب ان نعتمده في كتابة تاريخنا ذي الشخصية المتفردة والملامح الخاصة. وقد جاءت هذه اللمسات مقترحات (نظرية) حينا ومحاولات (تطبيقية) ازاء عدد من المواضيع حيناً آخر.

ولكم نحن بحاجة إلى مزيد من الابحاث التي تسعى لبلورة منهج متميز في كتابة تاريخنا هذا ، نظرية وتطبيقا[1] .. وما من شك في ان الصيغ القديمة لعرض تاريخنا الاسلامي كما لو كان ميدان عمليات عسكرية ومناورات سياسية وتبدلات دورية في الاسر والحكام .. قد مضى اوانها .. كما انه قد مضى زمن الدفاع المتشنج ازاء كل ما طرحه الخصوم حول هذه النقطة أو تلك في مجرى هذا التاريخ.

إن التوجه الاكثر اهمية وجدوى يجب ان يتجاوز هذا وذاك صوب ابحاث في تكوين الحضارة الاسلامية ونظمها وصيرورتها ، ويجب – كذلك – ان يقدم اعمالا بنائية في هذا الجانب أو ذاك من التاريخ الاسلامي ، تقدم بذاتها القناعات التي تتهافت عندها مقولات الخصوم.

---

(١) انظر مقال (مؤشرات حول مشروع كتابة تاريخ العرب والاسلام) في كتاب : (مع القران في عالمه الرحيب) للمؤلف ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٨٠).

إن علينا الا نسلم بكل ما طرح عن هذا التاريخ من معطيات ، ان على مستوى المصادر القديمة أو في نطاق الدراسات الحديثة والمعاصرة .. ومن خلال هذا الشك البناء يمكن ان نحقق لتاريخنا قدرا من الخدمة التي ينتظر منها المزيد.

ولئن اخطات أو قصرت ، فاني التمس من القارئ الصفح الجميل. والى الله وحده نتوجه بالاعمال.

الموصل / عماد الدين خليل

حول تداول السلطة في العصر الراشدي

يتناول البحث الذي بين ايدينا والمعنون بـ (اساليب تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية)[1] مسألة مهمة في صدد تاريخنا الاسلامي ، ويحاول في صفحات معدودات لا تتجاوز الخمسة والعشرين ان يحسم كثيرا من القضايا الخطيرة المتعلقة بتجربة الحكم في العصرين الراشدي والاموي ، وفي كثير من الاحيان يكتفي بالرواية والروايتين ، وبالتعليق الذي يصدر عن باحث معاصر ، لكي ما يلبث ان يصدر حكمه الذي ياخذ – احيانا – صفة الحسم.

ولسنا هنا بصدد مناقشة مفصلة لجزئيات البحث ، انما الوقوف – قليلا – عند بعض الملامح الاساسية فيه منهجا وموضوعا.

والبحث المذكور لا يعدو ان يكون نموذجا للمنهج الاستشراقي في دراسة التاريخ الاسلامي ، وهو منهج يقوم على فحص هذا التاريخ من الخارج ، ويتكئ على قدر كبير من مواضعات العصر ، محاولا ان يعاين الوقائع التاريخية من خلالها ، دون ان يبذل جهدا يذكر – لسبب أو آخر – في التوغل في صميم التركيب التاريخي للوقائع ، أو ادراك المناخ الطبيعي الذي تخلقت فيه ، لفهم مسيرتها وصيرورتها ومنحنياتها.

ولكنه نموذج (معتدل) ، ومن ثم فهو اولى بالنقاش .. فاما النماذج المتطرفة على طريقة الأب اليسوعي (لامانس) و(دوزي) و(كريمر) و(موللر) وتلامذتهم .. فان تطرفها البالغ هو الذي يتكفل باسقاطها من ميدان البحث العلمي الجاد ، ويخرجها من اطاره ، فلا تستحق نقاشا.

وما دام الباحث قد جعل اعتماده الاساسي على (الطبري) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) ، باعتباره المصدر الام لمعظم البحوث التي عالجت القرون الثلاثة الاولى من تاريخنا، فسنعتمده مرة اخرى مصدراً اساسيا في مناقشتنا هذه ، مع ملاحظة ان ما كل ما اورده الطبري صوابا .. فانه هو نفسه يحذر في مقدمة كتابه الكبير من التسليم المطلق بروايته " فما يكن في كتابي هذا – يقول الرجل – من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجها صحيحا .. فليفهم انه لم يؤت بذلك من قبلنا ، وانما اتي من بعض ناقليه الينا ، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادي الينا ..".

والبحث الاسلامي – اليوم – بحاجة الى البناة ، الذين يملكون الحس النقدي بطبيعة الحال ، اكثر منه الى النقاد .. ان قضايا كثيرة في تاريخنا وفكرنا ، ينتظر قرننا العشرون هذا من يكشف النقاب عنها ، أو يعيد عرضها بالاسلوب الذي يمكنه من ايصال الصوت الى سمع هذا القرن وفؤاده.

---

(١) مجلة آداب الرافدين ، ص٨–٣٢ ، العدد السابع ، ١٩٧٦م ، (اصدار كلية الاداب جامعة الموصل).

أما ملاحقة معطيات الاخرين ، كشفا عن خطا فيها ودفاعا عن قيمة في تاريخنا وفكرنا، فيبدو امرا ثانويا .. ولن يحتل الخط الامامي الا بعد ان يتم انجاز القدر الاكبر من مساحات البناء.

ومع ذلك ، فان العملية النقدية ، ما دامت تتضمن قدراً من الانجاز البنائي في جانب ما من جوانب الفكر أو التاريخ .. تغدو جديرة بالممارسة هي الاخرى ، شرط الا تكون هدفا بحد ذاتها.

– ١ –

في موضوع المعارضة التي جوبه بها انتخاب ابي بكر (رضي الله عنه) للخلافة ترد هذه العبارة : " .. ورغم تخلف علي ابن ابي طالب وبعض بني هاشم عن البيعة فترة من الزمن لم تتجاوز ستة اشهر ، على ما يروي الطبري[١] ، ربما بسبب اعتقاد علي بانه احق من غيره بالخلافة لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبسبب خلاف نشب بين زوجته فاطمة وأبي بكر الصديق حول حقها في ميراث الرسول على ارجح الاقوال ... ".

لكننا برجوعنا الى الطبري مرة اخرى سنجد انفسنا امام تيار اخر ، مضاد ، من الروايات ، يؤكد (اسراع) علي (رضي الله عنه) بانتخاب ابي بكر (رضي الله عنه) منذ الايام، بل الساعات ، الاولى .. وانه يتوجب علينا في حالة كهذه ان نعرض للتيارين معا ، ونقلب الروايات على وجوهها جميعا .. والا نقف على وجه واحد للواقعة التاريخية ، بل ان ندور حولها متمعنين من اجل رؤية جوانبها جميعا .. وبعد ذاك يمكن ان يجيئ (الحكم) أو (الترجيح) التاريخي ، لا قبله باية حال من الاحوال .. ان عرض التيار المضاد من الروايات في تحليل الواقعة التاريخية لا يلغي تركيبها ويمسه باشارة سحرية فيغير مكوناته ومساحاته تغييرا كليا ، وانما يحدث – إذا صح التعبير – تخفيفا في اللون ، ويمنح القارئ درجات لونية (تونات) اقرب الى الواقع واكثر موضوعية.

ما الذي يقوله هذا التيار المعاكس من الروايات ؟!

ثمة نصوص عديدة يمكن ان نمثل لها بهاتين الروايتين فحسب : " قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد : اشهدت وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قال : نعم. قال : فمتى بويع ابو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله ، كرهوا ان يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال : (فهل) خالف عليه احد ؟ قال : الا من ارتد ، أو كاد يرتد ، لولا ان الله (عز وجل) ينقذهم من

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، ١٨٢٠/٤ ، ١٨٢٥ (طبعة بريل–تصوير بيروت).

الانصار .. قال : فهل قعد احد من المهاجرين ؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير ان يدعوهم "[١].

وعن حبيب بن ابي ثابت قال : " كان علي ، إذ اتى فقيل له : قد جلس ابو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلا ، كراهية ان يبطئ عنها ، حتى بايعه. ثم جلس اليه وبعث الى ثوبه فاتاه فتجلله ، ولزم مجلسه "[٢].

وثمة روايتان أخريتان تحملان دلالتهما في الموضوع نفسه : " قال ابو سفيان لعلي: ما بال هذا الامر في اقل حي من قريش ؟ والله لئن شئت لأملانها عليه خيلا ورجالا. فقال علي : يا أبا سفيان طالما عاديت الاسلام واهله فلم تضره بذاك شيئا. انا وجدنا ابا بكر لها اهلا "[٣]. وتقول الرواية الاخرى : انه لما اجتمع الناس على بيعة ابي بكر ، اقبل ابو سفيان وهو يقول : والله اني لأرى عجاجة لا تطفؤها الا دم !! يا آل عبد مناف فيم أبا بكر من اموركم ؟ اين المستضعفان ؟ اين الاذلان علي والعباس ؟ وقال : ابا حسن ، ابسط يدك حتى ابايعك. فابى علي عليه .. وزجره وقال : انك والله ما اردت بهذا الا الفتنة ، وانك والله طالما بغيت بالاسلام شرا. لا حاجة لنا في نصيحتك "[٤].

ثم ماذا بعد ؟ لابد ان يكون لهذا (التوافق) السياسي بين الرجلين ، المنبثق من الارضية العقيدية التي صهرتهما وصاغتهما على عين الله ورسوله ... من مردود تاريخي ، اشد تمنّعاًعلى النقد والرفض من المعطيات النظرية والتاويلية التي وضع معظمها فيما بعد ، ودوّن بعد قرن من الزمن على اقل تقدير ، حتى لقد بلغت حد التورم والانتفاخ ... ان المردود التاريخي هو فعل في قلب الواقع ، وتغيير منظور في خرائط الحركة التاريخية .. اما المعطيات والنصوص والروايات النظرية (التالية) فلم يكن لها من الثقل بحيث نضعها جنبا الى جنب مع الوقائع التي بلغت حد التواتر.

علي (رضي الله عنه) وهو يتولى ورفيقه الزبيربن العوام (رضي الله عنه) قيادة فرقة الأنقاب في خلافة ابي بكر نفسه (رضي الله عنه) لمجابهة اي غزو محتمل قد تقوم به قوى الردة المتواجدة عند تخوم المدينة .. خروجه مع الصديق الى ذي القصة للبدء بقتال المرتدين[٥] ... حضوره الدائم المكثف في كافة المناقشات ، واسهامه المباشر في اتخاذ القرارات الحاسمة

---

(١) الطبري : تاريخ ٢٠٧/٣ ، طبعة دار المعارف بمصر ، تحقيق : أبي الفضل ابراهيم (وسيكون جل اعتمادنا على هذه الطبعة ، وفي الحالات القليلة التي ستعتمد فيها الطبعة الاخرى فسيشار الى ذلك).

(٢) نفسه.

(٣) المصد السابق ، ٢٠٩/٣.

(٤) نفسه.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢٤٩/٥.

... عدم انقطاعه ، البتة ، عن الصلاة خلف الصديق ، بكل ما يحمله ذلك من دلالة[١] .. تكوينه الاخلاقي الذي يرفض الازدواج والنفاق ، فلا يتعامل مع سلطة لا يؤمن – اساسا– بشرعيّتها ، او يتأخر عن الاعتراف بها ، فلا يمد يده لمبايعتها الا بعد اشهر طويلة ، وبعد ممارسة ضغوط عديدة ضده ، كما ترى بعض الروايات بحجة انه صاحبها الشرعي الوحيد ...

اننا –على العكس من ذلك – نسمعه يقول ، خلال مناقشات الشورى في أعقاب وفاة عمر (رضي الله عنه) : " لو عهد الينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عهدا لانفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت "[٢].

ويتأكد الحس الشوري لدى علي (رضي الله عنه) ، الحس الذي هو نقيض تماما لفكرة استلام (الحق بالتعين) ، يتاكد مرة اخرى في المناقشات التي شهدتها ساحات المدينة في اعقاب مقتل عثمان (رضي الله عنه) ، عندما الحت جماهير المسلمين على انتخابه. عن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : " كنت أمسي مع أبي حين قتل عثمان ، فاتاه ناس من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : ان هذا الرجل قد قتل ، ولابد من امام للناس. قال : او تكون شورى ؟ قالوا : انت لنا رضا. قال : فالمسجد اذن يكون عن رضا من الناس. فخرج الى المسجد فبايعه من بايعه ... "[٣]. يقول الطبري بالحرف : " فلما اصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء علي حتى صعد المنبر فقال : ايها الناس – عن ملأ واذن– ان هذا امركم ، ليس لأحد فيه حق الا من امّرتم ، وقد افترقنا بالامس على امر ، فان شئتم قعدت لكم والا فلا اجد على احد. فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالامس "[٤].

(ان هذا امركم ليس لأحد فيه حق الا من امّرتم) ، وذلك هو القول الفصل الذي يقودنا الى عمق الحس الشوري لدى علي (رضي الله عنه) وشرعية الحرية الانتخابية التي يطمح اليها.

وبنقلة سريعة صوب المستقبل ، وباعتماد منهج قياسي ، نجد عليا (رضي الله عنه) يتخذ الموقف الايجابي نفسه تجاه الخليفة التالي عمر (رضي الله عنه) .. فيكون رجل الدولة الاول وساعدها الايمن .. وكلنا نعرف عبارة عمر : (لولا علي لهلك عمر) ، ونعرف محاولته (رضي الله عنه) انابة علي (رضي الله عنه) عنه في المدينة لما قرر التوجه الى العراق لمتابعة العمليات الحربية هناك.

---

(١) نفسه.

(٢) الطبري : تاريخ ، ٢٣٦/٤.

(٣) المصدر السابق ، ٢٣٦/٤.

(٤) المصدر السابق ، ٤٣٥/٤.

ليس هذا فحسب ، بل ان عليا على المستوى الشخصي ، يزوج عمر بن الخطاب ابنته، ويتبرك بتسمية ابنائه ، بعد الحسن والحسين ومحمد ، بابي بكر وعمر الاكبر وبعد موته: عمر الاصغر وعثمان !!

لقد جابهت الدولة الاسلامية في خلافة الرجلين ، ابي بكر وعمر ، اخطر التجارب في تاريخها : الحركة المضادة المعروفة بالردة ... مجابهة عسكرية ومصيرية حاسمة مع نظم العالم القائمة يومذاك .. تحديات حضارية دائمة تتطلب استجابات ناجحة باستمرار .. لقد كانت الامة الاسلامية امام امتحانها العسير .. وكان عليها ان تنجح او ان تنتكس .. ولقد نجحت في نهاية الامر على المستويات الثلاثة ..

وحركة التاريخ الاسلامي تحدثنا ، بالمتواتر المنظور ، كيف ان محاولة الحركة المضادة سحقت (فعلا) ، وكيف ان نظم العالم الجائرة دمرت (فعلا) ، وكيف ان اجهزة ونظما ومؤسسات استجدت (فعلا) كاستجابة لتحديات الزمن الجديد والبيئة الجديدة.

وحركة التاريخ (الثقيلة) هذه ، ما كان لها ان تتحقق هذا التحقّق لو كانت الامة الاسلامية، والدولة الجديدة ، تعاني في قياداتها العليا انشقاقا خطيرا .. ان (التجربة) اكثر اقناعا، ولا ريب ، من مجرد (النصوص) الاخبارية التي لا مردود لها على مستوى الفعل التاريخي ازاء التحديات الكبرى.

إننا نرى – على سبيل المثال – كيف ان الفتوحات الاسلامية قطعت اشواطا واسعة مذهلة في عهد الخليفتين الاولين والسنين الاولى من عهد الخليفة الثالث ، ثم ما لبثت ان توقفت فترة من الزمن لكي تعود فتستأنف قدرتها على الانجاز في عهد معاوية .. واننا لنرى– ايضا– كيف لم يتقدم الامويون في خلافة عبد الملك او سليمان (فيما عدا مجازفة القسطنطينية) ، بينما فتحوا المشارق والمغارب في خلافة الوليد.

ان الوقائع التاريخية المنظورة هنا لاتعطي للصدفة اية مساحة في الفعل التاريخي .. ولا ريب ان هنالك قانونا يفسر : لماذا ، عبر هذا المدى الزمني القصير نسبيا ، تحققت ظاهرة الفتح وتوقفت مرتين ؟

والجواب ، ازاء الانجازات التاريخية الكبرى ، يكمن دائما في وحدة الامة ووحدة قيادتها .. في تجمع طاقاتها ، في مرحلة ما من مراحل التاريخ ، وقدرتها على صنع الانجاز الكبير. وعلي نفسه ينطلق من دور الشيخين في صنع هذا الانجاز عندما كان يعلن من على منبر الكوفة ، بعد توليه الخلافة ، اكثر من مرة : " الا ان خير هذه الامة ، بعد نبيها ، ابو بكر وعمر " ، ولقد روى عنه قوله هذا اكثر من ثمانين وجها بالاسلوب العلمي التاريخي الموثوق به. وعندما كان

يقول : " لا اوتى باحد يفضلني على ابي بكر وعمر الا ضربته حد المفتري "[١]. وعن النزال بن سبرة ان عليا سئل عن ابي بكر فقال : " ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل وعلى لسان محمد (صلى الله عليه وسلم). رضيه (صلى الله عليه وسلم) لديننا فرضيناه لدنيانا "[٢].

وعن الحسن قال : " جاء رجل الى علي فقال : يا أمير المؤمنين كيف سبق المهاجرون والانصار الى بيعة ابي بكر وانت اسبق منه سابقة واروى منه منقبة ؛ فقال علي: ويلك ، ان ابا بكر سبقني الى اربعة لم اوتهن ولم اعتض منهن بشيء : سبقني الى افشاء الاسلام وقدم الهجرة ومصاحبته في الغار واقام الصلاة ، وانا يومئذ بالشعب اظهر الاسلام واخفيه .. "[٣] .. وعن علي قال : " انه – أي ابو بكر – لأرأف الناس ، وانه لصاحب رسول الله في الغار ، وانه لأعظم الناس غناء عن نبيه (صلى الله عليه وسلم) في ذات يده "[٤]. وعن موسى بن شداد قال: " سمعت عليا (رضي الله عنه) يقول : افضلنا ابو بكر. "[٥] ... وغير هذه ، روايات اخرى كثيرة، يقيّم فيها على رفيقيه ابا بكر وعمر[٦].

***

أما مسالة حق فاطمة (رضي الله عنها) في ميراث الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث قيل كثيرا بانه كان احد اسباب الجفاء بين فاطمة وعلي من جهة والخليفة ابي بكر من جهة اخرى .. فان لها وجها اخر يتوجب على المؤرخ الجاد ان يعاينه قبل ان يمضي للحسم او الترجيح .. ان ابا بكر اجاب فاطمة بصراحة : ان اباها نبي ، وان الانبياء لا يورثون ، وان ما يتركونه صدقة للمسلمين جميعا. قال : اما اني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول (لا نورث. ما تركناه صدقة. انما ياكل آل محمد في هذا المال. واني والله لا ادع امرا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه الا صنعته !!)[٧]. وفي كتاب (فضائل الصحابة) من صحيح البخاري[٨] ، ان عليا اجابه : انا عرفنا يا ابا بكر فضيلتك ولكنه الحق والقرابة. فاجابه أبو بكر :

---

(١) انظر بالتفصيل : محب الدين الخطيب : حملة رسالة الاسلام الاولون ، صفحة ١١-١٢ (دار الكتاب العربي–القاهرة).

(٢) المحب الطبري : الرياض النضرة ، ١٨٧/١.

(٣) المصدر السابق ، ٧٥/١-٧٦.

(٤) المصدر السابق ، ١١٤/١.

(٥) المصدر السابق ، ١٢١/١.

(٦) للمزيد من التفصيل انظر المصدر السابق ، ١٨٧/١-١٨٨.

(٧) الطبري : تاريخ ، ٢٠٧/٣.

(٨) ٢٠٩/٤-٢١٠.

: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله احب الي ان اصل من قرابتي.

إن عائشة نفسها ، ابنة الخليفة ، كانت من ورثة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث ولو جرى ابو بكر مع ميله الفطري لاحب ان ترث ابنته[١] .. ولكنه الالتزام .. ونقرأ في (منهاج السنة) لابن تيمية[٢] ، انه عندما تولى علي الخلافة وصارت فدك وغيرها تحت حكمه ، لم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ولا ولد العباس شيئا من ميراثه .. لانه الالتزام .. هنا وهناك.

لقد كان بمقدور ابي بكر ، لو كانت المسألة مجرد صراع على السلطة ان يكون ماكيافلليا وحاشاه .. ان يسكت فاطمة بميراث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في فدك وخيبر ، ويسد على خلافته ثغرة قد تتسرب منها بعض المتاعب .. لكن المسالة لم تكن قضية صراع سياسي ، انما قضية الجيل الذي صنعته العقيدة ، ورباه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وثمنه القران الكريم .. الجيل الذي استطاع (فعلا) ان يحقق الانجازات التاريخية الكبرى بسبب من هذا كله .. لقد طرح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاعدة ان الانبياء لا يورثون ، وان الخليفة الاول مسؤول عن كلمات الرسول ... والا خان الامانة .. وابو بكر يقولها بوضوح : " لست تاركا شيئا كان رسول الله يعمل به ، الا عملت به ، فاني اخشى ان تركت شيئا من امره ان ازيغ "[٣]. وهو عندما قرر انفاذ جيش اسامة الى فلسطين ، وقال له الناس : ان هؤلاء جل المسلمين ، والعرب – على ما ترى – قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين .. اجاب : والذي نفس ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما امر به رسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته[٤] وينهي زيد بن علي كل لجاجة في هذه المسالة عندما يقول : " وايم الله لو رجع القضاء اليّ لقضيت بما قضى به ابو بكر .. "[٥].

لا أريد ان اقول بان البحث الذي بين ايدينا يمضي مع صورة (الصراع) المبالغ فيها الى نهلية الشوط .. ابدا .. بل العكس ، انه يحاول في اكثر من موضع ان يضيق الشقة ما وسعه الجهد .. الا انه ازاء وقائع كهذه يتوجب عليه الا يقف عند جانب واحد من الواقعة التاريخية وان يمد رؤيته لإلتقاط كل ما قد قيل من اجل ان تكون الصورة اكثر موضوعية.

---

(١) ابو بكر بن العربي : العواصم من القواصم ، هامش الصفحة ٤٨ (تحقيق محب الدين الخطيب).

(٢) ٢٣٠/٣.

(٣) صحيح البخاري ، ٤٢/٤.

(٤) الطبري : تاريخ ، ٣/ ٢٢٥.

(٥) المحب الطبري : الرياض النضرة ، ٥٩/١.

– ٢ –

وتحت موضوع (ابو بكر والعهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب) ترد هذه العبارة " .. كان عمر بن الخطاب اقرب الشخصيات الصالحة لهذا المنصب الى قلبه (ابي بكر) ، فهو بالاضافة الى جهاده الطويل قي خدمة الاسلام ، ومكانته البارزة في المجتمع ، كان اول من عمل على مبايعة ابي بكر بمنصب الخلافة ، وكان اقرب الاعوان اليه في حكم البلاد .. " ، وبعد ان يستعرض جانبا من الاستشارات التي اجراها ابو بكر ، والتي انتهت بترشيحه لمنصب الخلافة ، يتطرق لما اسماه ، بالمعارضة التي جوبه بها الترشيح ، ويقول : " .. ويبدو ان المعارضة لاستخلاف عمر كانت تنحصر بين كبار الصحابة من اهل الحل والعقد المتطلعين الى شغل منصب الخلافة ..." ، ثم يخلص الى القول بأنه " لم تظهر اية معارضة لذات الطريقة التي اختارها ابو بكر للعهد بالخلافة إلى عمر ، والتي كانت صورة من صور التعيين وليس الانتخاب ، مما يشعر بان هذه الطريقة في التعيين لم تكن غريبة على تقاليد العرب في اختيار الرئيس ".

ثمة ما يستوقف الباحث في هذا العرض : فهنالك – من جهة – ما يشبه الاتفاق الثنائي لتسلم السلطة والتعاون عليها بين ابي بكر وعمر ، مما يذكرنا ببحث ماسيه وبروكلمان والاب لامانس اليسوعي الموسوم بـ (الحكومة الثلاثية) حيث سعى الكتاب الثلاثة إلى تاكيد مسالة ان اتفاقا ، أو مؤامرة ، تمت بين ابي بكر وعمر وابي عبيدة بصدد الوصول إلى السلطة وحجبها عن بني هاشم .. وهنالك – من جهة اخرى – معارضة قادها كبار الصحابة من اهل الحل المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة .. وهنالك – ثالثا – (تعيين) لعمر بن الخطاب وليس (انتخابا) .. وهنالك – رابعا – استمرار لتقليد عربي جاهلي قديم يمنح هذه الصيغة قبولا لدى جماهير المسلمين.

بعبارة اخرى تبدو مسالة وصول عمر بن الخطاب إلى السلطة ، تجربة اخرى تتضمن الكثير من السلبيات ، من مثل الاتفاق المسبق بعيدا عن ارادة الجماهير ، والصراع على السلطة، واستمرار التقليد القبلي ، كانه لم يكن هنالك برنامج ايديولوجي جديد يمتلك رؤيته المستقلة الخاصة لمسالة الحكم هذه.

فلنناقش بعض هذه الافتراضات ، حتى إذا تبين لنا عدم صوابها (المطلق) عرفنا انها لا تعدو ان تكون مجرد فرضيات لم تصل عتبات اليقين الاولى ..

هل صحيح ان احد اسباب ترشيح ابي بكر لعمر ان الاخير كان وراء انتخاب ابي بكر في السقيفة ؛ اذن لماذا لم تعلن (المعارضة) احتجاجها على هذا التواطؤ (اذا صح التعبير)؟ لماذا كان جواب الناس ، وقد اطل عليهم ابو بكر وسألهم : " اترضون بمن استخلف عليكم ؟

فاني – والله – ما الوت جهد الراي ، ولا وليت ذا قرابة ، واني قد استخلفت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له واطيعوا " ، لماذا كان هذا الجواب : " سمعنا واطعنا "[1] ؟ اما كان بمقدورهم ، وهم الطليعة التي ربيت على النقد الحر والمجابهة المكشوفة ، ان يعربوا عن سخطهم أو رفضهم – إذا اقتضى الامر – لهذه الطريقة التي اعتمدها ابو بكر لاستنادها على خلفيات المصلحة المتقابلة في الوصول إلى السلطة ؟

لقد كانت الكلمات الاولى التي اعلنها ابو بكر لدى تسلمه السلطة ، وهو في عز قوته ، تتضمن دفعاً لهذا الجيل من الصحابة والتابعين إلى النقد والمعارضة والرفض : " ايها الناس ، اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، ان احسنت فاعينوني وان اسات فقوموني ... " ، افيقدم الرجل في اخريات ايامه ، وهو يتأرجح بين الموت والحياة ، ويستعد للحظة الحساب الفاصلة ، على الالتفاف على مشيئة الامة وانتخاب الرجل الذي اعانه على الوصول إلى السلطة، باعتبار ان هذه الاعانة هي عامل فاصل في الاختيار ؟

إن اختيار الرجل الثاني جاء في تلك اللحظات الصعبة التي حدثنا عنها ابو بكر الصديق بالصدق الذي لا يمكن ان نشك فيه ، وهو يملي كتاب ترشيحه لعمر " عند اخر عهده – أي ابي بكر – بالدنيا واول عهده بالاخرة ، الحال التي يؤمن بها الكافر ويتقي الفاجر .. : اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ... الخ " .. افيجوز لأبي بكر الصديق ، وهو يوشك على مفارقة الحياة ان يوفي دينه المصلحي القديم على حساب ارادة الامة ، ويذهب إلى الله وهو يحمل هذا الوزر ، بعد حياة طويلة حافلة بالتجرد والاذى والخوف والمطاردة ، ووضع (الذات) في خدمة اهداف الجماعة العليا ؟ اما كان بمقدور أبي بكر منذ شبابه الاول ان يتجاوز هذا كله بحثا عن تطمين مصالحه واهدافه القريبة ، بدلا من ان ينتمي للدعوة الجديدة فيحمل همها وتغربها ورعبها في تلك الايام الطويلة الصعبة ؟ الايام التي انفق فيها جل ما جمعه من مال ، فلما ساله الرسول ، (صلى الله عليه وسلم) : وماذا ابقيت لعيالك ؟ اجابه : ابقيت لهم الله ورسوله..

ان بداهات البحث في اخلاق الرجال .. وبداهات الالتزام الايماني الذي لا يزال يستطعمه – ولله الحمد – في عصرنا هذا كثير من الرجال .. ترفض هذا التحليل الذي يرتطم اساسا وهذه البداهات لانه يطرح ، وباسلوب ملتو – لعبة (اعطني لكي اعطيك) .. وليست الحياة البشرية محض تقابل في (المصالح) وصراع عليها ، والا فقدت طعمها وقيمتها وشرفها.

***

(١) الطبري : تاريخ ، ٣ / ٤٢٨.

وماذا عن معارضة اولئك المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة ؟

للوهلة الاولى يبدو ان هنالك قطاعاً واسعا من اهل المدينة عارضوا انتخاب عمر ، فهو يقول : " لم يستقبل استخلاف ابي بكر لعمر بالرضا من قبل جميع سكان المدينة ، بل كان هنالك من يعترض على انتخاب عمر لهذا المنصب ويجهر بمعارضته " ويتكئ على هذه الرواية " دخل طلحة بن عبيد الله على ابي بكر فقال : استخلفت على الناس عمر وقد رايت ما يلقى الناس منه وانت معه ، فكيف به اذا خلا بهم ؟ وانت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ؟ فقال ابو بكر – وكان مضطجعا – اجلسوني فاجلسوه ، فقال لطلحة : اباالله تخوفني ؟ اذا لقيت الله ربي فسألني قلت استخلفت على اهلك خير اهلك "[1].

والرواية ، كما يتبين بوضوح ، لا توحي بوجود قطاع واسع من المعارضة ، فضلا عن انها – كما فهمها كثير من المؤرخين – تعبر عن وجهة نظر احد رفاق عمر في العقيدة ، وتتضمن بعدا ايجابيا يوجه النقد الى عمر بما هو اهل له : الصرامة والشدة ، في عصر كان يتوجب ان يسوس الامة رجل كهذا .. وهو القائل في اول كلماته بعد توليه الخلافة " انما مثل العرب كمثل جمل انف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، اما انا فورب الكعبة لاحملنهم على الطريق .. " ، " ولست أدع احدا يظلم احدا حتى اضع خده على الارض ثم اضع قدمي على الخد الاخر حتى يذعن بالحق .. ثم اني اضع خدي على الارض لاهل العفاف واهل الكفاف ".

وطلحة يخشى ان تتجاوز شدة عمر مداها المعهود .. وليس الا ، ومن ثم فهو عندما يستمع الى رد ابي بكر يسكت يكون سكوته من القرار ، فهي اذن ليست معارضة بالمعنى الدقيق سيما واننا لا نجد ، طيلة خلافة عمر ، أي رد فعل مضاد يعبر عن معارضة طلحة.

ولسنا ندري كيف عقب الباحث على الرواية الانفة بالاستنتاج التالي " يظهر ان معارضة طلحة لاستخلاف عمر ، كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل من سكان المدينة " اذ انه ما يلبث ان يتكئ على موقف صحابي اخر هو عبد الرحمن بن عوف ، ما نلبث ان نتبين من كلماته انه لم يتخذ موقف المعارضة بكل ما تحمله هذه الكلمة من ابعاد ، وانما هو (يشير) على الخليفة فحسب .. ثم ان موقفه هذا ، لا يعطينا أي دليل على الاستنتاج انف الذكر، من ان معارضة طلحة كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل.

دخل عبد الرحمن بن عوف على ابي بكر فوجده مغتما ، فلما سأله عن السبب اخبره " اني وليت امركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم انفه من ذلك يريد ان يكون الامر له دونه " ، غير ان عبد الرحمن ابن عوف حاول التخفيف عنه بقوله : " خفف عليك رحمك الله ، فان هذا

---

(١) المصدر السابق ، ٤٣٣/٣.

يهيضك في امرك. انما الناس في امرك بين رجلين ، اما رجل رائ ما رايت فهو معك ، واما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك اردت الا خيرا ، ولم تزل صالحا مصلحا وانك لا تأسى على شيء من الدنيا "[١].

واننا لنقرأ في رواية اخرى ، يوردها الطبري نفسه ، كيف ان ابا بكر يستدعي – خلال مرضه – عبد الرحمن بن عوف ويقول له : " اخبرني عن عمر " فيجيب " يا خليفة رسول الله هو والله افضل من رايك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة " فيقول ابو بكر : " ذلك لانه يراني رقيقا ، ولو افضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه. ويا ابا محمد قد رمقته فرايتني إذا غضبت على الرجل في الشيء اراني الرضا عنه ، واذا لنت له اراني الشدة عليه ، لا تذكر يا ابا محمد مما قلت لك شيئا. قال : نعم "[٢].

فكانه الإقرار الذي انتهى اليه موقف طلحة .. وليس اذن ثمة معارضة واسعة ، أو تمثيل لمعارضة واسعة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، سيما واننا لا نجد – كذلك – طيلة خلافة عمر ، أي رد فعل مضاد يعبر عن معارضة الرجل.

أما عبارة ابي بكر " فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد ان يكون الامر له دونه " فتقودنا – بالضرورة – إلى مسالة " التطلع إلى شغل منصب الخلافة من قبل اهل الحل والعقد ". وقبل ان نناقش هذه العبارة علينا ان نلجا إلى القرائن التاريخية لتبين مواقف اهل الحل العقد هؤلاء ، من السلطة ، ولنبدا بالخليفة الاول نفسه.

إن الطبري يورد لنا هذا المقطع ذا الدلالة من حوار جرى بين ابي بكر وعبد الرحمن ، يقول فيه الخليفة " وددت اني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الامر في عنق احد الرجلين – يريد عمر وابا عبيدة – فكان احدهما اميرا وكنت وزيرا "[٣]. وفي لقاء مع عثمان بن عفان يطرح الامنية بشكل اكثر حدة " لوددت اني كنت خلوا من اموركم ، واني كنت فيمن مضى من سلفكم "[٤].

أما عمر بن الخطاب ، فكلنا نعرف دعاءه الدائم في سني خلافته الاخيرة " اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي ، فاقبضني اليك غير مضيع و مفرط ، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك " ، ونعرف رده الحاسم على الرجل الذي اقترح عليه تولية ابنه عبد الله من بعده " قاتلك الله ، والله ما اردت الله بهذا. ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امراته ؟!

---

(١) المصدر السابق ، ٣/٤٣٠.

(٢) المصدر السابق ، ٣/٤٢٨.

(٣) المصدر السابق ، ٣ / ٤٣٠.

(٤) المصدر السابق ، ٣ / ٤٢٨.

لا أرب لنا في اموركم ، ما حمدتها فارغب فيها لأحد من اهل بيتي ، ان كان خيرا فقد اصبنا منه ، وان كان شرا فبحسب ال عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ويسال عن امر امة محمد. اما لقد جهدت نفسي وحرمت اهلي ، وان نجوت كفافا لا وزر ولا اجر اني لسعيد "[١]. كما نعرف اخراج ابنه – فعلا – من هيئة الشورى التي عهد اليها انتخاب رجل من بينها. ويحدثنا عمر عن يوم السقيفة وكيف ان ابا بكر اخذ بيده وبيد ابي عبيدة وقال للمجتمعين : بايعوا ايهما شئتم ، ويختتم حديثه قائلا " واني والله ما كرهت من كلامه شيئا غير هذه الكلمة ، ان كنت لاقدم فتضرب عنقي ، فيما لا يقربني إلى اثم ، احب اليّ من ان اؤمر على قوم فيهم ابو بكر "[٢].

وفي تجربة الشورى نجد عبد الرحمن ، الذي اتهم قبل قليل بانه يتطلع للسلطة ، يقول لرفاقه الاخرين. " ايكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم ؟ " واذ لا يجيبه احد يقول : " فأنا انخلع منها "[٣] ، ويقول لسعد " اني قد خلعت نفسي منها على ان اختار ، ولو لم افعل ، وجعل الخيار اليّ ، لم اردها !! "[٤]. وخلال المشاورات المكثفة التي اجراها لإختيار الخليفة الجديد ، يسأل سعد بن ابي وقاص " من تشير عليّ ؟ فأما انا وانت فلا نريدها !! فمن تشير عليّ ؟ " فيجيبه سعد : " عثمان "[٥].

أما الزبير ، فانه يقول خلال اجتماعات الشورى " لولا حدود لله فرضت ، وفرائض لله حدت ، لكان الموت من الامارة نجاة ، والفرار من الولاية عصمة ، ولكن لله علينا اجابة الدعوة واظهار السنة "[٦]. وهو في كلماته هذه يضع يده على الدافع الحقيقي الذي يحرك المتطلعين الى الى السلطة .. انها – كما سنرى – مغرم وليست مغنما ، وكدح وليست ترفا .. نصب وسهر وليست استلقاء وتخمة ونوما .. ولكنها ضرورة اذا ما اريد لهذه الامة ان تواصل مهمتها التاريخية ، واذا ما اريد لعقيدتها ان تضرب جذورها في الارض .. انه على مدار التاريخ حدث صراع على السلطة او تطلع عليها من زعماء الثورات والانقلابات ... ونخطئ ان قلنا انهم جميعا سعوا لتحقيق مطامحهم الخاصة واشباع نزواتهم الذاتية .. لا ريب ان فيهم الكثيرين الذين ارهقتهم السلطة وآذاهم العمل السياسي ، ولكنهم ارادوها لانهم رأوا انفسهم قادرين على تحمل مسؤولياتها ، ومن ثم فهم مسؤولون عن المطالبة بها !! ان خلاف (ستالين) مع (تروتسكي) –

---

(١) المصدر السابق ، ٤ / ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق ، ٣ / ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق ، ٤/٢٣١.

(٤) المصدر السابق ، ٤/٢٣٢.

(٥) المصدر السابق ، ٤/٢٣٧.

(٦) المصدر السابق ، ٤/٢٣٦.

مثلا – لم يفسر من قبل اتباعهما على انه صراع شخصي مصلحي على السلطة بقدر ما فسر على انه سعي لتنفيذ اكثر واقعية (ستالين) او ثورية (تروتسكي) للتعاليم الماركسية – اللينينية.

وحين قتل عثمان ، اجتمع المهاجرون والانصار ، فيهم طلحة والزبير " فأتوا عليا فقالوا : يا أبا حسن هلم نبايعك ، فقال : لا حاجة لي في امركم ، انا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا والله !! فقالوا : ما نختار غيرك .. فاختلفوا اليه مرارا ، ثم اتوه في اخر فقالوا له : انه لا يصلح الناس الا بأمرة ، وقد طال الامر. فقال لهم : انكم قد اختلفتم الي ، واني قائل لكم قولا ان قبلتموه قبلت امركم ، والا فلا حاجة لي فيه. قالوا : ما قلت من شيء قبلناه ان شاء الله. فصعد المنبر ، فاجتمع الناس اليه فقال : اني قد كنت كارها لأمركم فأبيتم الا ان اكون عليكم ، الا واني ليس لي امر دونكم ، الا ان مفاتيح مالكم معي ، الا وانه ليس لي ان أخذ منه درهما دونكم ، رضيتم ؟ قالوا نعم. قال : اللهم اشهد عليه ، ثم بايعهم على ذلك "[1]. وفي رواية اخرى انه (رضي الله عنه) " كان يهرب من الناس وهم يلحون عليه بقبول بيعتهم ، حتى انه دخل بستان بني عمرو بن مبذول وطلب ان يقفل عليه الباب "[2].

وتتوالى الروايات عن موقف علي واخوانه من السلطة خلال الايام التي اعقبت مقتل عثمان ، فتذكر كيف " ان الناس كانوا يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالامر فلا يجدونه. ياتي المصريون عليا فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة ، فاذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة. ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، فارسلوا عليه حيث هو رسلا فباعدهم وتبرا من مقالتهم. ويطلب البصريون طلحة فاذا لقيهم باعدهم وتبرا من مقالتهم مرة بعد مرة. وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيما يهوون ، فلما لم يجدوا ممالئا ولا مجيبا قالوا : لا نوليّ احدا من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا الى سعد بن ابي وقاص وقالوا : انك من اهل الشورى، فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك ، فبعث اليهم : اني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لنا فيها على حال ، وتمثّل :

لا تخلطـــــن خبيثـــــات بطيبـــــة واخلــع ثيابــك منهــا وانــج عريانــاً

ثم انهم أتوا بن عمر فقالوا : انت ابن عمر فقم بهذا الامر ، فقال : ان لهذا الامر انتقاما ، والله لا اعترض له فالتمسوا غيري "[3].

---

(١) المصدر السابق ، ٤/٤٢٧-٤٢٨.

(٢) المصدر السابق ، ٤/٤٢٨.

(٣) المصدر السابق ، ٤/٤٣٢.

وعن الشعبي قال : " لما قتل عثمان أتى الناس عليا وهو في سوق المدينة وقالوا له : ابسط يدك نبايعك ، قال : لا تعجلوا ، فان عمر كان رجلا مباركا وقد اوصى بها شورى فامهلوا يجتمع الناس ويتشاورون " " فلما اجتمع لهم اهل المدينة قال لهم اهل مصر : انتم اهل الشورى وانتم تعقدون الامامة ، وامركم عابر على الامة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن تبع لكم. فقال الجمهور : علي بن ابي طالب نحن به راضون "[١]. اما محمد بن سيرين فيذكر كيف ان عليا جاء " فقال لطلحة : ابسط يدك يا طلحة : انت احق وانت امير المؤمنين فابسط يدك ، فبسط علي يده فبايعه "[٢].

وليس من المؤكد بأن رفض علي واصحابه قبول السلطة بعد مقتل عثمان هو تخوفهم من تهمة الاشتراك في الفتنة ، لأن موقفهم من عثمان كان واضحا بينا لم يتعدّ المعارضة (السلمية) لبعض سياساته ، وعلي ، الذي يعد اشدهم معارضة ، كان قد بعث ولديه الحسن والحسين للاسهام في الدفاع عن عثمان. اما طلحة والزبير فقد اشار الطبري في اكثر من موضع الى ان ما قيل عن تحريضهما على عثمان لم يعد ان يكون رسائل زورت عليهما ، وقد قاما بكشف ذلك في اكثر من اجتماع (في ذي خشب وذي المروة والاحوص).

وأما الخوف من تضييق الثائرين عليهم واخضاعهم لمشيئتهم ، فانه على اهميته ، لم يكن الدافع الوحيد ، ذلك ان رفض السلطة من قبل عدد من الصحابة سبق وان مورس قبل الفتنة وبعدها .. هذا الى ان البيعة لم تكن مقتصرة على زعماء القبائل ، بل انها كانت معروضة – كما رأينا – من قبل القطاع الاوسع الذي يضم فيمن يضم عددا من المهاجرين والانصار أنفسهم[٣]. وكانت بيعة هؤلاء ستمنح الخليفة الجديد مزيدا من الشرعية التي تجعله يتحرك من مركز القوة ولا ريب.

ونعرف – أخيرا – كيف ان عليا ، قبيل وفاته ، يرفض ان يعهد لاحد من ابنائه بالخلافة ، رغم الالحاح المتزايد عليه ، ويقول : " بل اترككم كما تركككم رسول الله ، فلعل الله يجمعكم بعدي على خيركم ، كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم " وقال ايضاً : " لا آمركم ولا انهاكم انتم ابصر " ..

هذه نماذج فحسب من مواقف كبار الصحابة من السلطة .. فماذا عن كيفية (استخدامهم) للسلطة نفسها ؟ هل ركبوها لتحقيق مطامحهم الخاصة واشباع نزواتهم الذاتية ام كانت وسيلة لتحقيق قدراتهم في خدمة الامة والعقيدة والسير بهما خطوات تاريخية الى الامام؟

---

(١) المصدر السابق ، ٤/٤٣٣-٤٣٤.

(٢) المصدر السابق ، ٤/٤٣٤.

(٣) انظر مثلا : المصدر السابق ، ٤/٤٢٩.

هل كانت مغنما وكسبا واثراء واستعلاء وتفردا وطغيانا ، ام كانت مغرما وخسرانا وجوعا وتواضعا ونصبا وارهاقا ؟

إن الحديث عن تداول السلطة يستلزم تحليل موقف الحكام ازاء جماهير امتهم بعد انتخابهم لانه لا يمكن الفصل بين الجانبين ، اذ ان الثاني هو امتداد للأول ..

ولا اعتقد ان مجالا ضيقا كهذا يتيح التوسع ، بل مجرد الاستعراض السريع ، لمسألة ممارسة السلطة في عصر الراشدين ، ولكن بمجرد استقراء الوقائع التاريخية الغنية والكثيفة يمكن ان نجد الجواب واضحا لا يحتمل مناقشة أو لجاجاً .. وسواء كانت القضية على مستوى الاستغلال المادي ، أو الابتزاز الادبي ، فاننا – في عصر الراشدين – نحظى بتجربة عن التجرد على هذين المستويين يصعب علينا ان نجد لها مثيلا في تاريخ البشرية كله.

إن المحك ليس نظريات تقال ، ولكن ممارسات تنفذ في الواقع المبهظ الثقيل .. وحتى عثمان بن عفان الذي بالغت الروايات في تصوير استغلاله السيء للسلطة ، نجد قبالتها روايات اخرى تمثل تيارا مضادا تماما لموقف الرجل .. فعبد الله بن شداد ، احد شهود العيان ، على سبيل المثال ، يقول : كان عثمان بن عفان يخطب وعليه قميص مرقوع ثمنه اربعة دراهم او خمسة. والحسن البصري ، شاهد عيان اخر يقول : كان عثمان ينام في المسجد، ويقوم وأثار الحصى على جنبه ، فيقول الناس : هذا عثمان ، هذا امير المؤمنين. ويقول : كان عثمان يطعم الناس طعام الامارة ويأكل الخل والزيت.

وعثمان نفسه ، يرد على الاتهامات التي وجهت ضده فيقول امام حشود الناس : " .. وقالوا : اني احب اهل بيتي واعطيهم ، فأما حبي فانه لم يمل معهم على جور ، بل احمل الحقوق عليهم ، واما اعطاؤهم فاني اعطيهم من مالي ، ولا استحل اموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس. ولقد كنت اعطي العطية الكبيرة الرغبية من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر ، وانا يومئذ شحيح حريص ، افحين اتيت على اسنان اهل بيتي ، وفني عمري ، وودعت الذي لي في اهلي ، قالوا ما قالوا ؟ واني –والله – ما حملت على مصر من الامصار فضلا فيجوز لمن قاله ، ولقد رددته عليهم وما قدم علي الا الاخماس ، ولا يحل لي منها شيء ، فولي المسلمون وضعها في اهلها دوني ، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، وما اتبلغ منه ، وما اكل الا من مالي ... وما لي من بعير غير راحلتين ، وما لي ثاغية ولا راغية ، واني قد وليت وانا اكثر العرب بعيرا وشاء ، فما لي اليوم شاة ولا بعير ، غير بعيرين لحجي ، اكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .. "[1].

---

(١) المصدر السابق ، ٤/٣٤٧-٣٤٨.

ألا يدفعنا هذا التيار المضاد من الروايات المتواترة الى ان نتريث قليلا في حكمنا على طرائق تعامل الرجل مع السلطة ؟ الى ان نشك – على الاقل – في معطيات التيار الاول من خلال هذه المفارقة الحادة التي لا ريب أن وراءها اسبابا !! .. التيار الذي صور لنا عثمان كما لو كان رجل اقطاع من طراز اول ، يلبس الحرير الناعم ويتحلى بالذهب وياكل الطيب من الطعام ، ويملك القرى والمزارع والضياع التي يعمل فيها الاف العبيد ؛ وانه كان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة الف دينار ، وانه خلف خيلاً وابلاً كثيرة[١] .. تماما كما قيل عن الزبير بن العوام ، مثلا ، من انه خلف خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف امة[٢] .. ولكننا من خلال هذه الحشود التي قيلت عن الرجل ، نلتقي برواية يقدمها الطبري نفسه ، وتكاد تضيع بين معطيات التيار الاخر ، تقول ان الزبير توفي وهو مدين !!

مهما يكن من امر فان الخط العام للتعامل مع السلطة في عصر الراشدين ، كان يمثل اكثر المواقف نبلا وانسانية في التاريخ ..

وعلى ضوء هذا كله يمكن ان نفهم عبارة ابي بكر الموجهة الى عبد الرحمن بن عوف " فكلكم ورم انفه من ذلك يريد ان يكون الامر له " الا يجوز ان تكون مما يقال في تأنيب رجل أبدى بعض التردد في اختيار عمر خوفا من شدته البالغة ، وابو بكر يعاني من المرض المهلك، ولا يدري في اية لحظة سيحتوشه الموت ؟ والدولة الاسلامية في لحظات صراع مصيري مع خصومها في الشرق والغرب ؟ الا يجوز ان تكون العبارة نفسها قد دست على الرواية بأيدي الرواة والاخباريين التي صاغت تاريخنا المبكر هذا بعد اكثر من قرن على تشكله ، وفي عصر طغت فيه المذهبيات والاهواء ؟ وهي المعطيات التي يحذر الطبري نفسه ، في مقدمة كتابه ، من التسليم المطلق بها ؟

اننا لا نريد ان نحمل الخبر اكثر مما يطيق ، ولا ان نستخدم اسلوب التشكيل السهل ، والنفي الكيفي للروايات .. ولكننا بمضينا خطوات اخرى في البحث الذي بين ايدينا فاننا سنقع على ما يشكل تناقضا اساسيا من العبارة انفة الذكر حيث يقول الكاتب " يظهر من استقراء النصوص التي اوردها الطبري ان عمر بن الخطاب كان ميالا للعهد بمنصب الخلافة الى عبد الرحمن بن عوف ، دون غيره ، ولكن زهد عبد الرحمن في هذا المنصب ، على ما يظهر ، هو الذي جعل عمر يعهد الى الستة بهذا الامر ويوصي بترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف في حالة الانقسام "[٣].

---

(١) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ٢/٢٥٤.

(٢) نفسه.

(٣) انظر: الطبري : تاريخ ، ٥/٣٧٢٤-٣٧٢٥ (طبعة بريل).

وها هنا يمكن للقارئ ان يضع يده على تناقض اخر لا يقل اهمية ، وهي انه اذا كان ابن عوف على راس المعارضين لترشيح عمر للخلافة ، لانه كان يريدها لنفسه !! اما كان يتوجب على عمر ان يستبعده من ذهنه كلية ، كمرشح للخلافة بعده ، بله ان يدرجه في الستة اهل الشورى مرجحا اياه بشكل خاص ، بله ان يسعى – قبل هذا كله – الى اقناعه بتولي المنصب الخطير ؟

ثم ، اذا ما تابعنا منطق الكاتب الذي يقود الى ان احد اسباب اختيار ابي بكر لعمر ان الاخير اعانه على الوصول الى الخلافة ، فانه يتوجب – والحالة هذه – ان يكون ابن عوف اخر من يفكر عمر بترشيحهم لمنصب الخلافة .. هذا اذا سلمنا برواية الكاتب نفسه من ان ابن عوف كان على راس المعارضة وانه كان يريدها لنفسه ..

–٣–

في الحديث عن (مبايعة عثمان) ترد هذه المقولة " .. كان من اسباب تقدم بني امية على بني هاشم تمرسهم بشؤون الحكم والسياسة منذ الجاهلية ، اضافة الى غناهم ونشاطهم في حقل التجارة مما ساعدهم على توثيق صلاتهم بالناس واحتلالهم مواقع مؤثرة في المجتمع. فلا غرابة ان وجدنا اغلبية المرشحين لمنصب الخلافة ينحازون الى عثمان مرشح بني امية للخلافة ، ويتخلون عن علي مرشح بني هاشم " ؛ ثم ما يلبث ان ينقل رواية الطبري عن تشكك علي في ان علاقات المصاهرة ستلعب دورها ضده.

ترى .. أكان انتخاب عثمان ثمرة محتومة للصراع بين الامويين والهاشميين ، ولعلاقات المصاهرة بين اغلبية اهل الشورى ؟

إن عبد الرحمن بن عوف يقف ها هنا ، مرة اخرى ، ضحية للسيل المتناقض من الروايات .. ليس هذا فحسب ، بل يضحى كذلك بالقيم الاسلامية والتقاليد العربية .. وكأن لم يكن لها وزن في عملية الانتخاب هذه.

ومرة اخرى ، لا نريد ان نسعى الى ممارسة خطيئة النفي الكيفي للروايات ، ولكن طرح وجهات النظر المتباينة يعد (عملية) ضرورية في البحث التاريخي ، لئلا نقع في اسر نظرة احادية الجانب للوقائع والاحداث .. مرة اخرى نجد انفسنا ملزمين بان ندور حول هذه الواقعة من زوايا اخرى لكي نقترب – اكثر – من الحقيقة .. ثم ان الاستسلام التقليدي للروايات القديمة يقودنا الى نفس الخطا الذي يقودنا اليه طريق النقد الاعتباطي والنفي الكيفي .. انها ازمة (منهجية) حقا ، وعلينا ان نكون حذرين قدر الامكان باتخاذ موقف اكثر شمولا وتوازنا ، ونظرة

نقدية اكثر دقة .. من اجل الا نتحرك في ابحاثنا على حساب الحقيقة التاريخية نفسها ، ونحن نعتقد اننا نخدمها ونكشف عنها ..

ولنتمعن في هذه الرواية التي يقدمها الطبري نفسه " لما كانت الليلة الثالثة ، قال عبدالرحمن بن عوف : يا مسور. قلت : لبيك ، قال : انك لنائم ، والله ما اكتحلت بغماض منذ ثلاث ، اذهب فادع لي عليا وعثمان. قلت : يا خال ، بأيهما ابدأ ؟ قال : ايّهما شئت. فخرجت فأتيت عليا وكان هواي فيه !! فقلت : اجب خالي ... فدخلنا جميعا على خالي (عبد الرحمن) وهو في القبلة قائم يصلي فانصرف لما رآنا. ثم التفت الى علي وعثمان وقال: اني قد سالت عنكما وعن غيركما فلم اجد الناس يعدلون بكما. هل انت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل ابي بكر وعمر ؟ فقال : اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فالتفت الى عثمان (بالسؤال نفسه) فقال : اللهم نعم. فاشار بيده الى كتفيه وقال : اذا شئتما. فنهضنا حتى دخلنا المسجد ، وصاح صائح : الصلاة جامعة. قال عثمان : فتأخرت والله حياء لما رأيت من اسراعه الى علي فكنت في اخر المسجد. وخرج عبد الرحمن وعليه عمامته التي عمه بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، متقلدا سيفه ، حتى ركب المنبر فوقف وقوفاً طويلا ثم دعا بما لم يسمعه الناس. ثم تكلم فقال : ايها الناس اني قد سالتكم سرا وجهرا عن امامكم فلم اجدكم تعدلون باحد هذين الرجلين ، إما علي وإما عثمان ، (ثم عرض عليهما السوال نفسه فأجاباه بنفس الجواب) فوضع يده بيد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد ، اللهم اني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان. وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عن المنبر "[1].

فعبد الرحمن – اذن – الذي اعطى رفاقه موثقا من الله الا يألوا جهدا في اختيار الرجل الذي ترتضيه الامة ، بذل جهدا متواصلا ثلاث ايام بلياليها لم يذق خلالها طعم النوم ، وراح يسال الناس ، سرا وجهرا ، للاطلاع على وجهات نظرهم فيمن يحبون ان يلي خلافتهم. وتمركزت اراء الناس في اثنين منهم هما عثمان وعلي .. ولم يكن بمقدور عبد الرحمن حتى اللحظات الاخيرة للانتخاب ان يرجح احدهما على الاخر ، حتى ان ابن اخته وهو يساله : بايهما ابدأ فادعوه اليك ، يجيبه : ايهما شئت ، لانه لم يكن في ذهنه اي تفضيل او ترجيح مسبق .. بل اكثر من هذا ، انه اذ يبدأ بعلي فيوجه اليه السوال الحاسم يظن عثمان ان الاختيار وقع عليه فيتاخر حياء لما راى من اسراعه الى علي ، فيقبع في اخر المسجد. وبعد ان يتلقى عبد الرحمن جواب الرجلين يقوم بحركة اخرى تدل على حيرته فيشير بيده الى كتفيه ويقول : اذا شئتما .. ويزدحم الناس في المسجد ، فالامر مكشوف امام جماهير الناس ، وهو ليس مؤامرة

---

(١) المصدر السابق ، ٢٣٨/٤.

سرية تدور في الخفاء او من وراء الظهور .. وحاشا لعبد الرحمن ان ينكث عهده لله ولاخوانه فيتواطا مع التيار الاقوى .. تيار بني امية على حساب بني هاشم .. ان الرجل انتمى الى الدعوة في ايام اضطهادها ومطاردتها وتغربها ، وكان متميزا في قومه ، زعيما بينهم ، وكان بمقدوره يومها ان ينحاز الى التيار الاقوى لتطمين مصالحه والاتكّاء على سند اكثر قوة ومكانة لضمان مستقبله. وكان اخر ما يمكن حدوثه بالنسبة (لرجل المصالح) يومها ، ان يضع يده بيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، الوحيد ،المطارد المضطهد ، المتعرض واصحابه كل يوم للقتل والخوف الاذى .. أفيمكن لعبد الرحمن ، وهو الذي رفض السلطة في اعلى قممها ، ان يتحرك في اخريات ايامه لتحقيق مصالحه ، وضمان مستقبله بالانحياز الى الجانب الاقوى ؟ وان يضرب عرض الحائط العهد الذي اعلنه امام الله وامام رفاقه ، عندما قال : " لكم على ميثاق الله ان لا اخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين " ؟!

ثم .. لو حدث وان وقع هذا كله (فعلا) ، اكان سائر المسلمين سيسكتون على هذا التحيز المكشوف ؟ اكانوا سيزدحمون لمبايعة عثمان حتى " يغشوه عن المنبر " ، ويضطروه الى الجلوس اضطرارا ؟ وهم الجيل الذي عايش خلافة عمر وتعلم كيف يقول لا في اللحظة المناسبة، لان الخليفة السابق علمه ان لا خير فيه ان لم يقلها ولا خير في حكامه ان لم يسمعوها منه ؟ ثم ان عليا (رضي الله عنه) نفسه ، كما يتضح من خلال الروايات التي يعتمدها الباحث نقلا عن الطبري ، يسال عن اي الرجال يفضل لو تجاوزه الاختيار فيقول : عثمان .. ويقول المقداد في حوار مع عبد الرحمن ، " .. اما والله لقد تركته – اي علي – من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال : يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. قال : ان كنت اردت بذلك الله فاثابك الله ثواب المحسنين "[1].

ان معطيات اخباريينا ، واكثرهم معروف بضعفه ، تميل لان تقدم صورة ابعد عن روح العصر لانها لم تتشكل في العصر نفسه ، وانما ابعد عشرات العقود ، في عصر المذهبيات والاهواء والطغيان .. صورة تبدو فيها العملية الانتخابية كما لو كانت تامرا مكشوفا حيناً ، مغطى حينا اخر .. ذهب علي ضحيته ، لا لشيء الا لانه ينتمي الى بني هاشم خصوم بني امية الاقوياء .. وكأن لم يكن هناك بين جماهير الناس وقياداتهم غير بني امية وبني هاشم .. من يكشف – على الاقل – ابعاد اللعبة الموهومة ..

إن الرجل الذي اخذ على عاتقه مهمة الاختيار يعتمد ، وفق اجتهاده بعد ان تعادلت كفتا الميزان ، مقياسا للترجيح المحتوم حيث اشرفت الايام الثلاثة المحدودة على الانتهاء ، وحيث بدت تلوح في الافق القريب تحذيرات ابن الخطاب وتهديداته المتوعدة في الوقت نفسه

---

(١) المصدر السابق ، ٢٣٣/٤.

وحيث الدولة الاسلامية الناشئة تتعرض للتو لاخطر المؤامرات التي يدبرها لها خصومها في بيزنطة وفارس ، فيسال المرشحين عن مدى التزامهما بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من بعده .. فيعلن اولهما انه سيلتزم كتاب الله وسنة رسوله ، ويجتهد بعدهما رأيه ، وهو مصيب (كرم الله وجهه) ، ويعلن ثانيهما انه سيلتزم سيرة الشيخين كذلك .. وهو مصيب – ايضا – (رضي الله عنه) .. وجماهير المسلمين لم تنس بعد ماذا حققته لها سيرة الشيخين للتحديات الحضارية التي فرضت نفسها فرضا .. وان عبد الرحمن يجد – وفق هذا المنظور – ان الكفة قد رجحت لعثمان وان المحنة الصعبة قد بدات تنفرج ، فيقرر اختيار عثمان ، رغم ان عليا في موقفه ذاك لم يكن يقل اخلاصا لتراث الاسلام الذي صنعه الشيخان ، ان لم يفق عثمان في ذلك، لانه كان من ابرز صناعه .. ولكنها ضرورات الاجتهاد .. والمسألة – بعد – ليست موازنة او تفضيلا بين الرجلين رضي الله عنهما.

" وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان – وكان غائبا – فقيل له : بايع عثمان ، فقال : اكل قريش راض به ؟ قال : نعم. فاتى عثمان فقال له عثمان : انت على راس امرك، ان أبيت رددتها !! قال اتردها ؟ قال : نعم. قال : اكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم. قال : قد رضيت، لا ارغب عما قد اجمعوا عليه !! وبايعه "[1]. وفي هذه الرواية ذات الدلالة ، والتي يوردها الباحث نقلا عن الطبري ، تاكيد اخر على الروح الشورية والاجماع اللذين سادا عملية الانتخاب بعيدا عن اجواء التآمر والتحيز وضرورات القربى والمصاهرات !!

وقضية القربى والمصاهرة هذه مسالة عجيبة حقا .. اتكا عليها من اتكا من مؤرخينا المعاصرين ، وأتكا عليها رواة الطبري نفسهم وهم يفسرون اسباب قفزة عثمان الى السلطة !! وتحول تجربة الشورى الى " صهري وحماي "[2].

لو كان لصلات القربى والمصاهرة ثقل كبير في مسالة الانتخاب ، اما كان يجدر بعمر ان يعهد بالخلافة لحميه علي ومن من المسلمين سيعترض وقد عرفوا اخلاص الرجلين وتفانيهما في خدمة العقيدة الجديدة : الصهر والحمي ؟! لقد كانت ام كلثوم ابنة علي زوجا لعمر وولدت له زيدا ورقية ، وبعد مقتل عمر تزوجها – كما هو معروف – ابن عمها محمد بن جعفر .. وعلى ذكر صلات القربى هذه فان كتب الانساب والطبقات كانساب الاشراف للبلاذري والطبقات الكبرى لابن سعد ، تتضمن الكثير من نماذج الالتحام بين الصحابة وابنائهم ، بغض النظر عن البطون التي ينتمي اليها المتصاهرون ، ودون ان يكون لذلك تاثير يذكر في مجرى الاحداث العامة .. ليس هذا فحسب ، بل اننا نجد الصحابة وابناءهم يتيمنون بتسمية ابنائهم باسماء

---

(١) المصدر السابق ، ٣٧٨٧/٥ (طبعة بريل).

(٢) انظر رواية الطبري التي يعتمدها الباحث في هذا الصدد ٣٧٨٠/٥ (طبعة بريل).

رفاقهم في العقيدة ، اولئك الذين قال عنهم الاخباريون انهم كانوا يتامرون بعضهم ضد بعض ويأكل بعضهم بعضا !!

عبد الله بن جعفر بن ابي طالب سمى احد بنيه باسم ابي بكر ، وعمر بن علي بن ابي طالب كان من نسله عيسى ابن عبد الله الذي اشتهر باسم المبارك العلوي وكان يكنى ابا بكر ، والحسن بن علي بن ابي طالب سمى احد بنيه باسم ابي بكر والاخر عمر والثالث طلحة ، وزين العابدين علي بن الحسين سمى احد بنيه باسم عمر ، ولعمر هذا ذرية كثيرة منهم العلماء والشعراء. ولما توفيت فاطمة (رضي الله عنها) تزوج علي بعدها امامة بنت ابي العاص بن عبد شمس .. وعلي نفسه سمى ابناءه الثلاثة بعد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، باسماء رفاقه السابقين : ابي بكر وعمر وعثمان ... الخ ..[1] ، فاين هذا مما قيل عن صراع لا يرحم بين البطون والافخاذ ، امتدت ناره كي تلتهم قدسية الخلافة وشرف الانتخاب ؟!

إن الخلفاء الاربع انتخبوا دون ان يسعى احدهم – كما رأينا – لاستغلال السلطة من اجل مدها الى اقربائه واصهاره .. انه خط متميز يغطي جل عصر الراشدين ، ولا يمكن للصحابة الكبار الذين توفي الرسول وهو عنهم راض ان يبيعوا رضى الرسول ويتنازلوا عن ماضيهم الحافل بالمتاعب من اجل هوى صهر او قريب .. وان عبد الرحمن بن عوف ، بعد ان يتنازل عن حقه في الخلافة ياخذ على نفسه ميثاق الله الا يخص ذا رحم لرحمه ولا يالوا المسلمين .. وكان عمر من قبل – كما اشار الباحث – قد تمنى ان تكون الخلافة لعبد الرحمن نفسه لولا ان الاخير كان زاهدا فيها .. وما كان لفراسة عمر ان تخيب في صدق الرجال !!

والتقاليد العربية الاصيلة ، التي اشار اليها الباحث في اكثر من موضع ، يجوز ان تكون قد لعبت دورها هنا في تهافت الناس على انتخاب عثمان الاكثر تقدما في العمر ، والذي لم تكن تعوزه التجارب ، بعيدا عن مؤشرات القربى .. فليس الناس كلهم – كما قلنا – بني امية او بني العاص ..

وثمة اشارة صغيرة نلتقي بها في الرواية التي اوردناها قبل قليل ، لكنها تحمل دلالتها ولا ريب في هذا المجال .. ان عبد الرحمن بن عوف يطلب من ابن اخته المسور بن مخرمة ان يدعو له عليا وعثمان ، فيساله : يا خال ، بأيهما ابدا ؟ فيجيبه : أيهما شئت. يقول المسور: فخرجت فاتيت عليا ، وكان هواي فيه !!

وكان احرى به ، وفق منطق اولئك الاخباريين ، ان يكون هواه في عثمان لان خاله صهره ، ولا نه يقوم بمهة تمس عملية الانتخاب من قريب !!

---

(١) انظر بالتفصيل : محب الدين الخطيب : حملة رسالة الاسلام الاولون ، صفحة ٩–١٠.

– ٤ –

تحت موضوع (مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة) نقرا هذه الرواية ، نقلا عن البلاذري[١] " لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة اميرا ، فمكث ستة سنين لا ينقم الناس عليه شيئا ، وانه لاحب إلى قريش من عمر ، لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم. ثم توانى في امرهم واستعمل اقاربه واهل بيته في الست الاواخر واهملهم ، وكتب لمروان بن الحكم بخمس افريقية واعطى لأقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي امر الله بها. واتخذ الاموال وإستسلف من بيت المال مالا .. ".

ويفهم القارئ بالمقابل ان معظم العمال الذين عينهم عثمان كانوا من اقاربه الامويين .. فلنرجع اذن الى القائمة الادارية التي يقدمها الطبري عن عمال عثمان في (سنة ٣٥هـ) ، اي في السنة التي قتل فيها ، وهي سنة تحمل دلالتها لانها تشير الى رغبة عثمان في التغيير الاداري وكسر الاحتكار الاموي او الاصرار عليه .. والجواب يكمن في القائمة نفسها ..

" على مكة عبد الله بن الحضرمي ، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي وعلى صنعاء يعلى بن منبه وعلى الجند عبد الله بن ربيعة وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ، خرج منها فلم يول عليها عثمان احدا ، وعلى الكوفة سعيد بن العاص ، اخرج منها فلم يترك يدخلها ، وعلى مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وقدم على عثمان وغلب محمد بن ابي حذيفة عليها ، وكان عبد الله بن سعد استخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري فاخرجه محمد بن ابي حذيفة ، وعلى الشام معاوية بن ابي سفيان وعامل معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة ، وعلى الاردن ابو الاعور بن سفيان ، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني ، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري ، وعلى القضاء ابو الدرداء ، وعلى صلاة الكوفة ابو موسى (الاشعري) وعلى خراج السواد جابر بن فلان المزني وسماك الانصاري ، وعلى حرب الكوفة القعقاع بن عمرو ، وعلى قرقيسياء جرير بن عبد الله ، وعلى اذربيجان الاشعث بن قيس وعلى حلوان عتيبة بن النهاس وعلى حماه مالك بن حبيب وعلى همذان النسير وعلى الري سعيد بن قيس وعلى اصبهان السائب بن الاقرع وعلى ماسبذان حبيش وعلى بيت المال عقبة بن عمرو ، وكان على قضاء عثمان يومئذ زيد بن ثابت "[٢].

واقطاعات عثمان ، كما أنها شملت بني امية وكبار زعماء قريش من الصحابة بما فيهم علي ، فانها امتدت – كما يحدثنا ابو يوسف والطبري وغيرهما – لكي تشمل رجالا اخرين

---

(١) انساب الاشراف ، ٢٥/٥ (طبعة القدس).

(٢) الطبري ، ٣٠٥٧/٦–٣٠٥٨ (طبعة بريل).

كخباب بن الارت وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وسعد بن مالك وابن هيمار وسويد بن غفلة وغيرهم[١].

وما يقال عن هذا يمكن ان يقال عن قضية خمس الاموال التي منحها عثمان لمروان بن الحكم في اعقاب غزوه افريقيه .. ان عثمان نفسه يجيبنا على ذلك في لقاء له مع جمهور من مسلمي المدينة يدافع فيه عن سياسته ويرد على التهم التي وجهت ضده .. يقول " .. وقالوا اني اعطيت ابن ابي سرح ما افاء الله عليه ، واني انما نفلته خمس ما افاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة الف ، وقد انفذ مثل ذلك ابو بكر وعمر (رضي الله عنه) ، فزعم الجند انهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذاك لهم ، اكذاك ؟ قالوا : نعم "[٢].

عثمان – اذن – استجاب للمعارضة ورد المبلغ وحسم الموقف ، فليس لنا ان نعيده الى ما كان عليه قبل الحسم !!

ثم نقرأ العبارة التالية " نلاحظ حين توجه الثائرون على عثمان من المصريين والذين كان عددهم في حدود الـ ٥٠٠ شخصا مع من يؤازرهم من اهل الكوفة والبصرة الى المدينة، لم يلقوا مقاومة تذكر ، حتى تم لهم قتل عثمان والسيطرة على المدينة. وربما كان من الغريب ان نشير الى ان الدولة التي قضت على الامبراطورية الساسانية ودمرت الامبراطورية البيزنطية ، لم يكن لرئيسها حرس خاص يتولى حمايته والدفاع عنه وقت الملمات .. ".

ومسألة ذهاب عثمان بن عفان لمصرعه دون ان تكون هناك قوة تقف الى جانبه او حرس يدافع عنه ضد الثائرين ، من الاخطاء العديدة التي شاعت على السنة المؤرخين المعاصرين ، وهي توحي – في الوقت نفسه – ان اهل المدينة نفسها وطلائعها من المهاجرين والانصار قد انضموا بصمت الى صفوف الثوار ، او انهم على احسن الاحوال وقفوا ساكتين يشاهدون مأساة خليفتهم وهو يلاقي الموت.

إلا ان الواقع شيء غير هذا تماماً .. لقد وقف زعماء المدينة وطلائعها من المهاجرين والانصار وابناؤهم الى جانب الخليفة طيلة ايام محنته ، وارادوا مرارا ان يشهروا السلاح بوجه المحاصرين ويخرجونهم من المدينة اخراجا. وثمة عروض اخرى للدفاع جاءته من الاقاليم ولكنه (رضي الله عنه) رفضها جميعا ، ذلك انه ما كان مستعدا ان تسفك قطرة من دماء المسلمين. ان القطرة التي سيامر باراقتها تحمل دلالاتها السلبية على المستويين الانساني والتاريخي والتي حذر الخليفة منها اكثر من مرة .. على المستوى الاول لا يريد الخليفة ان يكون قاتلا ، فقد تكون

---

(١) فتحي عثمان : أضواء على تجربة ، صفحة ٢٠٦.

(٢) الطبري ، تاريخ ٣٤٧/٤–٣٤٨.

وجهة نظر قادة الثائرين او قواعدهم مصيبة !! وعلى المستوى الثاني لا يريد ان يكون اول من خالف عن امر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسفك دماء امته.

فلماذا لم يتنازل الخليفة – اذن – عن منصبه ويتجاوز وضع نفسه في هذه المعادلة الصعبة ؟

لقد طرح عليه هذا الموقف اكثر من مرة وكان جوابه دائما انه ليس مستعدا ان يعطي الاشارة الاولى لكل من يريد ان يطيح بالخليفة المنتخب لهوى يهواه او وجهة نظر يرتئيها في مجتمع لا تزال تيارات القبلية ومناوأة السلطة المركزية تعمل عملها فيه ، ولا تزال القوى المضادة في الخارج تتحفز للانقضاض عليه .. وهو من ثم في امس الحاجة الى استقرار السلطة وديمومتها لا الى قلقها وتغيرها .. ولعل هذا هو الذي يفسر لنا لماذا كان الخلفاء الراشدون ينتخبون مدى الحياة ، رغم انه لا توجد في كتاب الله وسنة رسوله اية اشارة الى المدى الزمني الذي يتوجب على الخليفة ان يمارس السلطة في اطاره.

وما دام عثمان قد اعلن عن استعداده للحوار ، كما يروي لنا الطبري وغير الطبري في اكثر من موضع ، ما دام قد قالها لجماهير الثائرين بصراحة " ان رايتم في كتاب الله ان تضعوا رجلي في قيود فضعوهما ". وما دام قد اجرى (فعلا) الكثير من التغييرات التي ارادها الثائرون وكان قد هيأ نفسه لتنفيذ المزيد منها (كما يبدو على سبيل المثال من القائمة الادارية التي عرضنا لها آنفا) فليس ثم داع للعنف من قبل اي من الطرفين المتخاصمين : الحاكم والمحكوم .. ان صراع الآراء هو الذي يجب ان يحتل الساحة لا صراع الخناجر والسكاكين.

وما دام الخليفة قد وضع نفسه – اذن – ازاء هذه المعادلة الصعبة : لن اتنازل عن الخلافة ولن اسفك قطرة دم .. فان النتيجة ستكون معروفة سلفا ، وقاطعة كالسكين : ان الرجل سيقتل ، ما في ذلك شك !!

ولنرجع الى مسألة الدفاع عن عثمان .. لقد ثبت – كما يقول ابن العربي – ان عبدالله بن الزبير قال لعثمان : " انّا معك في الدار عصابة مستبصرة ينصر الله باقل منهم ، فائذن لنا. فقال : اذكّر الله رجلا اراق لي دمه "[1].

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : كنت مع عثمان في الدار فقال : اعزم على كل من راى ان لي عليه سمعا وطاعة الا كف يده وسلاحه فان افضلكم غناء من كف يده وسلاحه. ثم قال : قم يا ابن عمر – وعلى ابن عمر سيفه متقلدا – فاخبر به الناس ، فخرج ابن عمر والحسن ابن علي .. "[2].

---

(١) العواصم من القواصم ، صفحة ١٤٠.

(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٣٢-١٣٣ ، ١٤١.

وثبت ان الحسن والحسين والزبير وابن عمر .. دخلوا دار عثمان وهم شاكي السلاح فقال عثمان : اعزم عليكم لما رجعتم فوضعتم اسلحتكم ولزمتم بيوتكم[١].

وقبل ان تبلغ الامور مبلغها عرض عليه معاوية ان يرسل اليه قوة من جند الشام تكون رهن اشارته فابى ان يضيق على اهل دار الهجرة بجند يساكنهم[٢]. وذكر بن كثير ان عثمان قال للذين عنده في الدار من المهاجرين والانصار ، وكانوا قريبا من سبعمائة ، ولو تركهم لمنعوه: " اقسم على من لي عليه حق ان يكف يده وان ينطلق الى منزله "[٣] وقال لرقيقه : " من اغمد سيفه فهو حر فبرد القتال من داخل وحمي من خارج "[٤]. وجاء زيد بن ثابت الانصاري فقال له : " هؤلاء الانصار بالباب يقولون : ان شئت كنا انصارا لله مرتين. قال عثمان : لا حاجة لي في ذلك ، كفوا "[٥]. ويروي البلاذري كيف ان بني عمرو بن عوف – اول كتل الانصار اسلاما واشدهم قوة – عرضوا على الخليفة المساعدة وانه وافق – اخيرا – على معاونتهم ولكن دونما دفعهم لقتال[٦] .. وقال سليط بن سليط الانصاري " نهانا عثمان عن قتالهم، فلو اذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم عن اقطارها (اي المدينة) .. "[٧].

ولو أراد عثمان ، يقول ابن العربي ، " لكان مستنصرا بالصحابة ولنصروه في لحظة، وانما جاء القوم مستجيرين متظلمين فوعظهم فاستشاطوا فاراد الصحابة الهم (اي دفعهم بالسلاح) فاوعز اليهم عثمان الا يقاتل احدا بسببه ابدا ، فاستسلم فاسلموه برضاه " ، ويتساءل ابن العربي " هي مسألة من الفقه كبيرة : هل يجوز للرجل أن يستسلم ، أم يجب عليه ان يدافع عن نفسه ؟ واذا استسلم وحرم على احد ان يدافع عنه ، بالقتل ، هل يجوز لغيره ان يدافع عنه ولا يلتفت الى رضاه ؟ " ويجيب على السؤال بكلمات " اختلف العلماء فيها "[٨] ... ذلك ان الرجل يكتب تاريخا تاريخا ولا يدون فقها !!

***

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٣٤ ، ١٤١.

(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٣٢ ، هامش ١.

(٣) البداية والنهاية ، ٧ / ١٨١.

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم ، صفحة ١٤١ ، هامش ٢.

(٥) المصدر السابق ، صفحة ١٣٤.

(٦) انساب الاشراف ، ٥ / ٧٣.

(٧) ابن العربي : العواصم من القواصم ، صفحة ١٤٠.

(٨) المصدر السابق ، صفحة ٦٠.

ومرة اخرى فان معاينة الحدث التاريخي من زوايا نظر متعددة ، وعرض التيارات المتضادة من الروايات في تحليل الواقعة التاريخية ، لا يلغي تركيبها ويمسه باشارة سحرية فيغيّر مكوناته ومساحاته ، وانما يحدث – اذا صح التعبير – تخفيفا في اللون ، او يمنح القارئ درجات (تونات) لونية اكثر موضوعية وشبها بالوقائع نفسها.

موقف ازاء التراث

– ١ –

في تاريخنا المعاصر ، ومن خلال اصطراع المذاهب والافكار والمعتقدات ، برز (التراث) كمصطلح يدور حوله الصراع. وتتخذ ازاءه المواقف سلبا وايجابا ... وما هذه الصفحات سوى محاولة لالقاء مزيد من الاضواء على الموضوع.

التراث هو جذور الامة ، ومكونات شخصيتها ، ومسارها الحيوي عبر الزمان والمكان .. وهو القاعدة والمنطلق وحجر الزاوية .. وهو قدر الامة ونسيج وجودها الذي لايمكن لانسان ان ينكره الا على مستوى الجدل النظري الذي لا رصيد له في عالم التجربة الحية والواقع المعاش.

إن اي انسان لا يستطيع ان يتنكر لماضيه ، بيئة ووراثة ، ولمكوناته الاولى على هذين المستويين .. ان هذا يعني ان يعود الانسان (الفرد) الى نقطة (الصفر) ، ويبدا من جديد متجاوزا وجوده المادي والروحي والفكري على السواء ، رافضا تركيب عينيه وشكل جمجمته ونشاط اعضائه الوظيفي وتشابك انسجته وافراز غدده وبصمات اصابعه .. متجاهلا ماضيه وذكرياته وايحاءات الزمن وتاثيراته العميقة في وجوده .. منكرا اباه وامه واخوانه ، والمحلة التي نشا فيها والبلد الذي درج في احضانه والامة التي عايشها طفلا وصبيا وشابا وكهلا .. وهذا لا يمكن الا في حالتين شاذتين – في بداهات علم النفس – انفصام الشخصية او الجنون !!

إن الانسان المتعب المريض ، اذا ما اراد ان يتنعم بالصحة والعافية ، احال نفسه الى طبيب او مجموعة اطباء ، وكشف لهم عن كل مميزاته سلبا وايجابا .. وبدون هذا الارتداد الى الماضي لتفحص مكوناته الاساسية والعوامل التي اثرت فيها وصاغتها ، لن يتمكن طبيب من اداء مهمته والوصول بالشخص الى حالة التوازن والنشاط .. وهذا شان الامم ، وليس تراثها سوى مجموعة تجاربها ومعطياتها ومكونات حياتها الشاملة وعوامل التاثير والصياغة في هذه الحياة.

ومن ثم يغدو الالتزام العلمي الواعي بهذا التراث ، وتفحصه ودراسته خطوة اساسية لفهم حاضرنا وتحديد الخرائط الدقيقة لمستقبلنا في عالم يسوده صراع (حضاري) شامل خابت فيه امة قطعت صلاتها ووشائجها بماضيها وتراثها ، وطفت على السطح كالزبد الذي يذهب جفاء .. اذ لا يبقى – عبر متطلبات الصراع الحضاري – الا ما يمكث في الارض.

ان شخصية كل امة تجيء وليدة حشد كبير متداخل متشعب من النشاطات والفاعليات والمعطيات والافكار والممارسات .. وهي خلال مسيرتها عبر الزمان ، تحمل معها ، اكثر فاكثر، كل ما يتمخض عن علائقها المستمرة في العالم الذي تنشط فيه ، ومن ثم تجيء ملامحها وسماتها وطبيعتها (النفسية) – اذا صح التعبير – نتيجة ولا ريب للبصمات التي يتركها التفاعل المحتوم بين مجموع الناس وبين عناصر الزمان والمكان .. وهي بصمات عميقة موغلة

في التكوين النفسي والاخلاقي والفكري والاجتماعي للامة .. بحيث ان اي تجاوز او اغفال او محاولة للقطع والبتر لا تؤدي الا الى تشويه شخصية الامة ، ان لم نقل قتلها وتمزيقها ..

إن عاداتنا وتقاليدنا واعرافنا وسلوكنا اليومي ، في اصغر جزئياته واكبرها على السواء ، ما هي في نهاية الامر الا حصيلة تراث شامل وبعيد في مجرى الزمن ، يضم في حناياه كل العوامل والمؤثرات التي صنعت وصاغت هذه العادات والتقاليد والاعراف .. وليس لاشد الناس (رفضا) للانتماء لهذا التراث الا ان يخضع – في حياته العملية وسلوكه الواقعي على الاقل – لمنطق هذا التراث ومسيرته الزمنية ، ولأحكامه التي لا ترد .. وهل لانسان – ما – ان يتملص من ملامح ابويه اللذين وهباه الحياة – بارادة الله – ومن تاثيرات (البيئة) التي غذته ونمته وفجرت فيه الدم ونسجت خلاياه واحدة واحدة ؟!.

– ٢ –

هذا – بايجاز تام – ما يخص المستوى العام لمسالة (التراث) .. فاذا ما انتقلنا الى تراثنا نحن و(مواقفنا) المعاصرة ازاء هذا التراث ، فاننا سنلحظ – أول ما نلحظ – هذا الالتحام الوثيق في تراثنا بين قيم الاسلام والعروبة ، التحاما ابديا اقامت جسوره تجربتنا التاريخية ، وشدت اواصره ممارساتنا الحضارية ابتداء من عنصري الجغرافية والبيئة وانتهاء بالنظرة الشاملة للكون والحياة والانسان ، مرورا باللغة والاخلاق والاذواق والعلاقات الدائمة بالعالم : سياسية واجتماعية .. والله اعلم حيث يجعل رسالته.

ونحن اذا ما تفحصنا كتاب الله ، فسوف نلتقي بحشد من الايات هذا بعضها : **﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾**[١] ، **﴿ ... وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾**[٢] ، **﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾**[٣] ، **﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ... ﴾**[٤]، **﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ... ﴾**[٥] ، **﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾**[٦] ، **﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾**[٧] ،

---

(١) الشعراء ، الآيات ١٩٣–١٩٥.

(٢) النحل ، ١٠٣.

(٣) يوسف ، ٢.

(٤) الرعد ، ٣٧.

(٥) طه ، ١١٣.

(٦) الزمر ، ٢٨.

(٧) فصلت ، ٣.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً ... ﴾[1] ، **﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾**[2] ، **﴿... وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ...﴾**[3] ...

ومن ثم تبدو أية محاولة ترى في (التراث) مجموع ممارسات (علمانية) لا علاقة لها بالاسلام ، او حشدا من الخبرات والتجارب الاسلامية لا علاقة لها بالعروبة ، وتسعى للفصل بين الاثنين واقامة الحواجز في دروبهما ، انما هي محاولة انفصالية غير علمية ، جزئية غير كلية ، موقوتة غير دائمة ، طارئة غير اصيلة .. ولن تكون نتيجتها سوى الفشل المحتوم أمام المواقف المتعقّلة التي تنطلق في تعاملها مع تراثنا من مواقع العلم والشمول والديمومة والاصالة ..

ثم ان محاولة خاطئة كهذه تبدو مستحيلة لانها تطلب الحياة والبقاء في تجربة متكاملة بعد ان تعمل فيها بمشرطها تمزيقا وتجريحا واستبعادا لبعض المكونات الاساسية في التجربة من اجل استبقاء عناصر اخرى تراها – وفق نظرتها الموقوتة – ملائمة ومقبولة .. ان هذا لا يمكن ان يكون انتقاء اواعادة صياغة ، ولكنه قتل وانتحار !!

وثمة من يتجاوز هذا الموقف (النصفي) لكي يقف متطرفا في اقصى نقطة ، داعيا الى الغاء التراث الغاء ، والبدء من نقطة الصفر ، لا لشيء الا لان مكونات هذا التراث وعناصره الاساسية (تاريخية وحضارية) تصطدم اصطداما مريعا مع (النظرية المادية) التي يتشبث بها هؤلاء في دعوتهم لالغاء التراث .. وهي نظرية جاء تصميمها النهائي في ظروف اخرى غير ظروفنا ، وفي مناخ غير مناخنا ، وفي بيئة غير بيئتنا ، ومن ثم فان محاولة تنفيذها في ظروفنا ومناخنا وبيئتنا سوف يعرضها لاكثر من هزة ، وسوف يصيب اطروحاتها ومعطياتها بكسور ليس الى جبرها من سبيل.

وخلال هذا الصراع بين النظرية والواقع الذي يتاتى عن تحديداتها الخارجية ، واقيستها الصارمة ، خلال ذلك يقف (التراث) حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات ، بمواجهة هذا القسر ، ويقدم اطروحات عميقة الجذور في تربتنا ، شديدة التلاؤم مع مناخنا ، كثيرة الارتباط ببيئتنا ، الامر الذي يزعزع مواقف هؤلاء ويدفعهم اكثر فاكثر الى الرفض الكلي والبدء من نقطة الصفر. وهي بداية – كما سبق وان بينا – غير علمية ولا مامونة العواقب ولا تعدو ان تكون – هي الاخرى – قتلا وانتحارا حضاريا .. ولكنه الانتحار الذي ان جاء في المحاولة السالفة

---

(١) الشورى ، آية ٧.

(٢) الزخرف ، آية ٣.

(٣) الاحقاف ، آية ١٢.

تحت ستار من الانتقاء والاستبعاد ، فانه يجيء – وفق هذا الموقف – فاضحا مكشوفا ليس الى نكرانه من سبيل.

–٣–

ولقد أكدت تجاربنا التاريخية المعاصرة ان الاستعمار ، بشتى اشكاله القديمة والجديدة، والصهيونية ، بمختلف نشاطاتها المحلية والعالمية ، يسعيان الى تشكيك امتنا ، وبخاصة شبيبتها الناشئة ، بتراثها ، ويدعوانها باكثر من اسلوب ، مباشر او غير مباشر ، الى ان تتخلى عنه ، وان تبدا مسيرتها من جديد من مواقع مرسومة لها ، ليس في امدائها اي ظل من تجربة ماضية ، او ممارسة تاريخية ، او تراث اصيل ... والنتيجة معروفة بطبيعة الحال ، والا لما الحت مؤسسات الاستعمار والصهيونية هذا الالحاح الدائم على دفعنا الى التخلي عن تراثنا .. النتيجة هي ان نقطع الجذور التي تشدنا الى اعماق ارضنا وتاريخنا وحضارتنا وشخصيتنا ، من اجل ان نغدو – وقد قطعنا هذه الجذور – اخف وزنا في ميدان الصراع الحضاري .. ومن ثم تجيء الارادات الاثقل وزنا فتكنسنا كما تشاء ، وترسم خرائطنا كما تريد وتسوقنا الى المصائر التي تريدها هي ولا نريدها نحن ، والتي لم نكن لنتخيل يوما اننا سنذهب اليها كي ننتحر عند اعتابها !!

وفي مقابل ذلك تسعى اسرائيل بمؤسساتها وسلوكياتها الفردية والجماعية ، الى تعزيز علائقها الفكرية والمذهبية والاخلاقية بتاريخها وتراثها ، من اجل ان تكون لها بماثبة القاعدة التي تنطلق منها في صراعها الدائم معنا ، فكرة وحضارة وارضا ووجودا.

يحدثنا (توينبي) في بحثه الضخم (دراسة في التاريخ) كيف ان الحضارات البشرية تنشا وتتطور في اعقاب استجابتها لسلسلة من التحديات البيئية او البشرية (المناسبة) وتغلبها عليها ، وكيف انها ، وهي تجابه هذه التحديات ، تشحذ كل طاقاتها الحضارية ومكوناتها التاريخية ، وعناصر القوة في تراثها ، من اجل ان تصوغ الابداع الخاص لمجابهة التحدي الجديد .. ومن ثم فان اي انفصال يحدث بين واقع حضارة ما وبين جذورها التاريخية ووحدتها العضوية ، سيؤول بها حتما الى الضعف والسكون والعجز عن استجاشة طاقاتها الخلاقة لمجابة التحديات المتزايدة وهكذا تجد نفسها – وقد اصابها الشلل – تنساق نحو التدهور والسقوط.

ويستعرض توينبي في بحثه ذاك عددا من الحضارات التي سقطت وعفا عليها الزمان، وكيف انه لم يتبق في عصرنا الراهن هذا سوى سبع حضارات فحسب ، ستة منها تعاني النزع الاخير ، بما فيها الاسلامية ، وتدور – سرعة وابطاء – في فلك الحضارة الكبرى (الغربية) التي تهدد سائر الحضارات الاخرى بالابتلاع.

ولن يكون امامنا – اذن – وفق هذا التحليل الحضاري الذي يطرحه توينبي ، الا ان نشحذ كل طاقاتنا الفكرية والعقيدية والتاريخية ، ونستجيش كل عناصر القوة والثقل في تراثنا العريق ، من اجل تعزيز مواقفنا في الصراع الراهن وحماية قيمنا الحضارية الاصيلة من التفتت والذوبان .. فاذا ما خرجنا منتصرين في معركتنا الدفاعية هذه كان لنا ان نخطو الخطوة الاخرى في مواجهة العالم الراهن ، وهي خطوة تقوم على الهجوم والتقدم وتعتمد هي الاخرى على نقاط ثقل وارتكاز يمكن للتراث ان يمدنا بالكثير الكثير منها ..

– ٤ –

ولكن .. هل التشبث بالتراث للاستهداء بمعطياته وحمايته من التمزيق او (الرفض) يقودنا الى الجمود ويقعدنا عن التقدم والحركة ، في (عصر) نحن بامس الحاجة فيه الى ان نوسع مدى خطواتنا ، ونسارع في السير لكي نلحق اولئك الذين سبقونا ؟ والجواب العادل هو : نعم ولا !!

نعم .. اذا ما اتحنا لهذا التشبث ان ينقلب الى نوع من (الاندماج) في الماضي والذوبان فيه .. الى (هروب) من الحاضر المليء بالتحديات ، للارتماء بكسل في امجاد الماضي واضوائه الرومانتيكية الهادئة .. الى رفض الانتماء الى (العصر) والعودة الراجعة الى الوراء لكي يحتوينا بسلبياته وايجابياته على السواء .. الى موقف غير علمي ، لا ينقد ولا ينتقي ولا يرفض ، بل يستسلم كلية لنداءات الماضي ويغيب عن العيان .. ان التشبث بالتراث ، اذا ما جاوز حده المنطقي الهادئ ، تحول الى سلاح خطير نشهره ضد انفسنا في حلبة الصراع الرهيب ضد اعدائنا ومهاجمينا.

ولقد انتبه اعداؤنا انفسهم الى هذا الجانب المدمر في الموقف من التراث فارادوا ان يستخدموه على مستوى الفكر لكي يغيبونا عن الحاضر ، فتخلو لهم الساحات. " وهكذا اصبح الفكر الاسلامي – يقول مالك بن نبي – على اثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته ، وما تسبب عنها من مركب نقص ، ينحاز الى معسكرين : احدهما يدعو لتمثل الفنون والعلوم والاشياء الغربية – حتى اللباس – والاخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس " ويمضي مالك الى القول بان التيار الثاني " وجد منحدره الطبيعي في ادب الفخر والتمجيد الذي نشأ منذ القرن التاسع عشر على اثر ما نشره علماء مستشرقين امثال (دوزي) عن الحضارة الاسلامية. ولا يمكننا – على اية حال – ان نجعل بين التيارين فاصلا قاطعا ، لان الثاني منهما لا يكون مدرسة مستقلة عن الاول ، بل يخامر الفكر الاسلامي على العموم ، ويتخلل إتجاهه العام كفكر يبحث عن حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التي اصابته من الثقافة الغربية المنتصرة ، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدّر التي يستطيع بها مؤقتا اشباع حاجته

المرضية. وهذا لا يجعلنا ننفي لهذا التيار ، ولنوع الادب الذي نتج عنه ، كل اثر حسن في مصير المجتمع الاسلامي لانه كان له نصيب لا يزهد فيه في الحفاظ على شخصيته !! ".

ثم يضرب الكاتب الجزائري مثلا على ذلك فيقول " اننا عندما نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده ، انما ناتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها ، اننا قطعا لا نشفيها. فكذلك لا نشفي امراض مجتمع بذكر امجاد ماضيه. ولا شك ان اولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للاجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة الف ليلة وليلة ، وتركوا بذلك ، اثر كل سحر ، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق اجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف ، ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتنفتح ابصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه النوم ، فالادب الذي ينشد (عصور الانوار) للحضارة الاسلامية يؤدي اولا هذين الدورين : انه اتاح في مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدي الثقافي وحافظ هكذا ، مع عوامل اخرى ، على الشخصية الاسلامية ، ولكنه من ناحية اخرى ، صب في هذه الشخصية الاعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفاعلية والميكانيك "[1].

ولكن ومن أجل ألاّ يحتوينا هذا الموقف الخاطئ ازاء التعامل مع التراث ، علينا ان نتحول الى موقع اكثر علمية وايجابية وانفتاحا ، موقع نتحمل فيه مسؤولية الرؤية الشاملة لمواضع الخطا والصواب ، والنقد البصير للحدود الدقيقة الفاصلة بين الاسود والابيض ، والانتقاء الواعي لكل ما من شانه ان يشعل الاضواء في طريقنا صوب المستقبل ، ويقدح شرارة الايمان والثقة في نفوسنا من اجل ان نتحول من حالة (السكون) التي نعانيها الى حالة (حركية) لا تدع الزمن والتراب وسائر المكونات الحضارية تفلت من بين ايدينا.

– ٥ –

وليس (التراث) ، كما قد يتصور البعض ، مسالة (متحفية) ، او مجالا للبحث الاكاديمي فحسب ، يتمّ التعامل معها وفق نفس الطرائق التي ينقب فيها عن قبر من قبور الاراميين ، او جدث من اجداث الفراعنة ، او ريازة قبة من قباب العصر المملوكي !!

كما انه – من جهة اخرى – ليس متعة تزجى للناس في اوقات فراغهم باحياء تراثهم الشعبي (الفولكلور) رقصا وعزفا وغناء وازياء وتمثيلا ووسائل استعمال يومية .. او حقلا (انتاجيا) يستقطب اهتمام السائحين واعجابهم الرومانتيكي ويدر عى الدولة دخلا موفورا !!

---

(١) انتاج المستشرقين واثره في الفكر الاسلامي الحديث ، صفحة ١١–١٤.

إن هذا كله لا يعدو الا ان يكون جزءاً من طرائق تعاملنا مع التراث ، ومساحة فحسب من مساحات هذه العلاقة المتبادلة بين الحاضر والماضي .. ذلك ان التراث – بما انه ليس مجرد آثار عمرانية مادية ورقصات واغان وازياء وحاجيات يومية – وانما هو اللغة والافكار والعادات والتقاليد والاذواق والاداب والعلوم والفنون والعلاقات الاجتماعية والمواقف النفسية والروئ الذهنية للكون والعالم والحياة .. وهو الامال والمطامح والمتاعب والالام .. الى آخره .. بما انه هذا كله فانه يند عن نطاق السكون (ستاتيك) والشيئية لكي ما يلبث ان يتحول الى حركة (ديناميك) وحياة .. وشتان بين التعامل مع (الاشياء) المحددة الساكنة والتعامل مع (الحياة) المتحركة المتمخضة التي لا تكف عن التدفق والنمو والتجدد والابداع.

إننا في الحالة الاولى نبحث ونكتشف ونحمي ونصون ونستمتع ، واما في الحالة الثانية فنتحرك ونتفاعل ونبدع ونتجدد ونستمر ونمضي قدما في حوار متناغم هادف بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ..

ان كل واحد منا ، وكل جماعة من جماعاتنا ، تحمل في فكرها وروحها ودمها واعصابها ووجدانها ، رصيدا متفاوتا من تاثيرات هذه المعطيات التي نسميها (تراثا) على وجودنا .. وهذه التاثيرات تتجاوز المواقف المحددة التي تتمثل بمشاهدة او مطالعة مخطوط قديم ، او التامل في شريط من الخطوط الكوفية ، او الاستماع الى معزوفة موسيقية شرقية او حضور حفل فلكلوري بهيج .. تتجاوزها جميعا – على اهميتها النسبية – الى مساحة اكبر واوسع تقوم على علاقة تبادل تاثيري بنائي شامل بين التراث وبين الانسان !!

– ٦ –

إن هذا ينقلنا الى مسالة اخرى غاية في الاهمية ، وخطأ فاضح شاع بين الناس ، ذلك هو ان (الاسلام) نفسه لا يعدو ان يكون جزءا من تراث امتنا ، ومساحة من مساحاته الممتدة في الزمان والمكان .. او هو – على احسن الاحوال – تراث هذه الامة الذي يتحتم علينا حمايته وصيانته تماما كما نحمي ونصون مكتبة موقوفة ، او مصحفا خطيا جميلا ، او منارة مائلة تهددها الايام بالسقوط !! او مقاما عراقيا اصيلا كاد ياتي عليه نغم الحجاز !!

ومن ثم ، فان اقصى ما يطمح اليه انسان هو الا يتجاوز تعاملنا المعاصر مع الاسلام حدود العلاقة بين امة ما وبين تراثها (الماضي) : بحثا وتنقيبا ودراسة وحماية وصيانة واعجابا وتقييما .. ومن ثم – كذلك – نقع في الشرك الذي نصبه لنا الفكر الاستعماري بجناحيه (الامبريالي والصهيوني) والذي يقودنا – عن علم او بدون علم – الى الزاوية الضيقة التي نقطع فيها كل علاقاتنا العضوية ، الحيوية ، مع الاسلام ، ونجمد كل اتصالاتنا الحركية بقيمه

ومبادئه ، ونوقف سائر التزاماتنا بشعائره واخلاقياته وادابه ، اللهم الا اذا كان تنفيذ الاخلاقيات والاداب وأداء الشعائر نفسها تراثا من التراث !!

ومن اجل الا ننساق وراء هذا الموقف الخاطئ ، او تلك المؤامرة الخطيرة ، في تصور ان الاسلام ومبادئه وقيمه مسائل تراثية ، وان علاقاتنا به لا تتجاوز حدود العلاقة بين جماعة من الناس وبين تراثهم العريق ، علينا ان ندرك حقيقتين اساسيتين في هذا المجال اولاهما ، واكثرهما اهمية : هي ان تراث امتنا ليس الاسلام او ان الاسلام ليس تراث امتنا بالشكل الرياضي الصارم كتطابق مثلثين تناظرت زواياهما. انما يجيئ التراث نتاج تفاعل ، بالسلب والايجاب ، مع الاسلام بالدرجة الاولى ، ومع عدد اخر من المبادئ والاديان والمذاهب بالدرجة الثانية ، فهو اذن – أي التراث – حشد من المعطيات تتمخض عن طبيعة التجربة التي احدثتها مواقف ابائنا واجدادنا من الاسلام .. معطيات شتى فيها الخطا والصواب، والاسود والابيض ، والمنعرج والمستقيم ، والظالم والعادل.

وهذا التنوع يجيئ لان الناس في تعاملهم مع الاسلام ليسوا سواء ، والقران الكريم نفسه عبر عن هذه الحقيقة النفسية الاجتماعية بقوله (قل : كل يعمل على شاكلته) ، ومن ثم يبدو بينا هذا الفارق الواضح بين الاسلام كفكرة وعقيدة ومنهاج وممارسات اخلاقية شعائرية ، وبين تراث امة اثر هذا الاسلام في سلوكها وعطائها بدرجة او اخرى تاثيرا متغيرا كما ونوعا، كما يبدو بينا خطأ اولئك الذين تصوروا الاسلام تراثا او عكسوا المقولة نفسها فتصوروا التراث إسلاما !!

وثانية تلك الحقائق : ان الاسلام عقيدة ومنهاج صاغتهما يد الله الحكيمة القديرة المريدة العالمة ، ومنحتهما الصفة الدائمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان واطروحاتهما الموقوتة الزائلة المتغيرّة النسبية ، لكي تكون بمثابة استشراف كامل ، مرن ، يتسع لكل حالة ، ويحتوي كل تجربة ، بغض النظر عن موقعها في الزمان والمكان.

أما التراث فهو عطاء موقوت ، وهو رغم تاثيراته الدائمة الممتدة في مسارب الزمان والمكان ، الا انه لم يصل بحال مرحلة الخلود المطلق ، وتجاوز نسبيات الزمان والمكان ، كما انه – باعتباره حصيلة لقاء عملي واقعي بين الانسان وبين العقيدة – يجيء متأرجحا بين النقص والكمال ، بين الفجاجة والصرامة والتعصب والبدائية ، وبين النضج والمرونة والانفتاح والتوافق .. وما اكثر ما قاد هذا التارجح في التعبير كثيرا من الناس الى ان يجانفوا روح الاسلام وبداهاته وهم يحسبون انهم إنمّا يعبرون عن ضرورات هذا الدين.

إن الاسلام ، بما انه الدين القيم الذي ارتضاه الله (سبحانه تعالى) لامتنا لكي تتحرك به الى العالم كله ، يبقى دوما : عقيدة وشريعة ومنهاج ، حركة للانسان في كل زمان ومكان .. وما تفجر عن ذلك اللقاء المتغير المتنوع النسبي ، بين ابائنا واجدادنا وبين دينهم القيم من المعطيات، كان هو التراث الذي ضم في حناياه تجاربهم المضنية ، وجهودهم الخلاقة ، وابداعهم

الدائب ، ونتاجهم الدائم ، وكان بمثابة المؤشر لما اكتمل في نفوسهم من مشاعر وعواطف واحاسيس ، ولما انتاب اذهانهم من روئ واحلام وافكار وتصورات .. وهي جميعا – من الفها الى يائها – مسائل تحتمل الخطا والصواب ، والنور والظلمة ، والحق الباطل.

وفرق واي فرق بين هذا الذي يصنعه الانسان الذي حدثنا عنه رسولنا (صلى الله عليه وسلم) بقوله : ان كل بني ادم خطاء وان خير الخطائين التوابون ، وبين تلك العقيدة التي جاءت من ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ والذي ﴿ **لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ** ﴾.

–٧–

وتبقى بعد هذا وذاك مسالة غدا الحديث عنها من البداهات ، ولكنها بنسبة لامة تريد ان تحدد موقفا ايجابيا مسؤولا من تراثها ، تغدو اكثر من ملحة ، تلك هي ضرورة وضع الخطط العملية المحددة ، والبرامج العلمية المدروسة ، وبعث روح النشاط الصابر الدؤوب ، للعمل المنسق في ميادين الكشف والبحث والتنقيب ، فيما ابقاه لنا الزمن من تراثنا : وثائق ومخطوطات وعمائر وخطوط ونقوش ومسكوكات ..

صحيح ان جهودا ضخمة قد بذلت في هذه الميادين طيلة القرنين الاخيرين ، في الشرق والغرب على السواء ، الا ان ما تم انجازه لا يزال اقل مما لم ينجز بعد ، وحتىهذا الذي كشف وحققق ودرس فانه بحاجة الى اعادة درس وتحقيق ، على ضوء الحقائق الجديدة المتمخضة دوما، والمناهج العلمية التي تزداد يوما بعد يوم دقة وموضوعية.

إن عقدة الذنب ، بسبب ضياع معظم تراثنا ، والبدء بدرسه وتحقيقه على يد مؤرخين مستشرقين غرباء عنا ، يجب ان تدفعنا – في حدودها المعقولة – الى مضاعفة الجهود وبذل كل ما يمكن بذله للكشف عن الاسس الغابرة في تراثنا ، مما يعد ضرورة لازمة لدراسه هذا التراث وتحليله وتخمين ابعاده الحقيقية.

إن اليد التي تتحرك باخلاص لتحقيق مخطوط وبعثه من الظلمات .. والعين التي تدور بحرص لقراءة لوحة خطية قبل ان يطمس عليها ، والمعاول التي تنزل برفق في اعماق الارض للكشف عن اسس عمارة قبل ان تستحيل ترابا من التراب ، لهي الايدي والاعين والمعاول التي ندين لها بالكثير الكثير ، ونحن نقرا هذه احقائق المحزنة عن تراثنا الذي ضاع " ان تاريخنا – يقول جلال كشك – قد دمر على يد الغزاة ، وبفعل عناصر التخلف والانهيار .. ان ذلك التراث الذي القاه التتار في دجلة ، لاشك ان مداده الاسود قد حمل معه الى الخليج جانبا من المعرفة ، وجانبا من تراثنا ضاع الى الابد .. وتلك المكتبات التي احرقها الغزو الصليبي لمدن

الشام في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان ، حتى قدر بعض المؤرخين ان الصليبين احرقوا في مدينة طرابلس وحدها ثلاثة ملايين مجلد .. لا شك ان نسبة خطيرة منها تضمنت حقائق من تراثنا ما يمكننا القول بإنه قد ضاع والى الابد .. وفي الاندلس ، احرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ، ما يقدره بعض المؤرخين بمليون كتاب. ولم يقتصر التدمير على الغزو الخارجي ، بل ان عوامل الانهيار كما قلنا قد سلطت الاحقادعلى تراث الاسلاف العظام .. ففي احدى الفتن الداخلية نهب الثائرون مكتبة القاهرة ، فمزقوا الكتب واستخدموا جلودها نعالا لهم ، والقي عدد منها في النيل ، وحمل منها الى شتى الاقطار ، وما بقي منها سفت عليه الرياح وتراكمت عليه الرمال ، فتحول الى تلال عرفت – كما يقول الدكتور مصطفى السباعي – باسم تلال الكتب. فنحن لانذهب بعيدا ان قلنا انه قد ضاع وسط هذه النكبات والمحن الكثير من حقائق حضارتنا ومنجزاتها .. انها – كما وصفها فردريك انكلز في كتابه (جدلية الطبيعة) – " مبعثرة وضاع معظمها " .. ويمضي كشك الى القول : " .. ثم كانت المرحلة الثانية مرحلة نهب التراث الاسلامي ، ونقله الى مكتبات اوربا. ان النسخة الاصلية للعديد من كتب تراثنا الاسلامي توجد الان في مكتبات الفاتيكان والاديرة ، او المتاحف والمكتبات العامة في اوربا وامريكا .. في ليل الانهيار والتخلف انقطعت الصلة بين الاسلاف العظام والحفدة العجزة ، فجهل هؤلاء قيمة ما تركه لهم اسلافهم .. ونظروا الى مخططات ابن سينا وابن رشد ككتب للسحر والهرطقة ، او قل انهم عجزوا عن الانتفاع بها، فتركت نهبا مشاعا لرسل الغرب .. وليس الا اخيرا ، وعندما استقر الامر للحضارة الغربية وتاكد انتصارها على العالم الاسلامي ، عندئذ بدا المستشرقون يعيدون نشر كتب تراثنا ويقومون بتحقيقها ، واصبحنا نتعرف على تاريخ اسلافنا من كتابات هؤلاء المستشرقين ، على تعصبهم وعجزهم عن فهم روح حضارتنا "[1].

ويحدثنا محمد عبد الله عنان عن بعض ما شهدته الاندلس من تدمير لتراثنا فيقول : " انه لم تمض اعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢) حتى ارتكبت اسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الاسلامي. ففي سنة (١٤٩٩) امر الكرديتال خمنيس ، مطران طليطلة ، بجمع جميع الكتب والاثار العربية من سكان غرناطة وارباضها، وتنظيمها اكداساً في ميدان باب الرملة ، اعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف والاف مؤلفة من كتب الاداب والعلوم ، واحتفل باحراقها (بعمل من اعمال الايمان) ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة الكالا (القلعة). وهلك في تلك المحنة معظم تراث الاندلس الفكري ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة

---

(١) طريق المسلمين الى الثورة الصناعية ، صفحة ٦–٨ ، وانظر د. مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا (فصل المكتبات : الخاصة والعامة).

هذه الجريمة الشائنة ، فقدرها بعضهم باكثر من مليون ، ولكن كوندي قدرها بثمانين الفا ، وتقديره ارجح واقرب الى المعقول ، لان المكتبة الاموية الشهيرة في قرطبة لم تزد – طبقا لأصح الروايات – على ستمائة الف مجلد ، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ، ولم يجتمع في غرناطة مجموعة بهذه الضخامة .. ولكنها كانت وهي عاصمة الاسلام في الاندلس تحتوي انفس الاثار العربية الاندلسية ".

ويمضي عنان الى القول : " بان المجموعة العربية في الاسكوريال – قريبا من مدريد – بلغت في اوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد ، ولبثت هذه الالاف العشرة من المخطوطات الاندلسية والمغربية في قصر الاسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت اغنى وانفس مجموعة من نوعها في اسبانيا. ولكن محنة جديدة اصابت هذه البقية الباقية من تراث الاندلس الفكري. ففي سنة (١٦٧١) شبت النار في الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه اكثر من الفين هي تلك تثوي اليوم في اقبية الاسكوريال "[١].

التعويض !! ذلك هو الشعار الذي يجب ان يتشبث به مثقفونا ومؤسساتنا في ميادين احياء التراث وحمايته وتحقيقه ونشره .. ولن يكون ذلك بالعمل الفردي وحده ، ولكن بتضافر الجهود وتكامل الطاقات والامكانيات والخبرات ، انه عصر التخصص والاحصاء والبرمجة والتخطيط والعقل الالكتروني ، وقد آن لنا ان نفيد من معطياته في نشاطاتنا العلمية ومناهج بحثنا.

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ط ٤ ، صفحة ٣٢٦-٣٢٩.

دراسة مقارنة

في سياسات يزيد بن عبد الملك

(١٠٢-١٠٥هـ)

أولا– ان القيام بمقارنة تاريخية بن رجلين كعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك تبدو على درجة من الاهمية لاكثر من سبب ؛ فهنالك الارتباط الزمني حيث اعقب احدهما الاخر ، وهناك ذلك القدر الكبير من الافعال وردود الافعال المتبادلة بين الرجلين .. التغاير الكبير في تركيب الشخصيتين ، وتناقض رؤاهما ومواقفهما وبالتالي .. الامر الذي يبلغ اقصى حدته في العبارة التي اوردها ابن الاثير : " عمد يزيد الى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده "[1] ، والتي يجيء هذا البحث لكي (يختبر) مدى صحتها..

وهناك أيضا قرب عصر الرجلين من مرحلة سقوط الدولة الاموية ، والتكهنات المتناقضة التي حملها المؤرخون المعاصرون في الشرق او الغرب هذا الخليفة او ذاك ، باعتبار سياسته احدى عوامل ضعف الدولة ودمارها.

وفضلا عن هذا وذاك فان الدراسة التي حللت بها اجراءات عمر تحت عنوان (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، والتي تضمنت قدرا من النقد والتقييم لسياسات الخلفاء الذين سبقوه ، تقودني بالضرورة الى تفحص اعمال سياسات الرجل الذي اعقبه في قيادة الدولة الاموية : يزيد بن عبد الملك.

هل ادرك يزيد ابعاد مهمته التاريخية في اعقاب ذلك التغيير الشامل الذي احدثه سلفه عمر ، والذي تبين باستقراء الوقائع التاريخية ، كم هو ضروري ليس فقط لتنفيذ عقائديات الاسلام في واقع الحياة ، وتحويل مجراها على هدى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وانما لديمومة واستمرار التجربة الاموية نفسها ؟ هل كان يزيد يملك رؤية عمل شاملة (استراتيجية) ، تنبثق عن فهم كلي عميق للموقف التاريخي ومقتضياته ؟ هل ادرك ان مهمته المركزية كانت تحتم عليه حماية التغييرات التي احدثها سلفه ، تعميقها وتوسيعها من اجل تمكين الدولة الاموية من مواصلة طريقها ؟

كلا .. ذلك ما تقودنا اليه الوقائع ، ليس لان يزيد كان يحمل رغبة عشوائية ، بل حتى مرسومة ومبرمجة ، لوقف اجراءات عمر او هدمها ، كما قد توحي به عبارة ابن الاثير اتي تتضمن قدرا من المبالغة ، وتقود اى نوع من سوء الفهم .. انما لان يزيد – باختصار – ما كان يملك استشرافا عقائديا تاريخيا .. استراتيجية عمل شامل تنبثق من متطلبات العصر وتعمل على هدى عقيدة بعيدة الاغوار ممتدة الافاق.

فيزيد ، كما سنرى ، كان يطمح أحيانا للتشبه بعمر ، وكان احيانا اخرى يدفع بجيوشه في البر والبحر ، لتحقيق مزيد من الانتصارات للدولة الاموية وكان احيانا ثالثة يلوي راسه للمعارضة ويحترمها ، ويستجيب لبعض مطالبها. ولكنه ، جنبا الى جنب مع هذا ، كان يهدم في

---

(١) الكامل في التاريخ ، ٦٧/٥ (دار صادر– بيروت ١٩٦٥).

اجراءات عمر ، ويبحر باتجاه مضاد حتى ليكاد يبلغ الطرف النقيض الاخر ، ليس كرها لسلفه، ولا رغبة في الاتيان على معطياته ومحو دوره التاريخي ، ولكن لان يزيد كان يعاني من تسطح ايمانه وضعفه ، ومن قصور الرؤية العقائدية – اذا صح التعبير – وتجزؤها .. كان – باختصار – في منزلة ادنى بكثير مما كان يتطلبه عصره !!

فنحن نجد ان الرجال الكبار الذين لعبوا دورا تاريخيا واسعا ، كان يعقبهم – حينا – رجال على مستواهم في الرؤية وفي القدرة على التنفيذ التاريخي ، فيواصلون الطريق ، ويمكنون التجربة ، ليس فقط من أن تضرب بجذورها في الارض ، وانما من ان تزداد عطاء واتساعا واثمارا .. وكان يعقبهم – حينا اخر – رجال دون المستوى المطلوب رؤية وقدرة على التنفيذ ، فتتعرض التجربة الى الانتكاس ، وربما للدمار. وليس شرطا ان يكون هؤلاء الذين هم اصغر من متطلبات العصر ، ممن يمارسون هدم معطيات اسلافهم ، يكفيهم ان يجمدوا تدفق الحركة العملاقة التي احدثها اسلافهم في التاريخ .. يكفيهم ان يعاملوها بنوع من التسيب والتفلت والاهمال واللا اكتراث ، لكي ما تلبث ان تتعرّض للانتكاس.

ومن ثم فان رجلا كيزيد كان سيعرض تجربة عمر الانتقالية للانتكاس حتى ولو لم يمارس ازاءها ذلك التخريب الواسع .. فيكفي انه اصغر حجما من عمر بكثير ، وانه يمارس نوعا من اللا اكتراث ازاء معطياته .. لكي تتحقّق النتيجة نفسها ..

ويبدو ان ابن الاثير ، وغيره كثيرون ، اصيبوا بخيبة امل من جراء ما آلت اليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز فطرح مقولته تلك من ان يزيد عمد الى كل ما صنعه عمر ، مما لم يوافق هواه ، فرده .. بينما سنجد ان يزيد لم يعمد الى رد كل ما صنعه عمر ، مما لم يوافق هواه ، وانما الى بعضه فحسب .. والذي قاد الى الانتكاس ليس مجرد هدم هذا الجانب او ذاك ، وانما هو فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية .. ولكن لما كانت النتيجة هي الانتكاس ، توهم ابن الاثير ومن تابعه فتصوروا ان يزيدا عمد الى كل ماصنعه عمر فرده .. وليس ذاك !!

***

ثانياً– لنبدأ بسياساته الداخلية والخارجية ازاء القوى والجماعات التي كانت تتواجد داخل الدولة او على حدودها.

كان عمر بن عبد العزيز ، في الداخل ، يسعى الى تجميع الطاقات ووقف نزيف الدم المسلم وكسب قوى المعارضة باعتماد الحوار السلمي بدلا من القمع المسلح ، وتوجيه موارد الدولة للاعمار والانماء ، وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي بدلا من اهدارها في ملاحقة الثورات الداخية المسلحة ، او الاعمال العسكرية الاستعراضية في الخارج. وكان يتحرك على ضوء

ضرورة تكوين قاعدة بشرية موحدة تسند الدولة وترفدها وتحميها ؛ ويرفض بالتالي أي تمزق قد تتعرّض له هذه القاعدة سواء باسم العصبية القبلية او الحزبية او أي اسم اخر.

في الخارج سعى عمر الى كسب الشعوب المجاورة واستمالة حكامها بفتح باب الكلمة والاقناع ، وبتقديم اغراءات مالية ، وبوقف الاستفزازات الحربية التي قد تكون نتائجها – بحساب الخسائر والارباح – ليست في مصلحة الدولة ، فكيف بحساب العقائد والافكار ؟ وهو الذي طرح شعار : " ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا " ؟

وليس هذا – بطبيعة الحال – مجال استعراض سياسات عمر في الداخل والخارج لان هذا يقودنا الى تكرار ما سبق وان عرضنا له بالتفصيل في كتاب (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، ويكفي – لغرض المقارنة فحسب – ان نطرح بايجاز بالغ الخطوط العريضة لهذه السياسات.

ما الذي فعله يزيد ؟

ما من ريب في أن اكثر اجراءاته تضادا مع سياسة سلفه عمر ، تلك التي تتعلق بموقفه من ازمة الامويين المستعصية : العصبية القبلية.

لعل من سوء حظه ان تنفجر – لاول عهده بالخلافة – ثورة يزيد ابن المهلب (اليمانية) في العراق ، وان تدفعه عبر ايام الصراع القاسي الطويل ، وبعده ، الى سلسة من ردود الافعال تنتهي به الى ان يعلن وقوفه صراحة الى جانب القيسيين ، ويمنحهم مقدرات الدولة سلما وحربا ، رغم ان اليمانية كانوا اغلب سكان الشام قاعدة الامويين ، وبهذا تعود القاعدة العربية ، التي سهر عمر على حماية وحدتها ، الى التمزق ثانية بين عرب شمال وعرب جنوب ، وتعود القيادة الاموية الى تعميق الانشقاق بمحاباة هذه الكتلة او تلك .. ليس هذا فحسب ، بل ان يزيدا اتخذ اجراءا خطيرا بهذا الصدد وذلك بانقاصه عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية مما ادى الى حدوث اضطراب في الشام نفسه[1].

ومما زاد من قوة ميل يزيد الى القيسية وبغضه اليمانية ، علاقات المصاهرة التي ربطته اكثر بقيس ، تلك العلاقات التي كان لها ابلغ الاثر في انتماءات العديد من الخلفاء والقادة الامويين الذين سبقوا يزيدا او اعقبوه .. وها هو ذا يواصل السير على نفس الطريق.

فلقد كانت ليزيد صلات وثيقة بالحجاج (رجل قيس)، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف اخو الحجاج نفسه فانجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد اسمت ابنها الاول الذي توفي ، على اسم خاله : الحجاج. ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك

---

(١) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة ، ٢/٢٧٢-٢٧٣ ، الطبعة الثالثة (مكتبة الجامعة العربية ، بيروت-١٩٦٦).

يبغض يزيد بن المهلب منذ عهد ما قبل خلافته ، وكان هذا واليا على العراق ، وقد عذب آل الحجاج ، وكان من المستظلين بظل سليمان ، فلما تولى يزيد الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيرا[١].

وليس هنا مجال الحديث عن ثورة ابن المهلب فلقد اشبعها القدماء والمحدثون بحثا[٢]، وانما بصدد الاشارة الى ابعادها القبلية وردود الافعال التي رافقتها. يشير ابن الاثير الى ان الخليفة لدى سماعه بهرب يزيد بن المهلب امر عامله على البصرة ، عدي بن ارطاة ، ان ياخذ من بالبصرة من آل المهلب ، فاخذهم وحبسهم. وسرعان ما اتضحت الابعاد القبلية للثورة اذ وقفت تميم وقيس واهل الشام الى جانب عدي ، ولكن ابن المهلب تمكن ، في النهاية ، من تحقيق عدة انتصارات ضدهم. والقى عبد الحميد بن عبد الرحمن ، عامل الكوفة ، القبض على خالد بن يزيد بن المهلب وحمال بن زهر ، رغم انهما لم يكونا في شيء من الامر ، واوثقهما وسيرهما الى الشام فحبسهما الخليفة وظلا في السجن حتى هلكا فيه[٣]. واستمر التشنج يحكم تصرفات الخليفة حتى بعد فشل الثورة ، فكتب الى احد قادته في العراق يامره بضرب رقاب الاسرى ، فكان المسؤول عن شرطته يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين ، الى ان جاءه كتاب مسلمة بن عبد الملك يامره بترك قتل الاسرى[٤] ، ولكنه – من جهة اخرى– بعث يطاردهم شرقا حتى كاد ان ياتي عليهم[٥] ، وحمل بقية الاسرى الى يزيد وكانوا ثلاثة عشر رجلا فامر بقتلهم[٦].

ويذكر خليفة بن خياط ان اسرى المهالبة لما دخلوا على يزيد قام الشاعر المعروف كثير عزة فالقى ابياتا طلب فيها العفو من يزيد : فعفوا امير المؤمنين وحسبة فما تحتسب من صالح لك يكتب ... الخ ، فما كان جواب يزيد الا ان قال : لا كانت بك الرحم ، لا سبيل الى ذلك ، والتفت إلى اصحابه قائلا : من كانت له ، قبل ، إلى المهلب دم فليقم ، ودفعهم اليهم

---

(١) يوليوس فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، صفحة ٣٠٢ ، ترجمة : محمد عبد الهادي ابي ريدة (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة–١٩٦٨).

(٢) وبخاصة الطبري وابن كثير وفلهاوزن.

(٣) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٥٨٥/٦ ، تحقيق ابي الفضل ابراهيم ، (دار المعارف ، القاهرة–١٩٦٤–١٩٦٦) ، ابن الاثير : الكامل ، ٧١/٥–٧٥.

(٤) الطبري : تاريخ ٥٩٨/٦–٥٩٩ ، ابن الاثير : الكامل ، ٨٤/٥–٨٥.

(٥) الطبري : تاريخ ٦٠٠/٦–٦٠٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ٨٦/٥ ، علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٢٠٠/٣–٢٠١ (دار الاندلس– بيروت).

(٦) الطبري : تاريخ ٦٠٢/٦–٦٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/ ٨٧.

حتى قتل نحوا من ثمانية[1]. حتى نساء المهالبة لم ينجين من العقاب فقد سيق الى دمشق خمسون منهن حبسن هناك[2].

وفي الطرف الآخر حاول يزيد بن المهلب – عبثا – ان يتجاوز مواقع العصبية ، وان يجعل الهدف الديني – الاجتماعي – الشامل منطلقا لثورته ومطمحا لها في الوقت نفسه. " دخل رجل من الازد ، جمع جموعا ، فبايعه ، فكانت بيعة يزيد : تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى الا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ، ولا يعاد الينا سيرة الفاسق الحجاج ، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومن ابى جاهدناه "[3]. ويروى ان ابن المهلب خلع الخليفة ودعا الى الرضا من بني هاشم او الشورى في اختيار الخليفة ، فكانت بيعته على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)[4]. ونقرا في الطبري ، وابن الاثير ، هذا الحوار الذي سبق الاشتباك والذي ودار بين ابن المهلب واحد كبار مؤيديه ... قال الصميدع لابن المهلب : انا قد دعوناهم الى كتاب الله وسنه نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد زعموا انهم قبلوا هذا منا فليس لنا ان نمكر ولا ان نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا انهم قابلوه منا .. فقال يزيد : ويحكم !! اتصدقون بني امية انهم يعملون بالكتاب والسنة وقد وضعوا ذلك منذ كانوا ؟ يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم اليه .. قالوا : لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا انهم قابلوه منا[5].

ونستطيع من خلال الحوار ، ان نخمن ، كيف ان ابن المهلب لم يكن مخلصا كل الاخلاص لهدفه الديني ، وانما اراد من اطروحاته في هذا الصدد ان يكسب مزيدا من الانصار وان يغطي على الوجه القبلي الصارم لثورته. وقد كسب بذلك الاتباع فعلا ، والحوار نفسه يبين لنا كيف ان هولاء الاتباع كانوا مخلصين الى حد كبير في التشبث بالهدف الديني الاجتماعي للثورة التي انتموا اليها.

وهذا يقودنا الى ذلك (الصوت) الديني الذي انطلق من حنجرة كبير زعماء الفكر الاسلامي في البصرة يومذاك : الحسن البصري .. منددا بهذه الثورة ، داعيا الى ارفضاض الناس عنها ووقف تاييدها ، كاشفا عن ابعادها الحقيقية. ونحن نشير هنا الى واحد فحسب من مواقف الحسن البصري ازاء ثورة ابن المهلب :

جمع المهلب اهل البصرة وقام خطيبا فيهم واخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنة

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ٣٣٤/١ ، تحقيق : اكرم ضياء العمري (مطبعة الآداب ، النجف الاشرف–١٩٦٤).

(٢) احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٥٥/٣ (المكتبة الحيدرية ، النجف–١٩٦٤).

(٣) الطبري : تاريخ ، ٥٩٢/٦.

(٤) التاريخ السياسي ، ٢٧٥/٢.

(٥) الطبري : تاريخ ٥٩٣/٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٨٠/٥.

نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وحثهم على الجهاد ، وزعم ان جهاد اهل الشام اعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم (الوثنية). وكان الحسن البصري يسمع فرفع صوته قائلا : والله لقد رايناك واليا ومولى عليك ، فما ينبغي لك ذلك. فما كان من اصحاب ابن المهلب الا ان وثبوا عليه وارغموه على السكوت .. ولدى مغادرته المكان مر بحشود من الناس نصبوا الرايات وراحوا ينتظرون ابن المهلب وهم يقولون : تدعونا الى سنة العمرين : فقال الحسن : كان يزيد (ابن المهلب) بالامس يضرب اعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم يرسلها الى بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب قال : اني ، قد خالفتهم فخالفوهم .. ان من سنة العمرين ان يوضع في رجله قيد ثم يرد الى محبسه. فقال قوم من اصحابه : لكانك راض عن اهل الشام ؟ اجاب: قبحهم الله ، اليس هم الذين احلوا حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. لا ينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا الى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة واوقدوا النيران بين احجارها واستارها ؟[1].

فها هو موقف الحسن البصري ، الذي يتميز بالشجاعة والصراحة والموضوعية ، يلقي مزيدا من الضوء على الدوافع الحقيقية لثورة ابن المهلب ، ذلك الزعيم القبلي الذي حبسه عمر بن عبد العزيز ، ونفاه ، لتلاعبه باموال الدولة .. انها العصبية والرغبة في الانتقام ، وليست دعوته الى كتاب الله وسنة رسوله (عليه السلام) وسيرة الشيخين (رضي الله عنهما) الا محاولة ذكية منه لكسب شعبية اكبر والتغطية على الدوافع الحقيقية لحركته.

ومهما يكن من امر فان ردود الافعال القبلية استمرت ، زمنا ، بعد سحق ثورة ابن المهلب ، وامتدت في المكان ايضا حتى بلغت خراسان شرقا. ذلك ان الخليفة يزيد ، بعد ان استدعى اليه مسلمة بن عبد الملك ، امير الامويين على العراق وولايات المشرق ، عين مكانه عمر بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن عبد العزبز والياً على الجزيرة ، وكان قيسيا من انقى دم في قيس ، وكانت ادارته متمشية مع ذلك. ولقد لقيت قبائل الازد واليمن بوجه عام ، خصوصا في خراسان على يديه عنتاً ، فابعدوا واهينوا ، وعذب الموالون للمهالبة او المتهمون بذلك واخذت اموالهم.

ولكن كانت قيس هي التي انتصرت واستطاعت ان تشعر بانها هي السيدة في المشرق كله ، وهي ان كانت متنازعة فيما بينها فانها اخلصت في الاتحاد امام القبائل. لقد بلغ الامرمن الانكشاف ان اصبح معلقا على ألسنة الشعراء .. وها هو الفرزدق يقول متهكما ، بعد ان عين ابن هبيرة الفزاري على العراق والمشرق :

---

(١) الطبري : تاريخ ٥٨٧/٦ –٥٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ٧٥/٥ –٧٦ ، وانظر عن البعد الديني لحركة ابن المهلب : فلهاوزن: الدولة العربية ، صفحة ٣٠٥ – ٣٠٦ وهوامشها.

ولقد علمت لئن فزارة امرت ان سوف تطمع في الامارة اشجع !!

وكانت فزارة هي رأس غطفان قيس وعرب الشمال وكانت اشجع هي ذنبهم[1]. وفي عهد عمر ما كان بمقدور الفرزدق ، ولا غيره ، ان يترنم بأبيات كهذه.

قد يقال بان يزيد بن عبد الملك كان مضطرا ازاء عنف الثورة التي قادها المهالبة اليمانيو الاصل الى ان يرمي بثقله على القوى القيسية ، وان يزداد مركز الاخيرة ، بسبب جلبها الانصار للامويين ، مع ملاحظة أن قضاعة اليمانية لعبت دورا اساسيا في الانتصار على المهالبة وان الكلبيين هم الذين طاردوا هؤلاء واستاصلوا شافتهم.

ولكن بالتمعن في الامر يبدو ان المسالة ليست بهذه الصيغة المقفلة ، وليس الارتماء في احضان كتلة قبيلة من اجل مجابهة كتلة اخرى ، طريقا مسدودا ليس الى الخروج منه من سبيل .. ابدا ، فمن جهة ضرب لنا عمربن عبد العزيز مثلا على الارتفاع فوق مستوى الصراعات القبلية ، وتحييد الجهاز الحكومي ، وتفتيت مراكزالقوى القبلية. وهو وان كان قد امتص كل ما من شانه ان يقود المعارضة الى حركة مسلحة واسعة النطاق ، فانه – حتى ولو افترضنا وقوع حادثة كهذه – فيقينا ما كان الخليفة ليتراجع امامها ويميل بثقله صوب الكتلة المعارضة قبليا. وكان قد جعل الجيش ، اداة الدولة الضاربة ، قوة متماسكة موحدة ، تمارس مهماتها الفنية الصرفة بعيدا عن التحزبات القبلية التي رفضها الخليفة كلية. ومن خلال هذه الاداة المجرة عن الهوى البعيدة عن الميل ، كان بمقدور عمر ، او أي خليفة يمكن ان يتابع سياسته ، ان يضرب معارضيه دون ان يميل الى هذه الكتلة او تلك ، ودون ان يعطيها الاشارة لكي تستغل انتصارها وتمد نفوذها ، وتشكل مركز قوة يهدد وحدة الدولة ووحدة قواعدها العربية ، كما حدث في كثير من الفترات التي نكب فيها التاريخ الاموي بضياع هذه الوحدة من جراء عدم قدرة بعض الخلفاء على تحييد اجهزة الدولة وبخاصة الجيش.

وحتى لو افترضنا بان خليفة كعمر وجد نفسه مضطرا ازاء ثورة يمانية ، كتلك التي قادها المهالبة ، للاعتماد بالمقابل على القيسيين ، وانتصر في نهاية الامر باذرع هؤلاء ، فانه كان يعرف كيف يقف في اعقاب الانتصار عند نقطة التوازن ، ويفطم القيسيين المنتصرين عن قطف ثمار انتصارهم لانفسهم لا للدولة وامنها ووحدتها ، وسيعرف كذلك كيف يكبح جماح الغضب ، وهو الخليفة الأب ذو الصدر الواسع والقلب الرحيم ، فلا يصب جام نقمته على المنهزمين قتلا واسرا وتشريدا ومحاولة لبيع الذراري في الاسواق ، كما حدث في العراق والمشرق إزاء المهالبة حيث صفوا تصفية جسدية رهيبة : رجالا وشيوخا وصبيانا ، وحيث اقسم مسلمة ان يبيع ذراريهم مخالفا بذلك اداب الاسلام – كما يشير فلهاوزن – لولا ان الجراح الحكمي انقذ ما تقضي به هذه

---

(١) فلهاوزن : الدولة العربية ، صفحة ٣١٠ والهامش رقم ٣ من الصفحة نفسها.

الآداب واقنعه بالعدول عن هذا الاسلوب ، فاكتفى مسلمة بارسال تسعة فتية احداث الى يزيد لكي يضرب اعناقهم.

إن الخليفة الذي يمثل قمة الدولة وارادتها النافذة يجب الا يمضي مع عواطفه كشخص، او حتى قائد او وال منتصر .. انه يجب ان يرتفع فوق هذا كله ، وانه ما دام قد انتصر وابعد عن دولته شبح الهزيمة والانكسار ، فان له ان يمسح بيده على جراح المنهزمين ما دامت قواهم قد تفتّتت وما داموا قد اصبحوا في حال لا يشكلون معها ايما خطر او تهديد حقيقي للوجود الاموي .. الم نر كيف ان الخليفة عبدالملك بن مروان بذل محاولات دائبة لمصالحة القيسيين والمسح على جروحهم التي اثخنهم بها اليمانيون في معركة مرج راهط زمن ابيه مروان بن الحكم، وكيف انه بمصالحة هؤلاء تمكن من حماية ظهره والتحرك لمجابهة مشاكله في العراق وهو مطمئن الى عرب الشمال : قيسيهم ويمانيهم ؟

ليس اذن رد الفعل القبلي هذا حتمية مقفلة وطريقا مسدودا ، لكن يزيدا اختار ان يمارس سياسات بعض اسلافه وبعض اخلافه ففتحوا على انفسهم الثغرة التي تسلّل منها الخراب فجعل عاليها سافلها. ونظرة سريعة الى ما شهدته الساحة الخراسانية ايام اطل العباسيون برؤوسهم من ارض خراسان نفسها ، ترينا حجم النتائج التي يمكن ان تتمخض عن هذه السياسة او تلك تجاه المسالة القبلية.

يقول فلهاوزن بصدد تعليقه على سياسات يزيد القبلية : ((كان تخوفه وارتيابه من مطامحهم في المشرق لها ما يبررها ، وكانت ثورتهم سببا في انفجار بغضه القديم لهم ، وكان افناء جميع افراد ذلك البيت القوي النابه ، وهي فعلة لم يسمع بمثلها في طول تاريخ الدولة الاموية كان بمثابة اعلان حالة الحرب على قبائل اليمن. وكان نتيجة ذلك أن حكومة بني أمية انقلبت حزبا يحكم باسم قيس ، وكان الخليفة هو الذي يحمل الوزر في ذلك ، وقد عين ابن هبيرة اميرا على العراق وتركه في ميدان امرته الواسع يفعل ما يشاء ، ولم يكن من شيئ قد بعثه على ذلك الا مجرد الرغبة في الانتقام ، وكان بعيدا من ان يكون رجلا سياسيا يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية لأعماله))[1].

لقد كان عمر بن عبد العزيز يكره ، هو الاخر ، يزيد بن المهلب ، وقال عنه انه ينتمي الى اسرة جبابرة لذا فهو يبغضه ، وكانه يشير بذلك إلى جبروت هذه الاسرة واحتمالات تشكيلها مركز ثقل يهدد وحدة الدولة الاموية وارادة سلطتها العليا. لكنه لم يتعامل مع رأس هذا المركز باعتباره يمثل كتلة قبلية من ازد اليمن ، ولم يخطر له هذا على بال ، وانما تعامل معه باعتباره سارقا لاموال الدولة وقوت شعبها ، وتجاوز – بقوة شخصيته والتفاف ابناء امته حوله – كل رد

(١) الدولة العربية ، صفحة ٣١٢.

فعل قد يتمخض عن الضغط على ابن المهلب وارغامه على تسليم الاموال ، رغم اعتقاله ونفيه فيما بعد ، وهو في كل اجراءاته تلك يتابع تنفيذ المعادلة بشكلها الصحيح : الحكومة التي يتوجب عليها ان تحمي اموال الامة من سارقي اموالها .. وليس في المسالة بعد هذا أي بعد عصبي ، ولو اطلت العصبية خلاله ، من حيث لا يريد الخليفة ان تطل ، لعرف كيف يسحقها !!

ثالثاً- وماذا عن القوى الاخرى في المجتمع؟

في اعقاب وفاة عمر بن عبدالعزيز عام (١٠١هـ) احبّ عبدالحميد بن عبدالرحمن ، امير الكوفة ، ان ينال الحظوة لدى الخليفة ، يزيد ، فكتب الى محمد بن جرير يأمره بقتال شوذب ، الزعيم الخارجي الذي يسمى بسطام ، قبل ان يرجع رسولاه الى عمر حيث كان قد استدعاهما لفتح باب الحوار السلمي معهما وصولا الى الحق والتزاما به ، بعيدا عن رفع السلاح وسفك الدماء ، وقبل ان يعلم الخوارج – كذلك – بوفاة عمر .. فلما راوا القائد الاموي يستعد للحرب ارسل اليه شوذب يقول : ما اعجلكم قبل انقضاء المدة ؟ اليس قد تواعدنا الى ان يرجع الرسولان؟ فارسل القائد الاموي محمد بن جرير : انه لا يسعنا تركككم على هذه الحال. فقال الخوارج : ما فعل هؤلاء هذا الا وقد مات الرجل الصالح. وبدأ القتال الذي ما كان اشتعاله ضربة لازب على الاطلاق ، واصيب نفر من الخوارج وقتل الكثير من اهل الكوفة ، وانتهى الامر بهزيمتهم وجرح قائدهم ابن جرير ، وتبعهم الخوارج حتى مشارف الكوفة ، ثم اثروا الانسحاب الى اماكنهم في الجزيرة ، واقام شوذب ينتظر صاحبيه فقدما عليه واخبراه بموت عمر ، وبعد ايام وصلهم قائد اموي اخر على رأس الفين من الرجال واخبرهم ان الخليفة الجديد لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر ، فلعنوه ولعنوا يزيدا معه وشنوا عليه هجوما انتهى بقتله وعددا من اصحابه بينما تراجع الاخرون باتجاه الكوفة ، فوجه يزيد جيشا ثالثا ورابعا لم يكن مصيرهما بأحسن من مصير الجيشين الذين سبقاهما .. واقام الخوارج بمكامنهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا اليه اهلها مكانة شوذب وخوفوه منه فارسل اليه مسلمة سعيد بن الحرشي ، وكان فارسا مقاتلا ، على راس عشرة الاف مقاتل ، فلما راى شوذب وأصحابه ما لا قبل لهم به قالوا : من كان يريد الشهادة فقد جاءته ومن كان يريد الدنيا فقد ذهب ، فكسروا اغماد سيوفهم وحملوا على خصمهم فكشفوه واصحابه مرارا ، حتى خاف القائد الاموي الفضيحة فوبخ اصحابه وقال : امن هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون ؟ يا اهل الشام يوما كايامكم. فحملوا عليهم. فطحنوهم طحنا وقتلوا شوذبا وعددا كبير من اصحابه ، فصفيت بذلك ثورتهم[١].

---

(١) الطبري : تاريخ ٦ /٥٧٥ –٥٧٧ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/٦٨–٧٠.

وثمة ثورات اخرى قادها الخوارج في اماكن مختلفة من الدولة ، وبخاصة في اليمامة والبحرين المطلتين على الخليج العربي حيث قاد الخوارج هناك رجل يدعى مسعود العبدي ، كان قد غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة ، فتصدى له العامل الاموي وتمكن من قتله ، فقام بالامر من بعده هلال بن مدلج ، وبعد صِدام عنيف بين الطرفين انتهى الامر بتصفية الخوارج هناك[١].

وفي الجزيرة اشتعلت ثورة خارجية اخرى عام (١٠٥هـ) قادها حروري يدعى عقفان لكنها لم توفق الى كسب قدر كاف من الانصار فاراد الخليفة ان يوجه اليه جندا لقتاله فقيل له : انه ان قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج بعده دار هجرة ، والرأي ان تبعث الى كل رجل من اصحابه رجلا من قومه يكلّمه ويرده ، ففعل ذلك ، فما كان من اهليهم الا ان قالوا لهم : إنا نخاف ان نؤخذ بكم !! وانتهى الامر بطلب الامان وبقي عقفان وحده فبعث اليه يزيد اخاه الذي تمكن من استعطافه ورده[٢]. وهكذا انتهت هذه الثورة (المحدودة) دون ان تراق قطرة دم واحدة.

وكان بمقدور يزيد ان يتاسى بسياسات سلفه ازاء هذه الكتلة من المواطنين وان يعتمد معها الحوار السلمي المفتوح الذي يعتمد الكلمة والبرهان بدلا من العنف واراقة الدماء ، ولكنه اختار الطريق التقليدي الثاني رغم ما يجره على الدولة ، من وراء الانتصارات التي يحققها ، من خسائر في الارواح والاموال ، ومما هو اكبرمن ذلك .. تفتت وحدة المجتمع وتغلغل مشاعر الحقد والبغضاء في النفوس حيث تزيدها الهزائم عمقا وانتشارا .. وها هي اربعة جيوش اموية تهزم ويقتل عدد كبير من قادتها وجندها لا لشيئ الا لان يزيدا استجاب لرغبة وال له في العراق احب ان يتقرب اليه بشن الحرب على اصحاب شوذب قبل ان يعرفوا مصير محادثاتهم مع الخليفة السابق عمر ابن عبد العزيز.

ومهما يكن من أمر فان يزيدا قد جرب هو الآخر ، مع تلك الثورة الصغيرة التي قادها عقفان ، اسلوب الاقناع السلمي ، والمرونة السياسية ، وانتهىالامر بتصفية هذه الثورة دون اراقة قطرة من الدم. فليست اساليب عمر في هذا الجال هي وحدها التي لقيت نجاحا.

والحق ان يزيد ما كان يركب راسه دوما ويمضي على الطريق المعوج الى عايته ، فنحن نجده بين الحين والحين يعرب عن رغبة عميقة واستعداد مفتوح لتصحيح الخطأ وتداركه قبل فوات الاوان واحيانا يتحرك – في الوقت المناسب – لاطفاء النار قبل اشتعالها ، ولكن مواقفه هذه لا تعدو ان تكون استثناء لقاعدة اوسع هي التي وصمت سياساته جميعا.

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ٥ /١١٨-١١٩.

(٢) المصدر السابق ١١٨/٥ ، وانظر صفحة ١١٩-١٢٠ من المصدر نفسه حيث يشير ابن الاثير الى ثورة خارجية اخرى ربما تكون تصفيتها قد تمت في عهد هشام بن عبد الملك.

في المدينة تلقى عامل يزيد ، عبدالرحمن بن الضحاك ، امرا بعزله بعد ولاية دامت ثلاث سنين بسبب من محاولة هذا العامل ارغام فاطمة بنت الحسين بن علي على التزوّج به ورفضها تهديداته وارسالها الىالخليفة من يرفع شكواها اليه.

غضب يزيد غضبا شديدا ، وجعل يضرب بخيزرانة في يده ويقول : لقد اجترأ ابن الضحاك. هل من رجل يسمعني صوته في العذاب ؟! قيل له : عبدالواحد النضري. فكتب بيده اليه : قد وليتك المدينة فاهبط اليها واعزل عنها ابن الضحاك وغرمه اربعين الف دينار ، وعذبه حتى اسمع صوته وانا على فراشي !! فلما علم ابن الضحاك بذلك استجار بمسلمة بن عبد الملك فاجتمع هذا بالخليفة وتوسط لديه ، ولكن يزيدا اجاب : كل حاجة فهي لك الا ابن الضحاك ، فوالله لا اعفيه ابدا. ورده الى المدينة حيث استلمه النضري فعذبه عذابا شديدا ، وانتهى الامر بالوالي السابق الى ان يلبس جبة من صوف ، يسال الناس. وكان ابن الضحاك قد آذى الانصار جميعا فهجاه الشعراء وذمه الصالحون. فلما ولي النضري احسن السيرة فاحبوه ، وكان رجلا خيرا ، لا يقدم على فعل الا بعد استشارة كبار رجالات المدينة وبخاصة القاسم بن محمد بن ابي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر[1].

فها هو ذا الخليفة يمتص باجرائه الحاسم هذا غضب العلويين والانصار ويوفّر على الدولة جهدا كبيرا ، وعلى وحدة المجتمع شرخا محتملا .. وقريب من هذا ما حدث في المغرب ازاء كتلة اخرى من المسلمين : البربر ، فها هنا نجد الخليفة يمتلك القدرة على ضرب فراملة في الارض ووقف الخطأ قبل ان يتدحرج بماكنة الدولة الادارية هناك الى نقرة عميقة فيصيبها بالاذى.

كان الخليفة الجديد قد استعمل على افريقيا يزيد بن ابي مسلم مولى الحجاج وصاحب شرطته على المغرب ، وهو رجل دميم قصير اشتهر بقسوته ، وكان سليمان قد عزله عن العراق كما ان عمر بن عبد العزيز حبسه ، فسار يزيد في اهالي افريقيا ، يقول ابن الاثير (سيرة الحجاج في اهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان اصله من السواد من اهل الذمة فاسلم بالعراق ، فانه ردهم الى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ماكانت تؤخذ منهم وهم كفار ..) فخالف بذلك عن سياسات عمر بن عبدالعزيز وزاد على ذلك بان يرسم اسم حرسه على ايدي البربر كما تصنع الملوك من غير المسلمين ، وفرض على احد ابناء موسى بن نصير ان يعطي ارزاق الجند من ماله الخاص مدة خمس سنين ، فلما اعلمه بعدم قدرته على ذلك حبسه ، واخذ موالي موسى بن نصير فوسم ايديهم وردهم الى الرق. فما كان من البربر الا ان اجتمع رايهم على قتله فثاروا به وقتلوه وولوا على انفسهم الرجل الذي كان عليهم قبل يزيد بن

---

(١) الطبري : تاريخ ١٢/٧ –١٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ١١٣/٥–١١٤ ، واليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣.

أبي مسلم وهو محمد بن يزيد وكتبوا الى الخليفة : انا لم نخلع ايدينا من طاعة ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه واعدنا عاملك. فما كان من الخليفة الا ان اجابهم بما تقضيه الحكمة : اني لم ارض بما صنع يزيد ، واعلمهم انه اقر محمد بن يزيد على عمله ، ولكنه سرعان ما تراجع عن خطوته هذه واستبدل ابن يزيد ببشر بن صفوان الذي اعتمد – الى حد ما – سياسة معاوية للبربر وواصل تعذيب آل موسى بن نصير[١].

ولا نستطيع ، بعد هذا كله ، ان نتبيّن ليزيد بن عبدالملك سياسة داخلية واضحة ، مستقلة الشخصية ثابتة الاركان بعيدة عن الاهتزازات الوقتية السريعة للافعال وردودها. وكان في علاقاته مع كتل مواطنيه ، بوجه عام ، اقرب الى سياسات الكثيرين من خلفاء بني امية ، وبخاصة المتاخرين منهم ، منها الى سياسات عمر بن عبد العزيز ، وسواء تعمد هذا ام لم يتعمده ، فان الذي حدث انه مارس الى حد كبير نقضا سيئا للاجراءات التي حققها عمر على هذا الطريق ، وانتهى الامر – كما يبدو – الى تفتت اصاب المجتمع الاسلامي ، وشروخ اخذت تزداد – فيما بعد – عمقا على الأيام.

رابعاً– وما كانت سياسات يزيد في الخارج لتقل ارتجالا وفوضى وتناقضا عما كانت عليه في الداخل .. ومشكلة الرجل ها هنا يمكن ان تتبلور بكلمة واحدة : انه لم يكن يملك استراتيجية واضحة الابعاد ازاء العالم الخارجي شعوبا وحكاما .. لا استراتيجية حرب لفتح العالم ومد رقعة الارض كما فعل اخوه الوليد ، ولاستراتيجية علاقات سلمية تعتمد قوة الفكر وعمق العقيدة لفتح قلوب الامم والشعوب للدين الجديد ومد الاسلام الى المشرق والمغرب كما فعل عمر بن عبد العزيز.

على العكس ، انه يمارس ها هنا ايضا نقضا للمكاسب الكبيرة التي حققها سلفه بسياساته السلمية المفتوحة ، فاعاد فرض الجزية على جماعات من سكان ما وراء النهر كان عمر قد اسقطها عنهم بعد ان اعلنوا اسلامهم[٢] ، واعتمد عماله هناك العنف والقسوة ازاءهم ، الامر الذي جر الى نقض اغلب ممالك المنطقة حلفها مع المسلمين مثل الصغد وفرغانة ، وكش ونسف ، بل ان كثيرا من الاهالي ارتدوا عن الاسلام الذي كانوا قد اقبلوا عليه في عهد عمر. وشغل العرب بمنازعاتهم القبلية فلم يهتموا باخماد ثورة الاهالي حتى وسموا بالجبن. واستفحلت الفتنة بحيث انه لما ارسل مسلمة من العراق عاملا اسمه سعيد سموه سعيد خذينة لضعفه ولينه ، وهزموه هزيمة منكرة. فلما تولى عمر بن هبيرة العراق عزل خذينة وارسل بدله قائدا اسمه ابن

---

(١) الطبري : تاريخ ٦١٧/٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ١٠١/٥ ، اليعقوبي : ٥٦/٣ –٥٧ ، خليفة بن خياط: تاريخ ٣٣٣/١ ، البلاذري : فتوح البلدان ، صفحة ٢٣١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٤١١/٢–٤١٢.

(٢) فلهاوزن : الدولة العربية ، صفحة ٣١٢.

عمرو الحرشي حقق عددا من الانتصارات وصالح كثيرا من بلاد ما وراء النهر الثائرة ، لكن ابن هبيرة ما لبث ان عزله في السنة الاخيرة من خلافة يزيد وتولاها مسلم بن سعيد الذي لم يفعل شيئا مما اضعف سيطرة العرب في هذه النواحي[١].

وشهدت الجبهات الخارجية : ما وراء النهر ، ارمينية واذربيجان ، البحر المتوسط ، ما وراء البرنيه .. هجمات عسكرية وحروبا ولكن الحصيلة النهائية بحساب الخسائر والارباح لم تجلب للدولة مكسبا كبيرا ، ذلك انها كانت على العموم حروبا (تكتيكية) اذا صح التعبير، لم تات بنتائج حاسمة ، ولم تستبدل خرائط الدولة باخرى جديدة كما حدث في عصر الوليد. والحروب الجانبية ، او التكتيكية ، ما لم تعمل ضمن تصور ستراتيجي واضح بعيد ، وتخدم هذا التصور ، فانها لا تاتي بشيئ ..انها اشبه بمحاولات صغيرة لا تملك ثقلا كافيا لتغييرابعاد الوقائع التاريخية وصياغة ابعاد اخرى جديدة. ولنتابع بعضا من هذه المعارك ، كما يرويها لنا المؤرخون القدامى ، لكي نتبين الحجم الحقيقي للنتائج التي تمخضت عنها.

في سنة (١٠٢هـ) عبر سعيد بن عمرو الحرشي ، والي خراسان ، النهر وغزا الصغد وكانوا – كما مر بنا – قد نقضوا العهد وارتدوا واعانوا الترك الوثنيين على المسلمين، فسالوه الصلح على ان يرجعوا الى بلادهم ويؤدوا الجزية. لكن سعيدا اصر على قتالهم فهزمهم وحلفاءهم الاتراك وقتل منهم عددا كبيرا وسبى ذراريهم[٢]. وبعد اقل من سنتين اعاد الحرشي الكَرة وقتل عدة الاف من الصغد وغنم اموالهم وسبى ذراريهم ، ثم سار الى كش فصالحه اهلها على عشرة آلاف راس من الاغنام ، ورغم ان ملكها (سبغرى) قد حظي بالامان الا ان الحرشي ما لبث ان صلبه[٣]. وفي عام (١٠٥هـ) قام مسلم بن سعيد بغزو مناطق الترك فيما وراء النهر فلم يفتح شيئا وما لبث ان قفل عائدا ، وقام بعد قليل بغزو احدى مدائن الصغد ، وأسفر الهجوم عن مصالحة ملك المدينة واهلها[٤].

وشهدت الجبهة الشمالية في ارمينية والخزر عددا اخر من الهجمات ، كانت احداها عام (١٠٢هـ) قادها عمر بن هبيرة ، يوم كان واليا على الجزيرة ، ضد المواقع البيزنطية باتجاه ارمينية فهزمهم واسر منهم خلقا كثيرا قيل انهم بلغوا سبعمائة اسير[٥]. وفي نفس السنة قام

---

(١) ماجد : التاريخ السياسي ، ٢/ ٢٧٨ ، وانظر : الطبري : تاريخ ٦/٦٠٥-٦٠٧ وابن الاثير : الكامل ، ٩٢/٥.

(٢) الطبري : تاريخ ٦/٦١٢-٦١٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/٩٥-٩٦ ، خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٣٥-٣٣٦.

(٣) الطبري : تاريخ ٧/٧-١٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/١٠٧-١١٠.

(٤) الطبري : تاريخ ٧/٢١.

(٥) الطبري : تاريخ ٦/٦١٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/١٠١ ، واليعقوبي ، تاريخ ٣ / ٥٨.

العباس بن الوليد بهجوم ضد احد المواقع البيزنطية هناك وفتحه[١] وشهدت المنطقة بعد اقل من سنتين اعنف المعارك عندما اجتاز جيش للمسلمين بلاد الخزر من ارمينية فتصدى لهم هؤلاء في جمع كبير انضمّ اليه عدد من حلفائهم الاتراك وجرى قتال شديد استشهد فيه عدد كبير من المسلمين وسيطر العدو على معسكرهم وغنموا جميع ما فيه ، ففر المنهزمون الى الشام وتلقوا من الخليفة توبيخا وتعنيفا[٢].

وطمع الخزر وسعوا الى استغلال انتصارهم هذا فحشدوا حشودا كبيرة ، فما كان من الخليفة الا ان استعمل على ارمينية الجراح بن عبدالله الحكمي وامده بجيش كثيف وامره بغزوهم ، فتحرك الجراح على رأس قواته وانتهى به الامر الى باب الابواب فلم ير الخزر ، فدخل البلد وبث سراياه للاغارة على المناطق المجاورة ، وحينذاك تقدم اليه الخزر بقيادة ابن ملكهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الخزر وقتل عدد كبير منهم وغنمت اموالهم. وما لبث الحكمي ان هاجم (بلنجر) احد اشهر حصونهم هناك ، وتمكن من اقتحامه بعد قتال مرير ضد الخزر وغنم جميع ما فيه ، وصالحه حصن اخر : (الوبندر) على مال يؤدونه اليه ، وكان هذا الحصن يضم عددا كبير من الاتراك. وقد استفزت هذه الانتصارات سكان المنطقة فتجمعوا واخذوا الطرق على المسلمين. فكتب صاحب بلنجر ، والذي كان الجراح قد رد إليه امواله واهله وحصنه ، وجعله عينا له ، يعلمه بذلك ، فعاد مجددا ، لكن الشتاء ادركه فاوقف تحركاته وكتب الى يزيد يعلمه بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ، ويسأله المدد ، فوعده الخليفة بانفاذ مزيد من العساكر اليه ، ولكنه توفي قبل تنفيذ ذلك[٣].

وفي البحر المتوسط قام والي افريقيا ، يزيد بن ابي مسلم ، عام (١٠٢هـ)، بتوجيه احد قادته لمهاجمة صقلية ((فغنم وسلم)) ، وفي السنة التالية تعرضت سردانية هي الاخرى لهجوم شنه عليها احد رجالات بشر بن صفوان ، والي افريقيا الجديد ، فعاد هو الاخر غانما سالما.

ويبدو ان اكثر الحملات الحربية اهمية في عهد يزيد ، تلك التي قادها والياه على الاندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ) وعنبسة الكلبي (١٠٢-١٠٧هـ) في جنوب غربي فرنسا (بلاد الغال). فقد حاول السمح فتح امارة سبتمانيا (أي المدن السبع) المحاذية لحدود اسبانيا من جهة الشمال الشرقي ، وذلك لتامين حدوده الشمالية ، لا سيما وان هذه الامارة كانت جزءا من الدولة القوطية التي قضى عليها الفاتحون في اسبانيا ، فحاصر عاصمتها اربونة

---

(١) الطبري : تاريخ ٦١٦/٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ١٠١/٥.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ١١٠/٥ -١١١.

(٣) الطبري : تاريخ ١٤/٧-١٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ١١١/٥-١١٣ ، واليعقوبي ٥٦/٣-٥٨ وانظر خليفة بن الخياط : تاريخ ٣٣٦/١-٣٣٩.

واستولى عليها ، ثم اتجه شمالا نحو نهر الجارون واستولى على مدينة طولوشة (تولوز) وتوغل في دوقية اكيتانيا المجاورة ، ولكن دوقها المسمى يودو التقى به سنة (١٠٢هـ) بالقرب من تولوز حيث دارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده وانسحاب فلول جيشه بقيادة عبدالرحمن الغافقي الى مدينة اربونة التي اصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال البرتات[١].

ولقد خلف السمح والي آخر اسمه عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٢-١٠٧هـ) تابع حركة الفتح في تلك النواحي فاتم فتح اقليم سبتمانيا ثم اتجه شرقا حتى بلغ نهر الرون وفتح اقليم بروفانس في الجنوب ثم صعد مع النهر شمالا حتى بلغ مدينة ليون واحتلها ثم توغل في الاقليم المعروف باسم برغونة (برجانديا) حتى بلغ مدينة اوتون في اعالي الرون ، ولكن اهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعته وانتهى الامر باستشهاده هو الاخر سنة (١٠٧هـ)[٢]. وقد جاءت اغلب انتصارات عنبسة في فرنسا بعد وفاة يزيد ، في عهد هشام بن عبدالملك. كما انه يمكن التخمين بان محاولات كل من الرجلين ، السمح وعنبسة ، جاءت بعيدا عن الاشراف والاوامر المباشرة للخليفة الاموي البعيد في دمشق ، لا سيما وان الاندلس كانت قد اصبحت يومذاك ولاية شبه مستقلة ، فما شهدته هذه الجبهة من هزائم وانتصارات لا يمكن ان نربطه مباشرة بسياسات يزيد وخططه الحربية ، على خلاف ماكان عليه الحال في ارمينية على وجه الخصوص.

خامساً- وفي ميدان التنظيم الاداري والاقتصادي نلمح الشيء نفسه .. الفوضى والارتجال ، وفقدان الستراتيجية ، فها هنا - ايضا - نجد نقيض ما خبرناه في عصر عمر بن عبد العزيز.

كانت الادارة في عهد عمر أداة لتنفيذ البرنامج العقائدي للدولة ، ومن ثم فانه ما ان تسلم الحكم حتى قام بسلسلة شاملة من التغييرات لجعل هذه الادارة قديرة على اداء دورها ذاك، فصفى معظم الكوادر الادارية القديمة واحل - بدلا منها - عناصر جديدة ممن تقدر على تحمل المسؤولية ومواصلة الطريق حتى نهايته ، واكد على فكرة التجانس الوظيفي من اجل ان يكون كافة موظفي الدولة مؤمنين بالبرامج الجديدة قديرين على هضمها وتنفيذها ، بغض النظر عن انتماءتهم القبلية والسياسية او المذهبية ، وفتح الطريق واسعا امام الناس للوصول الى اعلى سلطة في الدولة لعرض مشاكلهم وظلاماتهم من اجل السعي لحلها. ووضع كافة موظفيه تحت رقابة مركزية دائمة لكيلا يشذوا او ينحرف بهم طريق ، واكد عليهم مرارا ان الادارة الناجحة هي

---

(١) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ، صفحة ٢٩٣ (دار النهضة ، بيروت-١٩٧١) ، وانظر كذلك ، المقري : نفح الطيب ١٣٨/٢ ، تحقيق : احمد فريد رفاعي (القاهرة-١٩٢٦).

(٢) العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ، صفحة ٢٩٣ ، المقري : نفح الطيب ١٣٨/٢، ابن عذارى : البيان المغرب ، صفحة ٢٧ ، تحقيق : ليفي بروفنسال (ليدن ١٩٤٨-١٩٥١).

تلك التي تعرف كيف تربط الفكر بالعمل ، وتحيل النظريات الى وقائع تحيا وتتنفس .. ودفعهم الى بذل طاقاتهم كافة من اجل جعل صيغ الحياة في الدولة الاموية تتلاءم وتنسجم مع اطروحات كتاب الله (سبحانه تعالى) وسنة نبيه (عليه السلام) .. وسد على اداريه كافة المنافذ التي قد يتسلل منها الهواء الفاسد فيدفعهم الى الاستغلال والابتزاز .. الى الاخذ بدلا من العطاء ، ودفعهم مقابل ذلك الى ان يحيلوا اجهزة الدولة الى اداة هدفها العطاء الدائم .. وكان هو نفسه اداريا من طراز اول ، تميزت شخصيته الادارية بالسمات الاساسية التي مكنته من تحقيق تلك الانجازات الكبيرة في ميدان الادارة : الايجابية الواقعية ، المرونة والذكاء[١].

أما يزيد فكان على النقيض من ذلك ، انه كما قال عنه فلهاوزن : ((لم يقدم على احداث تغيير منظم وشامل .. وكان لا يمنع ولاته اذا ما تجاوزوا ما امرهم به ، وكان ضعيفا قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم))[٢]. ويبدو ان احد رجالات بني امية البارزين وهو يزيد بن سعيد ابن عمرو قد نفذ من خلال ضعفه وغلب عليه[٣].

ولو تتبعنا الاجراءات الادارية التي اتخذها عبر سنوات حكمه الاربع فاننا سوف نجدها لا تعدو ان تكون سلسلة الاقالات والتعيينات التي لم تستهد في كثير من الاحيان ببرنامج عمل واضح او خطة ثابتة ، لان هؤلاء الاداريين – على تغييرهم – لم يفعلوا شيئا ذا بال ، حسبما يتضح من الروايات التي تقدمها المصادر ، الامر الذي جعل اجهزة الدولة الادارية تعاني من قلق مستمر وعدم استقرار ، هذا فضلا عن ان اختياره للرجال لم يتوخ دائما البحث عن الكفاءة والاخلاص ، بل كانت عوامل الاختيار غير موضوعية ، وبخاصة مسالة الانتماء القبلي ، تلعب دورها الحاسم. ومما زاد الامر سوءا ان أي موظف كبير يتم تعينه ، يبدأ مهمته باقالة كافة الموظفين السابقين الذين اعتمدهم سلفه واستبدالهم بجماعة من الانصار والمقربين بعيدا عن مشيئة الخليفة واختياره. وهنالك رواية ذات دلالة يوردها الطبري وابن الاثير وغيرهما ، تقول : لما ولي يزيد نزع ابا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة واستعمل عبدالرحمن بن الضحاك الفهري عليها ، واراد هذا معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلا حتى تقدم احد الرجال وشكى ابن حزم مدعيا انه ضربه حدين وطلب ان يقيد منه ، فلما اعلم يزيد بذلك كتب الى ابن الضحاك : اما بعد فانظر فيما ضرب ابن حزم (الرجل المذكور) ، فان كان ضربه في امر بيَن او امر يختلف فيه فلا تلتفت اليه. فارسل ابن الضحاك فاحضرابن حزم وضربه حدين في مقام

---

(١) انظر عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، (فصل الادارة والتخطيط) (الدار العلمية ، بيروت–١٩٧٠).

(٢) الدولة العربية ، صفحة ٣١٢.

(٣) اليعقوبي : تاريخ ٥٨/٣.

واحد ولم يساله عن شيئ[1]. فها هنا نجد العقاب ينفذ لغرض العقاب ، ولا شيئ وراء ذلك .. ولا محاولة جادة لتفحص البينات..

ونستطيع ان نتلمّس هذا كله بمجرد القاء نظرة على قوائم عماله على البلدان والاقاليم الرئيسية في الدولة .. في المدينة مثلا .. عزل الخليفة ابا بكر بن حزم وولاها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري سنة (١٠١هـ) ، ثم عزله وولى عبد الواحد بن عبدالله سنة (١٠٤هـ) ، وعلى اليمن اقر الخليفة عروة بن محمد ، العامل السابق ، وعلى اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي. اما في البصرة فقد ولى عبد الملك بن بشربن مروان ، ثم سعيد بن عمرو الحرشي ثم حسان بن عبد الرحمن بن مسعود الفزاري من اهل دمشق ثم فراس بن سمي الفزاري وهو زوج ام عمر بن هبيرة الفزاري والي الجزيرة. وفي الكوفة اقر يزيد عبد الحميد بن عبد الرحمن ، ثم عزله مسلمة بن عبد الملك لما ولاه يزيد بلاد العراق والمشرق بعد انتصاره على المهالبة وولاها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ، فلما حل ابن هبيرة محل مسلمة ، وهو قيسي صميم ، عزله سنة (١٠٣هـ) وولى بدلا منه الصعر بن عبد الله من مرة غطفان. اما في خراسان فقد عين سعيد بن عبد العزيز بن ابي العاص ، وكان يسمى سعيد خذينة ، وقد لقب بذلك لانه كان رجلا لينا متنعما ، وخذينة هي الدهقانة ربة البيت. وكان سعيد قد تزوج ابنة مسلمة فلهذا استعمله على خراسان. وقد بدا ولايته بان القى القبض على كافة عمال عبد الرحمن بن عبد الله الذين ولوا ايام عمر وحبسهم ، ولكنه ما لبث ان اطلقهم[2]. وقد تعرض سعيد للعزل على يد ابن هبيرة حيث ولى مكانه سعيد بن عمرو الحرشي سنة (١٠٤هـ) ، ثم عزله في العام نفسه وعين مكانه مسلم بن سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابي ، بسبب ما عرف عن الحرشي من استخفاف بابن هبيرة. وفي سجستان ولى الخليفة القعقاع بن سويد من بني منقر من اهل الكوفة فعزله ابن هبيرة وولى السيال بن المنذر بن عوف بن النعمان. وفي السند ولي هلال بن احوز من قبل مسلمة سنة (١٠٢هـ) فعزله ابن هبيرة – خليفة مسلمة في العراق والمشرق – وولاها سنة (١٠٣هـ) عبيد الله بن علي السلمي ، ثم عزله وولاها عبد الحميد بن عبد الرحمن من غطفان. وفي البحرين واليمامة عين ابراهيم بن عربي ، وفي ارمينية معلق البهراني من اهل حمص ، ثم عزله الخليفة سنة (١٠٤هـ) وولاها الجراح الحكمي. وفي الجزيرة تعاقب على الولاية عمر بن هبيرة وفايد بن محمد

---

(١) الطبري : ٦/٥٧٤-٥٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/٦٧.

(٢) الطبري : تاريخ ٦/٦٠٥-٦٠٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٥/٩٠.

الكندي والعرس بن قيس الكندي. وفي افريقيا عزل اسماعيل بن عبيد الله وعين يزيد بن ابي مسلم واعقبه بشر بن صفوان الكلبي الذي كان قبل ذاك عاملا على مصر[١].

ولا بد من الاشارة هنا الى ان اكبر رجلي ادارة في عهد يزيد كانا ولا ريب : مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة ، عاملاه على العراق والمشرق ، اما مسلمة فقد كان اخاه ، رغم انه يجب الا ننتقص من امكانات الرجل ودوره الكبير في الانتصار على ثورة المهالبة ، وفي اقرار الامور في العراق. لكن مسلمة كان رجل حرب وليس رجل ادارة ، وبعد انتصاره على ابن المهلب كان يمكن ان يفيد الخليفة منه في ساحات القتال في الداخل والخارج ، لا ان يضعه في مكان ليس مكانه الحقيقي. وهكذا يبدو ان مسلمة لم يحقق النجاح الاداري المطلوب ، ولم يدفع من خراج ولايته شيئا للحكومة المركزية[٢] ، واضطر الخليفة اخيرا الى استدعائه الى دمشق واستبداله بعمر بن هبيرة الفزاري.

وفي رواية للطبري وابن الاثير ان بعض ولد عبد الملك بن مروان كان قد تزوج بنتا للحجاج فكان ابن هبيرة يقدم لها الهدايا ويبرها ويسر عليها ، فكتبت الى ابيها تثني عليه ، فعظم شانه في الشام ، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز استعمله على الجزيرة ، وحين ولي يزيد ، ورأى ابن هبيرة تحكم المغنية حبابة به تابع هداياه اليها والى الخليفة نفسه ، فسعت له في ولاية العراق ، فولاه يزيد اياه[٣].

وهكذا كان اختيار هذين الرجلين لأخطر منصب اداري في الدولة لم يتم على ما يبدو وفق شروط الانتقاء الموضوعية التي تعامل معها عمر بصرامة والتي تتضح بمجرد الاطلاع على قوائم اداريه ، انما كانت هناك عوامل (خاصة) كان لها ثقلها في ذلك هذا فضلا عن تاثيرات السياسة القبلية التي اعتمدها يزيد.

والمهم اننا بتتبع القوائم الادارية في عهد يزيد يتبين لنا انه اتى على عمال عمر جميعا ، واليعقوبي يشير الى ذلك بوضوح بقوله ((عزل يزيد عمال عمر جميعا))[٤]. ولقد كان هذا الاجراء بحد ذاته بعيدا عن الحكمة كل البعد ، فليس المهم في ميدان الادارة هو استبدال الرجال باخرين ، وكأن هذا الاستبدال هو هدف بحد ذاته ، وانما المهم هو اعتماد اكثر الرجال صلاحية كل في المكان المناسب. ولما كان رجال عمر قد تم اختيارهم وفق اشد الصيغ الموضوعية صرامة ، ولما كانوا قد عركوا ميدان الادارة وخبروه عبر سني عملهم تحت اشراف عمر ورقابته

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخ ٣٤٠/١-٣٤٢ ، الطبري : ٦١٨/٦-٦١٩ ، ٦٢٠ ، ١٥/٧-١٧ ، ابن الاثير : الكامل ١٠١/٥-١٠٢، ١٠٣، ١٠٥ ، ١١٥-١١٦ ، ١١٩-١٢٠.

(٢) الطبري : تاريخ ٦١٥/٦-٦١٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٩٧/٥-٩٩.

(٣) الطبري : تاريخ ٦١٥/٦-٦١٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٩٧/٥-٩٩.

(٤) تاريخ ٥٤/٣.

المركزة ، ولما كان معظمهم قد عرف كيف يتطهر من كل دنس قد يشده الى اسفل ويحيل منصبه الى اداة كسب شخصي على حساب الامة والدولة على سواء، فان لنا ان نخمن حجم الخسارة التي منيت بها الادارة الاموية من جراء اقدام الخليفة الجديد على عزل جل عمال سلفه.

سادساً– والروايات عن اجراءات يزيد الاقتصادية تشح حتى تكاد تنعدم ، وليس سوى ثمة اشارات متفرقة ، ان دلت على شيئ فانما تدل على انه ها هنا ايضا ابحر ضد التيار المنظم الكبير الذي صاغه عمر وسهر عليه وبذل من اجله زهرة سني حكمه من اجل حل المشكلة الاجتماعية والمالية حلا عادلا يكفل ايجاد المجتمع المتوازن المتكافل ، كما اراد له الله ان يكون.

لقد رأينا كيف ان الرجل بدأ انقلابه الاجتماعي من مركز الثقل الحقيقي : الخليفة نفسه والحزب الاموي الحاكم والجهاز الوظيفي ، من اجل كفهم عن الاخذ ودفعهم الى التجرد والعطاء. ومضى في الجهة الاخرى ، وعلى خط مواز ، يقدم لجماهير امته اوسع الخدمات والعطاءات والضمانات الاجتماعية: تقليصا للضرائب ، واتباعا للاساليب العادلة في الجباية ، وتوسيعا عجيبا لفكرة الضمان الاجتماعي ، واعتمادا لكافة الصيغ والسياسات لتنفيذ هذه الفكرة على اوسع نطاق. كما راينا كيف انه نظم سياسات الموازنة المالية فلم تعان دولته طيلة سني حكمه عجزا ماليا من جراء الانفتاح المدهش على جماهير امته ، فكان فتح باب التجارة الحرة، والتاكيد على الزكاة ، واعتماد سياسة زراعية سليمة ، والحد من اسنزاف اموال الدولة في الصراعات الداخلية ، ووقف اعمال الابتزاز والاستغلال التي كان الموظفون يمارسونها في مختلف العهود .. كان لهذه الاجراءات وغيرها الدور الكبير في تحقيق الموازنة المالية وتمكين الدولة من المضي في تنفيذ برامجها الاجتماعية حتى نهاية الطريق[١].

ما الذي فعله يزيد في هذا المجال ؟

ليس ثمة قدر كاف من الروايات ، ولكن الاشارات القليلة ربما تمنحنا ما يلقي ضوءا على الموضوع ويوضح الاتجاه العام للسياسات الاجتماعية والمالية في عهده .. ((فمن ذلك – يقول ابن الاثير– ان محمدا ابن يوسف ، اخو الحجاج ، كان على اليمن ، فجعل عليها خراجا محددا ، فلما ولي عمر كتب الى عامله يامره بالاقتصار على العشر ونصف العشر وترك ما حدده محمد بن يوسف ، وقال : لئن ياتيني من اليمن حفنة ذرة احب الي من تقرير هذه الوضعية!! فلما ولي يزيد بعد عمر امر بردها وقال لعامله : خذها منهم ولو صاروا حرضا))[٢].

---

(١) انظر عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فصل (المال والاقتصاد).

(٢) الكامل ، ٥/٦٧–٦٨.

عمر يبعث الى عامله على اليمن ويقول له : لئن لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كتم فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق[١]. ويقول في رسالة اخرى ((فو الله لو لم ياتني من قبلك الا كفا لرأيته من الله قسما عظيما))[٢]. ويزيد بن عبد الملك ينادي عامله هناك ((خذها منهم ولو صاروا حرضا)) !!

فها هنا نجد (التضاد) الكامل في السياسة الاقتصادية بين رجل يريد ان يجعل دولته دولة خدمات وضمان اجتماعي وبين رجل يريد ان يجعلها دولة اخذ واحتراف سياسي ، ولو جاء هذا على حساب الفلاحين الذين يشكلون عمود الامة الانتاجي ومصدر رزقها وبركتها .. وانتهى اخيرا الى نتيجة معاكسة تماما لما كان يزيد يريده : وهو تنمية مالية للدولة !!

وثمة رواية اخرى في نفس الاتجاه .. رسالة بعث بها يزيد الى عمر ابن هبيرة عامله على العراق يامره ان يمسح السواد فمسحه سنة (١٠٥هـ) وزاد الضرائب على النخل والشجر، والحق اضرارا بالمزارعين ، واعاد اعمال السخرة التي اوقفها عمر بن عبدالعزيز، كما احيا تقاليد تقديم الهدايا وضرائب النيروز والمهرجان التي الغاها عمر[٣].

هذا في العراق ، واما في المغرب فقد اعاد واليه يزيد بن ابي مسلم العمل مع البربر بسياسات الحجاج المالية التي تقضي بوقف هجرة المزارعين ممن اسلموا حديثا الى المد ، وارغامهم الى العودة الى مزارعهم وفرض الجزية عليهم رغم اعتناقهم الدين الجديد الامر الذي انتهى – كما رأينا – بثورتهم عليه وقتلهم اياه[٤].

واذ كان عمر بن عبد العزيز يفرض على نفسه وموظفيه تقشفا صارما في التعامل مع أموال الدولة العامة كيلا تنفق في غير اماكنها الحقيقية ويكتب الى عامله على المدينة يؤنبه على اسرافه في استخدام الورق والشمع ، ويتهكم به ، وقد طلب الاخير مخصصاته من الورق والشمع قائلا : ((لعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح))[٥] ، ويكتب الى عامله على اليمن ، وقد ابلغه انه ضيع دنانيرمن دخل اليمن : ((.. اني لست اتهم دينك ، ولكني اتهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين في ما لهم))[٦] ، واذ يرفض عمر بن عبدالعزيز استلام سلة من تمر اهديت اليه لانها نقلت على دواب البريد ، ويطفئ الشمعة وهو يقرأ رسالة شخصية خاصة به ، لانه لا يريد استغلال اموال

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، صفحة ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ، صفحة ٦٥-٦٦.

(٣) اليعقوبي : تاريخ ٥٧/٣.

(٤) الطبري : تاريخ ٦١٧/٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ١٠١/٥.

(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، صفحة ٦٤-٦٥.

(٦) المصدر السابق ، صفحة ٦٩.

الدولة .. اذ كان عمر يمارس هذا وذاك وغيره كثير مما وقفنا عنده طويلا في كتاب (الملامح)، نجد يزيد بن عبدالملك لا يتردد في دفع ثلاثة الاف دينار – على سبيل المثال – ثمنا لجارية اعجب بها ، ويبعث[1] الى عامله على مكة ان يدفع لاحد المغنين الف دينار نفقة لطريقه ((ويحمله على ما شاء من دواب البريد)) !! لانه احب ان يستمع الى ابيات من الشعر كان الرجل قد لحنها[2].

وفي مقابل هذا كله ، لا نجد في عهد يزيد أي اهتمام جاد بمسالة توزيع الثروة وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي التي قطع فيها عمر خطوات واسعة ، كما لا نجد اهتماما كافيا بمسالة الاعمار والاصلاح الاقتصادي التي هي قاعدة كل جباية .. واغلب الظن ان طرائق الاثراء غير المشروع لافراد الحزب الحاكم وكبار موظفي الدولة قد عاد سيرته الاولى ، هذا فضلا عن ان اعتماد السلاح لمجابهة حركات المعارضة في الداخل استنزف ولا ريب الشيئ الكثير من امكانات الدولة المالية.

وخلاصة الامر ان يزيد ، ها هنا ، كما في القطاعات الاخرى ، كان يفتقد الرؤية الواضحة والستراتيجية المرسومة والالتزام الجاد ، ومن ثم فلا نتوقع منه ان يواصل الطريق الذي شقه عمر بن عبد العزيز .. على العكس ، فان فوضى كهذه تحكم السياسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، لا بد وان تقود الى تدمير نسبي او شامل للكثير من انجازات عمر سواء تعمد الخليفة الجديد ذلك ام لم يتعمده ، فالنقد التاريخي ينصب على ما يقع فعلا ويتشكل في الزمان والمكان ، لا إلى ما يدور في النيات ..

ومن خلال هذه الفوضى والاضطراب اللذين اخذت الدولة تعاني منهما في سياساتها تلك، نشطت الدعوة العباسية السرية وانتشرت خلاياها في الاقاليم البعيدة ، وليس كما يظن بعض المؤرخين المعاصرين من ان سماحة عمر هي التي فتحت الطريق امام دعاة بني العباس .. وذلك انه ما لم توجد خميرة الثورة وتتجمع اسبابها الحقيقية فليس بمقدور قوة في الارض ان تسوقها الى النمو والنجاح.

يقول الدينوري : ان دعاة العباسيين كانوا يسيرون في ارض خراسان منذ سنة (١٠١هـ) في عهد يزيد ويدعون الناس الى بيعة محمد بن علي العباسي ويزهدونهم في سلطان بني امية لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، فاستجاب لهم بخراسان اناس كثير ، وفشا بعض امرهم فبلغ سعيدا واليها فأرسل إليهم وسالهم : من انتم ؟ قالوا : قوم من التجار قال : فما هذا الذي يذكر عنكم ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : اخبرنا انكم جئتم دعاة لبني العباس. اجابوا : ايها الامير ان لنا

---

(١) المسعودي : مروج ١٩٦/٣–١٩٧.

(٢) المصدر السابق ، ١٩٧/٣ –١٩٨.

في انفسنا وتجارتنا شغل عن مثل هذا ، فاطلقهم. فخرجوا من عنده يدورون كور خراسان ورساتيقها في عداد التجار فيدعون الناس الى الامام محمد بن علي ، فمكثوا على ذلك عامين. ثم قدموا على الامام بارض الشام فاخبروه بانهم قد غرسوا بخراسان غرسا يرجون ان يثمر في اوانه. ويتحدث الدينوري بعد ذلك عن اتساع نشاط الدعوة في العراق وخراسان طيلة السنين التالية في عهد يزيد واخيه هشام الذي اعقبه حيث صلب اثنين من كبار الدعاة في خراسان[١].

سابعاً- ولا نتوقع ان تسود سياسات الدولة ومؤسساتها تقاليد وممارسات ثقافية ايجابية كما كان الحال في عهد عمر بن عبد العزيز ، ذلك المثقف الجاد والعالم المثابر والمربي الذكي .. الخليفة الذي لقب بمعلم العلماء[٢] ، والذي قال فيه مجاهد : ((آتينا لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه))[٣] ، والذي ((كانت العلماء معه تلامذة !!)) ، والذي قال فيه احد عماله : ((ما التمسنا علم شيئ الا وجدنا عمر اعلم الناس باصله وفرعه))[٤] .. واما على مستوى التجربة الروحية والالتزام الفكري العقائدي فلا يتسع المجال ها هنا حتى لمجرد الاشارة المقتضبة اليه[٥].

ونتذكر ونحن نتحدث عن تأثير التقاليد الثقافية – التربوية للحكام ، رواية الطبري التي يقول فيها ((كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فانما يسال بعضهم بعضا عن البناء والمصانع. فولي سليمان بن عبدالملك فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسال بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر؟))[٦].

أما يزيد فقد غرق حتى شحمة اذنيه في حب الغناء وعشق المغنيات .. لم يكن يملك ابعد من ذلك ايما رؤية ثقافية او تربوية .. لم يعرف عنه انه تحرك يوما صوب آفاق تند عن حدود الطرب واللهو والشرب والهيام .. ليس ثمة لقاءات فكرية او ندوات علمية او حوارعقيدي .. لم نعثر له على رسالة واحدة يوجه فيها عماله وموظفيه وابناء امته الى هذا الهدف الفكري او التربوي .. او ذاك .. والنتيجة المحتومة ان تصاب اجهزة الدولة ومؤسساتها بشلل كبير يعيقها عن آداء أية مهمة ثقافية او تربوية .. وان تنتشر – في مقابل ذلك – تقاليد اللهو والترف والعبث .. على الاقل على مستوى الطبقة الحاكمة .. لان الامم والشعوب كثيرا ما تجد نفسها محصنة

---

(١) الدينوري : الاخبار الطوال ، صفحة ٣٣٤ ، وانظر: اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢٧١/٥.

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، صفحة ١٠٦.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٤/٩.

(٥) يمكن للقارئ ان يرجع الى كتاب (ملامح الانقلاب ...) للاطلاع على مزيد من التفاصيل.

(٦) تاريخ ٤٩٧/٦.

بالعقيدة التي تنتمي اليها ضد تيارات الهدم والفساد .. ولكن الثغرات لابد وان تنفتح يوما في جسدها لكي يتسرب الهواء الفاسد .. والمسألة مسألة زمن فحسب.

ومن خلال شهادات عدد من المؤرخين نستطيع ان نضع ايدينا على جوانب من الصورة التي كان يزيد يتشكل بها ..

كان الغالب على يزيد حب جارية يقال لها (سلامة القس) وكانت لسهيل بن عبدالرحمن الزهري فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار فاعجب بها وغلبت على امره فاحتالت ام سعيد العثمانية، في شراء جارية يقال لها حبابة ، قد كان في نفس يزيد – قديما – فيها شيئ ، فغلبت عليه ووهبت سلامة لام سعيد. وكان هشام ينتقص يزيدا ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه بالقينات ، واما اخوه الاخر مسلمة فقد عزله بسبب ما عم الناس من الظلم والجور باحتجابه واقباله على الشرب واللهو ، وقال له : انما مات عمر امس وقد كان له من عدله ما قد علمت فينبغي ان تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو فقد اقتدى بك عمالك في سائر افعالك وسيرتك. فارتدع عما كان عليه واظهر الاقلاع والندم واقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حبابة فبعثت الى الاحوص الشاعر ومعبد المغني تقول : انظرا ما انتما صانعان. فقال الاحوص بعض ابيات له وغناها معبد واخذتها حبابة. فلما دخل عليها يزيد قالت : يا امير المؤمنين اسمع مني صوتا واحدا ثم افعل ما بدا لك ، وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشقاق وفندا

وعاد بعد ذلك الى لهوه وقصفه ورفض ما كان عليه[1].

وذكر يزيد يوما ابياتا لشاعر قديم جاء فيها :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم اخوان

فقال لحبابة : غنني به بحياتي !! فقالت : يا امير المؤمنين هذا شعر لا اعرف احدا يغني به الا (الاحول المكي). فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك قالت : انما اخذه عن فلان ابن ابي لهب وكان حسن الاداء. فوجه يزيد الى صاحب مكة : اذا اتاك كتابي هذا فادفع الى فلان بن ابي لهب الف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دواب

---

(١) المسعودي : مروج ٣/١٩٦-١٩٧ ، ٢٠٢ ، وانظر : الطبري : تاريخ ٧/٢٢-٢٤ وابن الاثير : الكامل ٥/١٢١-١٢٢.

البريد. فلما قدم عليه غناه فاجاد واحسن ، وقال : اعده ، فاعاده واجاد واحسن واطرب يزيدا .. فوصله وكساه ورده الى بلده مكرما[1].

قال يوما وقد طرب وعنده حبابة وسلامة القس : دعوني اطير !! قالت حبابة : على من تدع الامة ؟ قال عليك !!

وغنته يوما :

بـــين التراقـــي واللهـــاة حـــرارة مـــا تطمـــئن ولا تســـوغ فتبـــرد

فأهوى ليطير !! فقالت : يا امير المؤمنين ان لنا فيك حاجة ، فقال : والله لاطيرن ، فقالت : على من تخلف الامة والملك ؟ قال: عليك والله. وقبل يدها. فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما اسخفك !!

وخرجت معه الى ناحية الاردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكي. فقيل له ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجل عن ذلك ، فاذن بدفنها مكرها وخرج لتشييع جنازتها ومعه اخوه مسلمة يسليه ويعزيه فلم يجبه يزيد بكلمة ، ولشدة جزعه لم يطق الركوب ، وخانته قدماه فعجز عن المشي وقفل عائدا قبل استكمال مراسم التشييع ، ولربما اقنعه مسلمة بذلك لئلا يرى الناس منه مايعيبونه عليه. وعاد الى قصره كئيبا حزينا. وسمع جارية لها تتمثل بعدها :

كفى حزنا بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعدها اسابيع قليلة لا يظهر للناس ، اشار عليه مسلمة بذلك وخاف ان يظهر منه ما يسفهه عندهم ، وما لبث ان توفي[2]. ويشير ابن الاثير الى انه كان مريضا بالسل[3] ، ويبدو ان انغماره بالملذات استنزفه استنزافا ، فجاء جزعه العنيف على حبابة فقضى عليه.

---

(١) المسعودي : مروج ٣/١٩٧-١٩٨.

(٢) الطبري : تاريخ ٧/٢٢- ٢٤ وابن الاثير : الكامل ٥/١٢٠ ، ١٢١-١٢٢ ، المسعودي : مروج ٣/١٩٨-١٩٩. وثمة الكثير من التفاصيل عن هذا الجانب من حياة يزيد يمكن ان يجدها القارئ في كتاب (الاغاني) لابي الفرج الاصفهاني في اكثر من موضع من الجزء الثالث عشر.

(٣) الكامل ٥/١٢٠.

ويبدو ان يزيدا عرف عنه تبذله وميله الى اللهو قبل خلافته لان عمر لم يكن يرغب في توليته عهده ، وكانت الخوارج تحرضه على عزله[١]. وقد رأينا كيف قام بمحاولة جادة لتنحيته عن ولاية العهد وانه ربما يكون قد ذهب ضحية محاولته تلك[٢].

وينقل ماجد[٣] عن المؤرخ الفرنسي Denys de Teell[٤] قوله : ان يزيدا ظهرت له تصرفات غريبة اخذها عليه المؤرخون مثل امره بقتل كل ما هو ابيض من كلاب وحمام وديوك ورجال شقر ، وقطع ذراع السارق وليس يده .. واغلب الظن ان اشارة المؤرخ المذكور تتضمن قدرا كبيرا من المبالغة ، وان كانت تستمد مقولاتها من تهافت شخصية يزيد وضعفها وجنوحها العاطفي الذي يبدو بالنسبة للرجل ، اذا استخدمنا مصطلحات علم النفس ، تسلطا قهريا او وسواسا مرضيا ..

إن أحد الخطوط الفاصلة في تكوين شخصيتي عمر بن عبد العزيز وخلفه يزيد بن عبد الملك ، ان الاول كان يتميز بما يمكن تسميته (الحضور التاريخي) الذي ينبثق عن قوة الشخصية وحرصها العميق ، وعن وضوح الرؤية العقائدية والتزامها ، ومن ثم نجد شخصية كهذه تتواجد في قلب الواقعة التاريخية بكثافة مدهشة ، وتمتد ارادتها ورؤيتها باختزال زمني فذ الى امداء التاريخ : مكانه وزمانه.

ما من صغيرة وكبيرة الا والخليفة يشاهدها ويدلي فيها بدلوه ، ما من خط او مساحة في تكوين العصر وصيرورته الدائمة الا وبصمات الرجل مطبوعة عليها .. انه – اذا استخدمنا تعبير احد الشعراء المعاصرين – الكف التي تقف بمواجهة العصر.

على مدى السنتين والنصف التي ساس فيها عمر دولته الكبيرة كان (حاضرا) في كل واقعة وكل حدث .. وقبل هذا وذاك ، كان قد فرض حضوره العفوي المحبوب المنبثق عن تجرده والتزامه وحرصه وعمق رؤيته وشفافيتها ، في قلب كل مسلم لا بل في قلب كل مواطن ايا كان دينه ، لا بل في قلوب اعدائه ومعارضيه في الداخل والخارج حكاما في السلطة وناسا عاديين في الشوارع والازقة والحارات .. ما غاب عمر يوما – وهو يصل ليله بنهاره عملا وكدحا ، ويتخلى عن الملذات المباحة والحاجات الضرورية لتأدية المهمة بامانة – ما غاب عن وعي المواطنين ولا عن حبكة الفعل التاريخي لحمة وسدى ، ومكوكه يروح ويجيئ لكي ينسج مساحة العصر الذي اراد له عمر ان يكون عصرا اسلاميا بمعنى الكلمة.

---

(١) ماجد : التاريخ السياسي ، ٢/٢٧١.

(٢) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب ، صفحة ٩٦-٩٧ ، ١٩٦-١٩٧.

(٣) التاريخ السياسي ، ٢/٢٧٢.

(٤) ٩٩ : ١٧، ١٨.

ومسألة الحديث عن الحضور التاريخي هذه تقودنا بالضرورة الى مسألة الدكتاتورية ، ان الدكتاتور ، ذلك الطاغوت الذي لا يعرف الا نفسه ، ولا يتحرك الا في اطار ذاته ، يريد ان يمارس هو الاخر نوعا من الحضور التاريخي في قلوب مواطنيه ووعيهم ، وفي امداء الحركة التاريخية ، لكنه يفتقد قوة الشخصية الحقيقية وعفويتها وحرصها ورؤيتها العقائدية الموضوعية وتفانيها ، وعشقها للحق والخير والجمال ، ولا ينطلق الا من زاوية ذاته المتضخمة مرضيا كالسرطان ، بتشنج بالغ متوتر ، وانانية مشبوبة ، وكراهية متأصلة للحق والخير والجمال ، لا يستطيع بحال ان يحل المعادلة المطلوبة ، فيلجأ الى العنف والقسر. واذا كان له ان يحضر على مستوى الفعل التاريخي الخارجي ويتحرك على سطح المكان والزمان ، فانه في اعماق الناس ، في مدى وعيهم وعواطفهم ووجدانهم ، غائب ، بل مرفوض .. وكلما ازداد احساسه بهذا التباعد ، هذا الانفصام ، هذا الغياب العميق عن قلوب مواطنيه ، ازداد قهرا وتسلطا.

ولكن من قال : ان بمقدور قوة في العالم ان تفرض محبتها وحضورها في دائرة الوعي والوجدان اللذين لا يعرف تشكلهما وصيرورتهما الا الله (سبحانه وتعالى) ؟ ان الحضور التاريخي للزعيم الناجح انما هو حضور حقيقي ، متدفق عفوي عميق .. وحضور الدكتاتور حضور مزيف ، متقطع متشنج ، يغطي السطح ، نعم ، لكنه لا ينفذ الى الاعماق .. الاعماق التي يتشكل في مجاريها البعيدة ، المعقدة ، المتشابكة ، فعل التاريخ وتمخضه الدائم.

ومأساة يزيد بن عبد الملك انه لم يكن هذا ولا ذاك .. لم يستطع ان يفرض حضوره التاريخي طيلة السنوات الاربع التي تربع فيها على عرش دولة عظيمة تمتد من حدود الصين الى جبال البيرنيه .. لا زعيما معشوقا ولا دكتاتورا مرهوبا ، ورغم انه كان فخورا متكبرا ، كما يصفه المسعودي ، فانه ما كان يملك شخصية قوية يمارس من خلالها الحضور سواء في شكله الصحي ام المرضي .. وزاد من عمق هذه المأساة انه جاء في اعقاب عمر ابن عبد العزيز مباشرة : واحد من اكثر زعماء التاريخ نجاحا في ملحمة الحضور التاريخي هذه .. فكأن الاسود يقف الى جوار الابيض والظل قريبا من النور ، فيزداد عتمة واظلاما ..

لقد حدثت تغييرات ادارية واسعة النطاق في مناصب دولته العليا ، ودارت معارك وشنت حملات ، ولم يكن من وراء هذا التغيير رؤية واضحة ولاهدف مرسوم ، بل لم يكن من ورائه أي حضور لشخصية الخليفة القابع في دمشق ، ينساق حينا وراء ضعفه فيذوب وجدا عند قدمي سلامة او حبابة وهما تغنيان (ما العيش الا ما تلذ وتشتهي) ، ويبلغ به الامر ان يقول لاحداهن يوما : اريد ان اطير !!

ويتمنى – حينا اخر – ان يرجع الى الصواب ، ان يمتلك زمام نفسه لكي يكون اكثر وعياً وحضورا فيما يجري على ساحة دولته الواسعة ، بل انه كان يتشبه احيانا – كما رأينا – بعمر ، وهو حديث عهد به ويعرف ما الذي حققته شخصيته من انجازات وانتصارات .. ولكنه

بتركيبه الخاص ، بنسيج شخصيته الهش الناعم ، بازدواج هذه الشخصية .. بالتسلط القهري لمتطلبات عواطفه الجانحة ، غير المتوازنة ، ما كان قادر على ان يساوي شخصية كشخصية عمر بن عبد العزيز ، بل ان يبلغ كعبها ..

ان طبيعته – كما يقول فلهاوزن – ((كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ، ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في التحرر من الاثم كما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الاستقراطيين وهو قد كان نبيلا فارسا وفتى سيدا اكثر منه حاكما ، فترك الولايات لامرائها ولم يهب وقته لامور الدولة بل للهوى والغناء والشراب ...))[1].

(١) الدولة العربية ، صفحة ٣١٢-٣١٣.

ملاحظات

في مصادر الطبري

عن صدر الدولة العباسية

ملاحظات عامة

يطلق على كتاب الطبري[١] اسم (تاريخ الامم والملوك)[٢] او (تاريخ الرسل والانبياء والملوك والخلفاء)[٣] وفي هذا الاطار الذي يدل عليه كلا العنوانين وضع الطبري مؤلفه الضخم عن التاريخ مبتدأ بالفترة التاريخية الطويلة المدى التي سبقت ظهور الاسلام ، حيث نجد الطبري – بتناوله هذه الفترة – يعبر عن فكرة عالمية التاريخ ووحدته متمثلة بتوالي الرسالات ، ويعزز هذا ، العنوان الثاني لكتابه كما اورده ياقوت. وعندما ينتقل الطبري الى الفترة التي اعقبت ظهور الاسلام يحصر نطاق همّه في الامة الاسلامية حيث يعبر عن اهمية خبراتها واتصالها عبر التاريخ[٤] وقد تناول في هذا القسم حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واخباره وغزواته ، ثم استعرض تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم والصراع بين علي ومعاويه ، والدولة الاموية ثم الدولة العباسية حتى عام (٣٠٢هـ) حيث ينتهي تاريخه.

اتبع الطبري في كتابه هذا نظام الحوليات ، أي تنظيم الحوادث على السنين ، فيما عدا الفترة التي سبقت الاسلام فانه عرض حوادثها في استطراد عام بسبب صعوبة تقسيمها على السنين لعدم وجود تقويم عالمي ثابت يؤرخ بموجبه للامم والدول وتوالي الحكام والاحداث. وقد اعتمد في تسلسله هناك على توالي الانبياء ، ثم الملوك الذين عاصروهم وما كان في عهدهم من احداث ، ثم استعرض الامم التي اعقبت الانبياء في الفترة التي تفصل بين عيسى عليه السلام ومحمد (صلى الله عليه وسلم). اما في القسم الخاص بالتاريخ الاسلامي فقد راعى ترتيب الحوادث ترتيباً حولياً ابتداء من سنة (١هـ) حتى سنة (٣٠٢هـ) ، حيث ذكر في كل سنة ما وقع فيها من حوادث مهمة ، واذا كانت الحادثة الواحدة تستغرق سنوات جزأها او اشار اليها بالتفصيل

---

(١) تعد طبعة ليدن لكتاب الطبري الطبعة المعتمدة الاولى التي بدأت عام (١٨٧٩) ، وأعقبتها طبعة (المطبعة الحسينية) بمصر حيث اخرج الكتاب عام (١٩٢٠) في احد عشر جزءاً الحق بها جزءان احدهما (صلة تاريخ الطبري) لسعيد بن عريب وثانيهما (المنتخب من كتاب المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين) تأليف الطبري نفسه ، وهو عبارة عن مجموعة تراجم لمشاهير الصحابة والتابعين ، يلتزم الطبري في عرضها بالنظام الحولي – ايضاً – حيث يصنف الوفيات على السنوات المتتالية ، كما انه يؤكد في هذا المؤلف على الاسناد بشكل واضح. وتلت (الحسينية) طبعة (دار الاستقامة) بمصر سنة (١٩٣٩) وفيها الكثير من الاخطاء. اما طبعة دار المعارف بمصر والتي قام بتحقيقها ابو الفضل ابراهيم فهي اكثر طبعات الطبري دقة واتقاناً. (وقد اعتمدت في هذا البحث على طبعة الحسينية).

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٦٣/٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ، صفحة ٢٩٧.

(٣) ياقوت : معجم الادباء ، ٦٨/١٨.

(٤) انظر عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، صفحة ٥٥.

فـي موضـعها الملائـم[1] وطريقـة الحوليـات هـذه مـن معطيـات الفكـر الاسـلامي ، وهـي توقيت الاحداث بالسنين والشهور والايام ((فالتوقيت على هذا النحو لم يعرف في اوربا قبل عام ١٥٩٧ م)) كما قال المؤرخ الانكليزي بسكل[2].

ولم يكن الطبري اول من جاء بهذه الطريقة ، اذ سبقه اليها بعض مؤرخي المسلمين واخباريهم مثل الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) صاحب كتاب (التاريخ على السنين) والواقدي (ت ٢٠٧هـ) مؤلف (كتاب التاريخ الكبير) على نظام السنوات. وقد سار بعد الطبري على طريقة الحوليات مجموعة من كبار المؤرخين مثل مسكويه وابن الاثير وابي الفدا ... الخ بينما خالفه مؤرخـون اخـرون كـاليعقوبي والـدينوري والمسـعودي وابـن خلـدون ، اذ سـاروا علـى الطريقـة (الموضوعية) أي كتابة الحادثة متكاملة وان استغرقت سنوات. ولا ريب ان لكل من الطريقتين مزاياها وعيوبها ؛ فالتاريخ على الحوليات يتخذ من السنين وتسلسلها الزمني عمودا فقريا يبني عليه مادته مما يؤدي الى وضوح التطور الزمني للاحداث في ذهن القارئ ، ولكنه يؤدي – من جهة اخرى – الى تقطيع الحادثة الواحدة التي استغرقت اكثر من سنة والى تفريقها على عدة سنوات (وحدات) ، كما سنرى مثلا عند بحث الطبري عن بناء مدينة بغداد (المدورة). اما الطريقة الثانية للتنسيق فانها تحافظ على الوحدة الموضوعية للحدث التاريخي وتوضيح ارتباط اسبابه بنتائجه ، وتظهره للقارئ كوحدة متماسكة واضحة الابعاد الا انها من جهة اخرى لا توضح معالم التسلسل الزمني الذي هو اساسي للبحث التاريخي كذلك.

أما الأخبار التي لا ترتبط بزمن معين كالسير مثلا ، فقد كان الطبري يختم بها الحديث عن كل خليفة. فبعد ان يذكر الاحداث في عهده مرتبة على السنين ، يختتمها باستعراض سيرته دون التقيد بعامل الزمن. وسوف نرى – في نطاق بحثنا عن العصر العباسي الاول – كيف كان الطبري يسهب في هذه الناحية ويخصص الصفحات الطوال لذكر سير الخلفاء، ويعتمد على عدد كبير من الرواة في هذا الباب.

يكثر الطبري في تاريخه من تسجيل النصوص التاريخية من شعر وخطابة ورسائل ومحاورات في مناسباتها التاريخية ، وهو في هذا يحاكي سابقيه من الادباء والمؤرخين. ذلك ان رواة الاخبار القدماء كانوا يحرصون على تدوين الشعر المتصل بالموضوع الذي يؤرخونه كلفا بالشعر من جهة ، ورغبة في توثيق الحادث او الخبر والتشويق من جهة اخرى. وكان رواة

---

(١) جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٧٣/١.

(٢) عبد الحميد العبادي : علم التاريخ عند العرب ، صفحة ٦٧ (فصل ملحق بكتاب علم التاريخ لهيرنشو، والذي ترجمه العبادي).

الادب يعتمدون على التاريخ في تفسير وتحليل كثير من القصائد ، ومن هنا امتزج الادب بالتاريخ وصار من المالوف ان يكون المؤرخ راوية للادب وان يكون راوية الادب مؤرخاً[1].

ويسير الطبري في نقده على طريق المحدثين فيصب تمحيصه وتاكيده على الاسناد أي سلسلة الرواة ، ويقول في مقدمة تاريخه : ((وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه والاثار التي انا مسندها الى رواتها فيه دون ما ادرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس .. الا القليل اليسير منه. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه او يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما اتي من قبل بعض ناقليه الينا ، وانا انما ادينا ذلك على نحو ما أُدي الينا)) وهكذا نجد الطبري لايوجه اهتمامه لنقد المتن ، أي للنقد الداخلي للرواية انما للنقد الخارجي أي الرواة. وقد ادى هذا الاتجاه الى ايراده عدة روايات عن الحادث الواحد ونتج عنه عدم اعطاء صورة متسلسلة للاحداث ، كما نجد في بعض الكتب التاريخية الاخرى كاليعقوبي الذي يكتفي بذكر مصادره في مقدمة كتابه فحسب ، ثم يورد الاحداث متسلسلة دون ان يضطر الى ايراد عدة روايات عن الحدث الواحد.ان قيمة الروايات في نظر الطبري – كما يقول الدوري – تعتمد على اسانيدها وكلما كان بدء السند اقرب الى الحادثة كان افضل. وهكذا وصلتنا عن طريقه كتابات وروايات تاريخية مبكرة لم تحفظ الا في تاريخه والروايات قد تتاثر بعوامل مختلفة مثل الذاكرة والميول والرغبات وغير ذلك ، ولا يمكن الجزم بدقتها وسلامتها بصورة قاطعة ، حتى بعد نقدها وتمحيصها ، وهذا ما يجعل (الرأي) او الحكم الفردي غيرمامون وقد يكون مربكاً ، لذا فيكفي نقل الروايات ممن يؤتى بهم من الرواة والمؤرخين والعهدة في صحتها عليهم[2] واذا ما نقل الطبري من كتاب فانه يذكر اسم مؤلفه مثل : قال ابن الكلبي ، او قال محمد بن اسحق او ذكر الواحدي ، وقلما كان يذكر اسم الكتاب. واذا ما سمع من لسان ما مشافهة قال : حدثني فلان ، فاذا اشترك معه في السماع آخرون قال: حدثنا فلان وسلسل السند الى مصدره الاصلي. وكان يعتمد احيانا على المراسلات فيقول مثلا : كتب الي السديّ عن فلان عن فلان ... الخ. وقد حرص الطبري دائما على السند والرواية المتصلة الا في بعض مواضع يظهر انه اعتمد فيها على النقل عن الكتب او الاجازة منها ، فاهمل اسم المحدث كقوله: حدثت عن فلان ، او ذكر عن فلان انه قال. ونجد في الاجزاء الاخيرة من الكتاب صيغا تدل على التساهل في السند كقوله : ذكر لي بعض اصحابي ، وذكر لي جماعة من اصحابنا او

---

(١) انظر: جواد علي ، المصدر السابق ١٤٩/١.

(٢) عبد العزيز الدوري : نشاة علم التاريخ عند العرب ، صفحة ٥٥-٥٦.

حدثني جماعة من اهل كذا. وربما كان مبعث التساهل هنا خوفه على محدثيه الاحياء من غضب الساسة لان في رواياتهم ما يعرض لغضب السلطان. على ان السند يقل في الاجزاء الاخيرة من الكتاب حتى لينـدر في صفحات متواليات ، ربما لان الطبري اعتمد فيها على معلوماته الشخصية.

كان الطبري يضع عناوين لاحداثه وخاصة المهمة منها ، اما الاحداث الصغيرة التي لا تتجاوز بضعة اسطر فانه يذكرها متعاقبة دونما عناوين ، في بداية كلامه عن بدء كل سنة تحت عنوان عام هو (ذكر الخبر عما كان فيها من احداث) او (ذكر الاحداث التي كانت فيها). وهو يقدم عناوينه عادة بمقدمة عن الحادث المعين مؤكدا على كلمة : سبب. مثل (ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة : ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث ، فما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيى واتباعه من البرامكة : ذكر الخبر عن سبب قتله اياه وكيف كان قتله وما فعل به وباهل بيته) وفي احيان اخرى يورد الطبري الخبر مستقلا مثل (ذكر الخبر عن كذا).

مواردُ الطبري عن صدر الدولة العباسية :

جاء الطبري بمادته التاريخية عن صدر الدولة العباسية من مصادر وموارد متعددة يمكن تقسيمها – بصورة عامة – الى قسمين احدهما مصادر شخصية كالرواة والاخباريين والمؤرخين وشهود العيان ، والاخر مصادر مكتوبة كالمؤلفات والوثائق والشعر. واهم ما يجب ان نلاحظه على هذه الفترة – قبل البدء بتحليل الموارد – ان اعتماد الطبري على المصادر غير المباشرة كالاخباريين يقل فيها الى حد كبير بينما يزداد اخذه عن المصادر المباشرة اشخاصا ووثائق ومؤلفات.

١ – المصادر الشخصية :

اعتمد الطبري في هذه الفترة على الاشخاص : رواة واخباريين ومؤرخين وساسة وشهود عيان ، وتوضّح ذلك سلاسل اسناده الكثيرة المتنوعة حيث جاءته مادة واسعة عن هذا الطريق. ويقف على راس هؤلاء اولئك الشيوخ الذين اخذ الطبري عنهم بكثرة وهم : علي بن محمد المدائني (ت٢٢٥هـ) الذي اخذ عنه ما يزيد عن الخمسين رواية بعضها مطول وبعضها مختصر. وعمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ) الذي اخذ عنه ما يزيد عن المائة رواية ، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) الذي نقل عنه مواضيع اختصاصية كالحج السنوي والوفيات وعمال الاقاليم في كل سنة ، وتواريخ حدوث بعض الظواهر الطبيعية كالزلازل ، فضلا عن عدد من الروايات في مواضيع اخرى متفرقة ، ثم الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ) الذي اخذ عنه عددا من الروايات

انصب معظمها على بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) وسيرة ابي جعفر المنصور. وعمر بن راشد ومحمد بن يحيى النيسابوري وعلي بن محمد النوفلي الذي اخذ الطبري عن كل منهم ما يربو عن العشر روايات.

أما الرواة الذين ياتون بالدرجة الثانية في الاهمية فهم : محمد بن اسماعيل (١١ رواية) ، عيسى بن عبدالله (٩ روايات) ، احمد بن زهير (٧ روايات) ، هشام بن محمد (٧ روايات) ، اسحق الموصلي (٧ روايات) ، يحيى بن الحسن (٧ روايات) ، يزيد بن الحارث (٦ روايات) ، والفضل بن اسحاق (٤ روايات).

أما الرواة الذين ياتون بالدرجة الثالثة في الاهمية من حيث طبيعة المادة التي قدموها كمّاً ونوعا فهم : نصر بن قديد ، محمد بن عبد الله ، محمد بن الحسن ، ازهر بن سعيد ، ابو حفصة الكرماني ، سليمان بن ابي الشيخ ، داود صالح ومحمد بن اسحاق الهاشمي. وقد قدم كل من هولاء عددا من الروايات لا يتجاوز الخمسة. وهناك من الرواة من اعطى روايتين فقط وهم : عبد الله بن عمرو ، ايوب بن عمر ، الاصمعي ، عبد الله بن رشد ، محمد بن معروف ، خالد بن خداش والحسن بن ابي سعيد. اما الرواة الذين اخذ الطبري عن كل منهم رواية واحدة فقط جاوزوا المائة عدداً.

أخذ الطبري – في هذه الفترة – اذن عن رواة واخباريين وطلائع مؤرخين كانوا يمثلون حلقة وصل بين مرحلة الاخبار ومرحلة التاريخ كالمدائني والواقدي والهيثم بن عدي وعمر بن شبة. وقد اتبع الطبري اساليب عديدة في الاخذ عن هذه الصادر. وفيما يلي بعض الامثلة :

١ – وحدثني محمد بن يحيى قال حدثني عبدالعزيز بن عمران قال حدثني ابي قال (٦١/١٠).

٢ – حدثنا احمد بن زهير عن علي بن محمد قال : قال عبدالرحمن ابن امية (١٣٢/٩).

٣ – وحُدثت عن سليمان بن ابي الشيخ (٢٥٣/٩).

٤ – اخبرني حميد مولى محمد بن ابي العباس قال : (٢٢٧/٩).

٥ – ذكر علي بن محمد عن زهير بن هنيد وجبلة بن فروخ واسماعيل بن ابي اسماعيل والحسن بن رشيد (١١٧/٩).

٦ – قال عمر حدثني سليمان بن محمد الساري قال (١٨٢/٩).

٧ – ... فيما ذكر عمر عن ازهر بن سعيد بن نافع (٢١٣/٩).

٨ – زعم الواقدي (٣٢٢/٩).

٩ – كذلك قال محمد بن عمر (٣٢٢/٩).

١٠ – ... في قول الواقدي (٩٤/١٠).

١١ – واما هشام بن محمد فانه ذكر عن ابي مخنف ان ... (١١٩/٩).

وهذه هي الصيغ التي يستعملها الطبري والتي يمكن تقسيها الى مجموعتين احداهما تشير الى النقل الشفوي مثل (حدثني ، حدثنا ، حدثت ، اخبرني) والاخرى تشير الى النقل عن كتاب او مدونة مثل (ذكر، قال ، زعم ...). ونلاحظ في بعض التعابير انفة الذكر اشارات اخرى عن طريقة الاخذ. فكلمة حدثنا قد تشير الى وجود الطبري في حلقة تستمع الى شيخها، وكلمة (حُدثت) تشير الى اخذ الطبري من مصدر ما بصورة غير مباشرة ، أي بواسطة شخص ثالث. اما تعبيرا (فيما ذكر) (وزعم) فيشيران الى نوع من الشك وعدم الثقة. واما تعبيرا (وكذلك قال) (واما فلان فانه ذكر) فيشيران الى اهتمام الطبري بايراد عدة روايات عن الموضوع الواحد ، ووجهة النقد لديه.

ونلاحظ – بصورة عامة – ان الروايات التي اخذها الطبري عن شيوخه امثال المدائني وعمر بن شبة والواقدي ، نقلها عن كتب هؤلاء ومدوناتهم وليس عن طريق شفوي ، اذ ان جل رواياتهم تبدأ بكلمة (ذكر) او (قال) اللتين تشيران الى الاخذ عن مصدر مكتوب. كما نلاحظ – من جهة اخرى – ان الرواة الذين اسهموا باعطاء الطبري عدداً محدودا من الروايات اعطوه اياها عن كلا الطريقتين الشفوي والمكتوب كما تدل كلمتا (حدثني) و(ذكر).

أخذ الطبري عددا من الروايات عن اشخاص مشتركين في الحوادث. وشهود عيان وموظفين في الدولة العباسية ومقربين لدى الخليفة وحاشيته ، واختصاصيين كالاطباء والمهندسين، او من احد افراد العائلة الحاكمة نفسها ، وفي ما يلي عرض لاهم الروايات التي اخذها الطبري عن هولاء مسندة اليهم :

١ – فذكر مسلم بن المعرة عن مصعب بن الربيع الخثعمي ، وهو ابو موسى بن مصعب ، وكان كاتباً لمروان قال (ظهور عبدالله ابن علي على الشام سنة ١٣٢هـ) (١٣٤/٩).

٢ – وحدثني عبدالله بن محمد بن عبدالله بن مسلم ويدعى ابن البواب ، وكان خليفة الفضل بن الربيع يحجب هارون من ادباء الناس وعلمائهم ، قال حدثني ابي عن الاسلمي ، يعني عبد الله بن عامر (تنبؤات حول مصير ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم سنة ١٤٥هـ) (٢٢٧/٩).

٣ – حدثني عبد الحميد وكان من خدم ابي العباس قال : [توجيه قوات ابي جعفر المنصور الى البصرة سنة ١٤٥هـ] (٢٤٨/٩).

٤ – وحدثني يحيى بن مامون من اهل القادسية قال سمعت عدة من اهل القادسية : [شدة المنصور في اهل الكوفة سنة ١٤٥هـ] (٢٤٩/٩).

٥ – وذكر عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي ان اسحاق بن عيسى بن علي حدثه [تنبؤ عن مصير المعركة بين العباسيين والعلويين سنة ١٤٥هـ] (٢٥٨/٩).

٦ – فقال موسى بن داود المهندس : قال لي المأمون ، وحدثني بهذا الحديث [طلب المأمون انشاء اثر خالد] (٢٦١/٩).

٧ – ذكر عبد الملك بن شيبان ان يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن الهاشمي قال [عزل المنصور مسلم بن قتيبة عن البصرة وتولية سليمان ابن محمد بن علي ١٤٦هـ] (٢٦٤/٩).

٨ – فذكر عن بعض بني هاشم انه قال [عزل المنصور اخاه العباس ابن محمد عن الجزيرة سنة ١٥٥هـ] (٢٨٦/٩).

٩ – وذكر الباهلي ان أبا شاكر أخبره – وكان من كتاب المهدي على بعض دواوينه – قال [خروج المهدي الى ماسبذان سنة ١٦٩هـ] (١٠/١٠).

١٠ – قال محمد بن صالح وحدثني عبدالله بن محمد الانصاري [أخبار عامة عن آل حسن خلال ثورة الحسن العلوي سنة ١٦٩هـ] قال عبدالله : رايت هذا كله بعيني (٢٥/١٠).

١١ – فذكر عمرو اليشكري وكان في الخدم [التدبير لاغتيال يحيى البرمكي سنة ١٧٠هـ] (٣٦/١٠).

١٢ – وذكر احمد بن القاسم انه حدثه عمه علي بن يوسف بن القاسم هذا الحديث فقال : حدثني يزيد الطبري انه كان حاضرا يحمل دواة ابي يوسف بن القاسم فحفظ الكلام قال [خطبة القائد يوسف بن القاسم عند تولي الرشيد الخلافة سنة ١٧٠هـ] (٤٨/١٠).

١٣ – ذكر ابو الخطاب ان جعفر بن يحيى بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال [موت يحيى بن خالد بسبب علة انتابته سنة ١٧٦هـ](٥٧/١٠).

١٤ – وذكر ابو يونس اسحاق بن اسماعيل قال سمعت عبدالله بن العباس بن علي الذي يعرف بالخطيب قال [استعطاف يحيى البرمكي للرشيد سنة ١٧٦هـ] (٥٧/١٠).

١٥ – وذكر عن ذي الرياستين انه قال [شخوص الرشيد الى خراسان لحرب رافع بن الليث سنة ١٩٢هـ] (١٠٨/١٠).

١٦ – ذكر عن جبريل بن بختيشوع انه قال [مرض الرشيد سنة ١٩٣هـ] (١١٠/١٠).

١٧ – وذكر الحسن بن علي الربعي ان اباه حدثه عن ابيه وكان حمالا قال [حمل الرشيد الى طوس سنة ١٩٣هـ] (١١٠/١٠).

١٨ – وذكر احمد بن عبدالله انه كان فيمن شهد [حصار بغداد وخلع الحسين بن علي للامين سنة ١٩٦هـ] (١٦٣/١٠).

١٩ – وذكر عن عثمان بن سعيد الطائي قال كانت لي من الحسين بن علي ناحية خاصة : [سيطرة الحسين بن علي على الموقف سنة ١٩٦هـ] (١٦٣/١٠).

٢٠ – فذكر عن بعض الأنباء [اغراء طاهر بن الحسين لقواد الامين سنة ١٩٧هـ] (١٨٢/١٠).

٢١ – قال يحيى بن الحسن : وحدثني بعض الهاشميين [سبب موت الهادي سنة ١٧٠هـ] (٣٣/١٠).

٢٢ – وذكر ابو يعقوب بن سليمان قال حدثتني حجرة العطارة ، عطارة ابي جعفر ، قالت [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨هـ] (٣٥٠/٩).

٢٣ – وذكر علي بن زيد انه قال : كنت يوما عند عمر الوراق انا وجماعة فجاء رجل فحدثنا [وقعة طاهر بباب الكرخ وتخلي الناس عنه سنة ١٩٨هـ] (١٩٣/١٠).

٢٤ – وذكر علي بن محمد بن سليمان ... بن عبد المطلب قال : حدثني يوسف البرم مولى آل حسن – وكانت امه مولاة فاطمة بنت الحسن – قال [بعض سيرة الحسن بن علي] (٢٩/١٠).

٢٥ – وذكر بعض الموالي انه قال [عزل الرشيد علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وتولية هرثمة اياها سنة ١٩١هـ] (١٠٠/١٠).

٢٦ – وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل [رسالة المأمون الثانية الى الامين ورد الامين عليها سنة ١٩٤هـ] (١٣٤/١٠).

٢٧ – وذكر الحسن بن ابي سعيد قال : عقدنا لطاهر بن الحسين سنة (١٩٤هـ)(١٣٩/١٠).

هذه هي اهم الروايات اتي اخذها الطبري عن مصادر رسمية وشهود عيان ومشتركين في الاحداث. وهناك – فضلا عن ذلك – روايات كل من اسحق الموصلي مغني البلاط العباسي، والفضل بن اسحق الهاشمي واخيه من اقطاب العائلة العباسية ، والاصمعي مؤدب اولاد الخلفاء ، وخالد بن خداش احد ابناء الداعية العباسي المشهور ، وآل صالح المقربين لدى العباسيين.

وقد اخذ الطبري عن هؤلاء جميعاً مباشرة او بصورة غير مباشرة. فعندما يرد اسم احد هؤلاء في بداية السند يشير الى اخذ الطبري عنه مباشرة وعندما ياتي في نهاية السند يشير الى ان الطبري اخذ عنه بصورة غير مباشرة. كما اننا نلاحظ في بعض سلاسل الاسناد لدى الطبري بعض العلاقات العائلية داخل السلسلة مثل : ابن ، خال ، عم ، مما يشير الى الجهد الذي بذله الطبري في الاتصال بالمزيد من الاشخاص ذوي العلاقة بالحادثة او باقربائهم ان لم يتيسر الوصول اليهم مباشرة.

وربما كانت صلة الطبري الوثيقة ببعض الشخصيات الرسمية او بتلك التي لها علاقات بالعائلة العباسية الحاكمة ، سبباً في اسهابه لدى استعراضه لسير الخلفاء العباسيين ، حيث نجده يخصص الصفحات الطوال لاستعراض سير هؤلاء في مختلف جوانب شخصياتهم واخلاقهم وحياتهم الخاصة والعامة واوقات فراغهم ومرضهم ووفاتهم .. الخ. فهو يخصص

– مثلا – ثلاثين صفحة في استعراض سيرة ابي جعفر المنصور ، ويورد ما يزيد عن الخمسين رواية ، مستقاة من عدد كبير من الرواة والمصادر ، وكذلك الحال في عرضه لسيرتي المهدي والرشيد. كما ان احد اسباب اسهاب الطبري في الكلام عن ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم ، يعود الى اعتماده على كثير من شهود عيان لاحداث تلك الثورة ، بصورة غير مباشرة ، وما يقال عن هذه الثورة يقال عن احداث الصراع بين الامين والمأمون حيث يسهب الطبري في عرض وقائعها وجزئياتها في صفحات طوال.

٢ – المصادر المكتوبة :

يعتمد الطبري في هذه الفترة بشكل ملحوظ على الوثائق والرسائل والسجلات والدواوين ونصوص العهود والمواثيق والخطب والتقارير الرسمية وغيرها من الوثائق التي لها صفة رسمية او شبه رسمية ، فضلا عن عدد كبير من القصائد وابيات الشعر ذات العلاقة بالاحداث العامة. ومن الملاحظ ان عددا من الوثائق التي يعتمدها الطبري ترد دون اسناد مما يشير الى ان الطبري حصل عليها مباشرة ودونما واسطة. وقد تكون علاقته ببعض الشخصيات الرسمية من اهم اسباب حصوله على هذا العدد الضخم من الوثائق والمستندات : من دواوين الدولة وسجلاتها ، ويتضح هذا في ايراده وصايا الخلفاء. هذا الى ان اهتمام الرأي العام الاسلامي بحادثة من الحوادث وحفظهم للوثائق المتعلقة بها شفاهاً يسر للطبري – وغيره من المؤرخين – الحصول على فحوى هذه الوثائق ، فاننا نجد مثلا ان اهتمام الناس بثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم كان سبباً في تمكين الطبري من ايراد معظم الوثائق المتعلقة بهذه الثورة.

وفيما يلي اهم النصوص الوثائقية التي اوردها الطبري في هذه الفترة من تاريخه :

١ – وذكر ان [خطبة السفاح وداود بن علي سنة ١٣٢هـ] (٩/١٢٥–١٢٧).

٢ – وقيل ان ابا مسلم كان هو الذي تقدم ابا جعفر فعرف الخبر فكتب اليه ابو جعفر سنة ١٣٦ [نص الكتاب] (٩/١٥٥).

٣ – قال عمر بن راشد قال حدثني يحيى قال حدثني اسماعيل بن يعقوب قال [خطبة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٥هـ] (٩/٢٠٥).

٤ – قال عمر بن شبة وحدثني محمد بن يحيى قال [الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٥هـ] (٩/٢٠٩).

٥ – وحدثني عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن يحيى بن ابي طالب قال : اخبرني ابي قال [وصية المنصور لعيسى بن موسى سنة ١٤٥هـ] (٩/٢١٧).

٦- وذكر عن جعفر بن ربيعة العامري عن الحجاج بن قتيبة بن مسلم [نص يوضح موقف المنصور من ثورة العلويين سنة ١٤٥هـ] (٢٥٥/٩).

٧ - ذكر عن الهيثم بن عدي [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨هـ] (٣١٩/٩).

٨ - وقال غير الهيثم [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨هـ] (٣١٩/٩).

٩ - وذكر ابو يعقوب بن سليمان قال حدثتني حجرة العطارة قالت [وصية المنصور سنة ١٥٨هـ] (٣٢٠/٩).

١٠ - وذكر عن اسحاق بن عيسى بن علي عن ابيه قال [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨هـ] (٣٢٠/٩).

١١ - وذكر عيسى بن محمد ان موسى بن هارون حدثه قال [وصايا المنصور سنة ١٥٨هـ] (٣٢١/٩).

١٢ - ذكر علي بن محمد النوفلي ان اباه حدثه قال [عقد البيعة للمهدي سنة ١٥٨هـ] (٣٢٣/٩).

١٣ - [كتاب تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد سنة ١٦٠هـ] (٣٣١/٩).

١٤ - [نسخة كتاب المهدي الى والي البصرة في رد آل زياد الى نسبهم ، سنة ١٦٠هـ] (٣٣٥/٩).

١٥ - وذكر احمد بن القاسم انه حدثه عمه علي بن يوسف هذا الحديث فقال حدثني يزيد الطبري انه كان حاضراً يحمل دواة ابي يوسف ابن القاسم فحفظ الكلام قال [خطبة القائد يوسف بن القاسم لدى تولي الرشيد الخلافة سنة ١٧٠هـ] (٤٨/١٠).

١٦ - وذكر ابو يونس اسحق بن اسماعيل قال سمعت عبدالله بن العباس قال : [نص استعطاف يحيى البرمكي للرشيد سنة ١٧٦هـ] (٥٧/١٠).

١٧ - [تولية الرشيد لعيسى بن العكي بلاد الشام ونص رد الاخير وثنائه عليه سنة ١٨٠هـ] (٦٦/١٠).

١٨ - فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وابراهيم الحجي [كتاب العهد للأمين والمأمون سنة ١٨٦هـ] (٧٣/١٠).

١٩ - [نص الكتابين المتبادلين بين الرشيد ونقفور سنة ١٨٧هـ] (٩١/١٠-٩٣).

٢٠ - [نص كتاب علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩١هـ] (١٠٠/١٠).

٢١ - [الكتابان المتبادلان بين الرشيد وهرثمة بن اعين سنة ١٩١هـ] (١٠٣/١٠-١٠٨).

٢٢ - [كتاب الامين الى المأمون سنة ١٩٣هـ] (١٢٤/١٠).

٢٣ - [كتاب الامين الى المامون وجواب الاخير عليه سنة ١٩٤هـ] (١٣٣/١٠).

٢٤ - وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل [رسالة المامون الثانية الى الامين ورد الامين عليها ، وبعض الكتب الاخرى سنة ١٩٤هـ] (١٣٤/١٠).

٢٥ – [كتابا المامون الى الامين وعلي بن عيسى سنة ١٩٥هـ] (١٠/١٤٤).
٢٦ – [كتاب الامين الى المأمون سنة ١٩٥هـ] (١٠/١٤٦).
٢٧ – [كتاب المامون الى الامين سنة ١٩٥هـ] (١٠/١٤٩).
٢٨– [خطبة داود بن عيسى اثناء مبايعته للمامون سنة ١٩٦هـ] (١٠/١٧٠).
٢٩ – وذكر عن المدائني [نص كتاب طاهر بن الحسين الى المامون بالفتح سنة ١٩٨هـ] (١٠/٢٠٣–٢٠٥).
٣٠ – [كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لدى توليته على ديار ربيعة] (١٠/٢٥٨).

وهكذا نجد الطبري يوردها العدد الكبير من الرسائل والوثائق والكتب الرسمية في هذه الفترة القصيرة من تاريخه. ولو اننا احصينا ما اورده من وثائق في كل من الفترات السابقة او اللاحقة من تاريخه ، لما وجدنا ايا منها يبلغ هذا العدد الذي اورده المؤرخ في صدر الدولة العباسية ، للاسباب آنفة الذكر.

الشعـر :

يهتم الطبري في هذه الفترة – كذلك – بايراد مزيد من النصوص الشعرية وبخاصة في احداث الصراع بين الامين والمامون بشكل لم تشهد له الفترات الاخرى مثيلا في الكثرة. وهو يورد هذه القصائد والابيات عبر اخبار وروايات مسندة احيانا ، وعن شعراء ساهم قسم منهم في الاحداث الجارية تارة اخرى ، وفيما يلي بعض الامثلة :

١ – وذكر عن جعفر بن ربيعة العامري عن الحجاج بن قتيبة بن مسلم [ثقة المنصور وقوته مع سبعة ابيات من الشعر سنة ١٤٥هـ] (٩/٢٥٤).
٢ – وذكر عن حيان بن عبدالله الحماني قال حدثني ابو نخيلة قال [قصة خلع عيسى وتولية المهدي سنة ١٤٧هـ مع سبعة وعشرين بيتا من الشعر] (٩/٢٧٣).
٣ – [سبب تحويل المهدي للحسن بن ابراهيم من سجنه سنة ١٥٩هـ مع سبعة ابيات من الشعر] (٩/٣٢٧).
٤ – [اخبار متفرقة يوردها الطبري دون اسناد سنة ١٧٠هـ يكثر فيها من الشعر] (١٠/٥٠).
٥ – [الصراع بين القيسية واليمانية في الشام سنة ١٧٦هـ مع خمسة عشر بيتا من الشعر] (١٠/٦٠).
٦ – [اخبار شبه مفصلة عن ثورة مصر وشمال افريقيا سنة ١٧٨هـ مع خمسة وعشرين بيتا من الشعر] (١٠/٦٢).

٧ – [خبر مطول عن حج الرشيد واعطاء العهد لأبنائه سنة ١٨٦هـ مع ثمانية ابيات من الشعر] (٧٢/١٠).

٨ – [عدة مجاميع من الشعر في موضع نكبة البرامكة سنة ١٨٧هـ] (٨٧/١٠).

٩ – [علاقات الرشيد ونقفور والكتب المتبادلة بينهما سنة ١٨٧هـ مع خمسة وثلاثين بيتا من الشعر] (٩١/١٠-٩٣).

١٠ – وذكر بعض من سمع عبدالله بن خازم [جوانب من لهو الأمين سنة ١٩٥هـ مع ستة عشر بيتا من الشعر] (١٤٢/١٠).

١١ – وذكر عن محمد بن منصور البارودي [رجحان كفة طاهر بن الحسين واضطراب الاوضاع الداخلية في بغداد سنة ١٩٧هـ مع مائة وخمسة واربعين بيتا من الشعر](١٧٥/١٠).

١٢ – [حصار بغداد سنة ١٩٧هـ مع ستة وعشرين بيتا من الشعر لعمرو ابن عبد الملك الوراق العتري](١٨٣/١٠).

١٣ – [وقعة درب الحجارة سنة ١٩٧هـ مع عشرين بيتا للعتري](١٨٧/١٠).

١٤ – [حصار بغداد سنة ١٩٧هـ مع شعر كثير للعتري] (١٩٠/١٠).

١٥ – [خلاف خزيمة بن خازم مع الامين واستئمانه لطاهر بن الحسين سنة ١٩٨هـ مع تسعة ابيات من الشعر] (١٩٢/١٠).

١٦ – وذكر عن علي بن زيد [وقعة باب الكرخ سنة ١٩٨هـ مع اربعة عشر بيتا من الشعر للوراق العتري] (١٩٣/١٠).

١٧ – ذكر ما قيل [في الامين ومرثيته سنة ١٩٨هـ مع عدة مجاميع شعرية لعدد من الشعراء] (٢٠٩/١٠).

١٨ – وقال الحسين بن الضحاك يرثي الأمين (ست وثلاثون بيتا) ، وقال عبدالرحمن بن الهداهد يرثيه (ثلاثة وثلاثون بيتا) وقال خزيمة ابن الحسن (ست وثلاثون بيتا) (٢١٠/١٠).

والغاية من ايراد الشعر ضمن الرواية التاريخية او في اعقابها هي نفسها لدى الطبري في جميع فترات تاريخه ، فهو ياتي به ليضفي حيوية على الموضوع وليحرك الوقوف التاريخي ، ولكن الاهم من هذا هو ان الشعر يعد وثيقة مهمة للخبر التاريخي خاصة اذا انشده مساهمون في الاحداث ، ومن ثم نجد الطبري يكثر من ايراد ابيات وقصائد للعتري الوراق إلذي كان احد المشاركين في احداث حصار بغداد وما رافقه من مآسي. هذا فضلا عن ان الشعر يعتبر جزءاً مهما من الثقافة ، والتاريخ – في احدى نواحيه – انعكاس لهذه الثقافة.

مُعطيات الطبري الشخصية :

قدم الطبري – في هذه الفترة – معلومات مهمة واسعة دون اسناد ، أي دون ان تنسب الى مصدر ما شخصي او مكتوب ، ونستطيع اعتبارها جزءا من خبراته الخاصة او مما حفظته ذاكرته ، كما يمكن اعتبارها ماخوذة عن مصادر شفاهية او مكتوبة لم يشا الطبري ذكر مصادرها لسبب ما. وتشير سعة هذه الروايات – على فرض انها من معطيات الطبري وثقافته الخاصة – الى مدى قابليته على استيعاب الروايات التاريخية وحفظها بدقائقها وتفاصيلها وفيما يلي عرض لاهم المواضيع التي اوردها الطبري دون اسناد في هذه الفترة :

سبب قتال مسلم بن قتيبة لسفيان بن معاوية سنة ١٣٢هـ (١٢٣/٩) القبض على ابراهيم الامام سنة ١٣٢هـ (١٢٤/٩) محاولة ابي سلمة الخلال لتحويل الدعوة لصالح العلويين سنة ١٣٢هـ (١٢٨/٩) هزيمة مروان الثاني في الزاب سنة ١٣٢هـ (١٣٢/٩) خروج بسام بن ابراهيم بن بسام في خراسان سنة ١٣٤هـ (١٤٨/٩) شخوص خازم بن خزيمة الى عمان وقضائه علي الخوارج سنة ١٣٤هـ (١٥٠/٩) غزوة خالد بن ابراهيم لاهل كش سنة ١٣٤هـ (١٥٠/٩) توجه موسى بن كعب الى الهند لقتال منصور ابن جمهور سنة ١٣٤هـ (١٥٠/٩) خروج زياد بن صالح وراء نهر بلخ سنة ١٣٥هـ (١٥٠/٩) تولية العهد للمنصور سنة ١٣٦هـ (١٥٤/٩) خلع جهور بن مراد العجلي للمنصور سنة ١٣٨هـ (١٧٠/٩) مقتل ملبد الخارجي سنة ١٣٨هـ (١٧٠/٩) امر المنصور بحبس عبدالله بن علي ورفاقه سنة ١٣٩هـ (١٧٢/٩) نقض اصبهاذ طبرستان لعهود المسلمين سنة ١٤٢هـ (١٧٨/٩) غزو الديلم سنة ١٤٣هـ (١٧٩/٩) خروج استاذ سيس في اهل هراة وماجاورها سنة ١٥٠هـ (٢٧٦/٩) غزوة الرشيد الصائفة من قبل ابيه سنة ١٦٥هـ (٣٤٦/٩). مبايعة الهادي سنة ١٦٩هـ (٢١/٩) تولي الرشيد الخلافة ومنحه السلطات للبرامكة سنة ١٧٠هـ (٤٨/١٠) شخوص الرشيد الى الري وتولية بعض العمال على المشرق سنة ١٨٩هـ (٩٥/١٠) خروج رافع بن الليث بسمرقند سنة ١٩٠هـ (٩٨/١٠) فتوحات الرشيد في بلاد الروم سنة ١٩٠هـ (٩٨/١٠) وصف الايام التي اعقبت فتنة الامين والمامون سنة ١٩٨هـ (٢٠٦/١٠) الحملة على ابن طباطبا وسبب موته سنة ١٩٩هـ (٢٩٩/١٠–٢٣٠) خروج ابراهيم بن موسى الطالبي في اليمن سنة ٢٠٠هـ (٢٣٢/١٠) توجه ابراهيم العقيلي ليحج بالناس وتراجعه سنة ٢٠٠هـ (٢٣٥/١٠) شخوص هرثمة الى المامون سنة ٢٢٠هـ (٢٣٦/١٠) حوادث الشغب ببغداد سنة ٢٠٠هـ (٢٣٧/١٠) محاولة اهل بغداد مبايعة المنصور بن المهدي سنة ٢٠١هـ (٢٣٨/١٠) مبايعة ابراهيم ابن المهدي بالخلافة في بغداد سنة ٢٠٢هـ (٢٤٥/١٠) ثورة الكوفة سنة ٢٠٢هـ (٢٤٥/١٠) ، انتصار ابراهيم بن المهدي على سهل بن سلمة المطوعي ومعاقبته سنة ٢٠٢هـ (٢٤٨/١٠) توجه المامون من مرو صوب العراق سنة ٢٠٢هـ (٢٤٩/١٠) خلع

اهل بغداد لابراهيم بن المهدي واختفائه سنة ٢٠٣هـ (١٠/٢٥١-٢٥٤) ، وصول المامون العراق سنة ٢٠٤هـ (١٠/٢٥٤-٢٥٥).

هذه هي اهم المواضيع التي تشكل العمود الفقري لخبرات الطبري الشخصية ، أي الروايات الاساسية التي اوردها دون اسناد ودون ان يشير الى أي مصدر سواء كان شخصيا ام مكتوبا. وقد قدم الطبري بعض هذه الروايات بتعابير تشير الى صيغة المبني للمجهول مثل فيما ذكر ، أو ذكر ، أو قد قيل. اما الروايات الاخرى فلم تسبقها أي من هذه التعابير. هذا فضلا عن انه يورد اسماء عمال الاقاليم في المملكة الاسلامية في نهاية كل سنة ودونما اسناد في الغالب ، وما يقال عن العمال يقال عن امراء الحج.

ويمكن – بصورة عامة – تقسيم خبرات الطبري الشخصية او رواياته غير المسندة الى ثلاث مجموعات اولها روايات موجزة اشبه بالعناوين ترد في بدء كل حولية او في ختامها ، وثانيتها روايات متوسطة الطول ، وثالثها روايات مطولة قد يستغرق بعضها عدة صفحات.

إن سعة المعلومات التي يوردها الطبري في بعض المواضيع دون اسناد اواعتمادا على ذاكرته او بادئا اياها بكلمة ذكر او قيل ، تجلب الشك ، اذ ربما اخذ الطبري عن مصدر مكتوب لم يشأ ذكره او ذكره مؤلفه ، وهو مجرد ظن قد يتضح اكثر خلال الروايات العديدة المطولة التي اوردها الطبري عن فترة الصراع بين الامين والمامون. اذ ربما نقل الطبري بعض هذه الروايات عن الجزء الواسع المفصل المتبقي من كتاب احمد بن طاهر ابن طيفور عن تاريخ بغداد ، والذي يعرض مزيدا من الدقائق والتفاصيل عن فترة الصدام هذه بمقدماتها ونتائجها. ولكن الشك يعود فيجابهنا ثانية باثارة هذا السؤال : لماذا ذكر الطبري الكثير من اسماء مؤلفي كتب اعتمد عليها ، واغفل ابن طيفور بالذات ؟؟

المواضيع الاساسية :

مما يتعلق بموضوع مصادر الطبري عن هذه الفترة مسالة المواضيع التي اعطاها اهمية خاصة وركز عليها دون غيرها. فهو في هذه الفترة يصب اهتمامه على ثورات العلويين وخاصة ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم ، وعلى البرامكة وكيفية وصولهم الى السلطة وتوسيع سلطتهم ثم تصفيتهم واسبابها والروايات المختلفة عنها ، وعلى قضية الصراع بين الامين والمامون ، كما انه يقدم صورا دقيقة بتفاصيها عن سير الخلفاء العباسيين ومختلف جوانب شخصياتهم وميولهم واخلاقهم وحياتهم الخاصة والعامة وطبيعة اوقات فراغهم ولا سيما ما يتعلق بسيرة المنصور. اما موضوع بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) فلا يعطيه الطبري الاهمية التي يستحقها ، ورغم انه يقدم التفاصيل المهمة عن اهمية المنطقة وبناء المدينة المدورة (حوالي سبعة واربعين صفحة).

يخصص الطبري صفحات طوالا (حوالي خمسة وثمانين صفحة)[1] لثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم ، وهي الثورة الوحيدة التي بسطها الطبري في هذا العدد الواسع من الصفحات. فقد اورد عددا كبيرا من الروايات ، واعتمد على عدد من الرواة على رأسهم عمر بن شبة ، واسهب في الجزئيات والمسائل الثانوية كالحديث عن سيف محمد ذي النفس الزكية وصفاته – مثلا – وعرض روايات تتفق احيانا ، وتتعارض احيانا اخرى ، عن كل جانب من جوانب الثورة. كما اورد جل الوثائق والكتب والرسائل المتبادلة بين المنصور وزعماء الثورة.

إن اهتمام الطبري بهذه الثورة وتقديمه هذه المادة الواسعة عنها يشير ولا ريب الى جملة ظواهر اولاها اهتمام الناس على المستوى الثقافي والشعبي بهذه الثورة وحفظهم الكثير من الوثائق ، حيث جائت هذه الثورة كرمز للخلاص من خيبة الامل التي اصيبت بها جماعات كبيرة اثر انحراف العباسيين عن الاهداف التي اعلنوها خلال دعوتهم ، الامر الي اكده وقوف كبار فقهاء الاسلام كمالك وابي حنيفة (رضي الله عنهما) الى جانب الثورة قولا وعملا. وثاني هذه الظواهر هي اهمية هذه الثورة من وجهة النظر التاريخية ، اذ انها هددت الكيان الجديد للدولة العباسية ، وكادت ان تقضي عليه ، فضلا عن انها شغلت فترة زمنية هامة من عمر الدولة الناشئة ، ومساحة مكانية واسعة امتدت بين مكة والمدينة جنوبا والكوفة ومشارف بغداد شمالا. وثالث هذه الظواهر ينصب على ميول الطبري نفسه واتجاهاته السياسية ، اذا ان الخط العام للروايات التي اوردها عن هذه الثورة يشير الى ميله للثائرين ، ويلقي ظلا خفيفا على موقف المنصور وسياسته تجاه الثورة وزعمائها. واغلب الظن ان هذا الظل كان سيزداد عمقاً لو لم يكتب الطبري تاريخه في بيئة يحكمها العباسيون انفسهم[2].

مر قبل قليل ان من اسباب توسع الطبري في ايراد تفاصيل هذا الحدث هو اهتمام القطاع الثقافي من المجتمع الاسلامي بهذه الثورة وحفظه الكثير من اخبارها ورواياتها التي اعتمد عليها الطبري في تقديمه هذه الصورة المفصلة ، فما هي مصادر الطبري في هذا المجال ، ومن هم اشهر رواته ؟

أخذ الطبري تفاصيل هذه الثوره عن اخباريين مشهورين كعمر بن شبة والمدائني والواقدي وعمر بن راشد ، كما اخذ عن رواة من شتى المدن والاقاليم مما يشير الى مدى التوازن الجغرافي في معطياته عن الثورة ، فضلا عن اخذه عن شهود عيان ومساهمين في الاحداث ومقربين من الزعماء ، بل اننا نجده ياخذ من ابناء العلويين انفسهم. وقد مكنه جميع هولاء من جمع عدد كبير من الروايات يزيد عن المائتين وثلاثين رواية. ولكننا نجد من بين هؤلاء اخباريا

---

(١) الطبري ، ٩/١٨٠-٢٦٥.

(٢) انظر ما يلي من هذا البحث للاطلاع على ميول الطبري واتجاهاته.

يقف في القمة ليقدم للطبري ما يقرب من مائة رواية تشكل العمود الفقري للمادة التي قدمها الطبري عن هذه الثورة ، ذلك هو عمر بن شبة صاحب الكتابات التاريخية الكثيرة التي جعلت منه ومن رفاقه حلقات وصل بين مرحلتي الرواية والتاريخ في الاسلام.

يلي عمر بن شبة في مقدار الروايات في هذا المجال عمر بن راشد (خمسة وعشرون رواية) ثم محمد بن يحيى النيسابوري (ثلاثة عشر رواية) وعيسى بن عبد الله ومحمد بن اسماعيل (تسعة روايات) واخباريون ورواة اخرون قدموا روايات متفرقة وهم : المدائني ، الواقدي ، نصر بن قديد ،ازهر بن سعيد ، الحارث ومحمد بن الحسن ، ابراهيم بن محمد ابن ابي الكرام ، علي بن اسماعيل بن هيفة ، ايوب بن عمر ، عبدالله ابن راشد ، محمد بن معروف وخالد بن الخداش. اما الرواة الذين اعطى كل منهم رواية واحدة فيبلغ عددهم ما يقرب من الخمسين.

قضية البرامكة هي الموضوع الثاني الذي يسهب الطبري فيه ، فهو يورد الروايات المختلفة عن هذه العائلة وكيفية وصولها الى الحكم وتفردها به ثم تصفيتها واسبابها ، وهذا يشير بدوره الى الدور الذي لعبته هذه العائلة على الستوى الاجتماعي واهمية ذلك في تاريخ العصر العباسي الاول. كما تشير دراسة روايات الطبري عن هذا الموضوع الى وجهته النقدية وتمحيصه للروايات وتقديمه الروايات المتباينة لتعليل اسباب تصفية البرامكة.

ويرجع الطبري في معظم اخباره عن هذه العائلة الى بعض افرادها او المقربين اليها ، كما يشير السند الذي ينتهي في غالب الاحيان باحد هؤلاء وبخاصة جعفر بن يحيى ومحمد بن اسحق الهاشمي وابراهيم بن المهدي.

يخصص الطبري ما يزيد عن الاربعين صفحة لموضوع الصراع بين الامين والمامون حيث يسهب في عرض اسبابه وتفاصيله ونتائجه ، ويعرض عددا كبيرا من الكتب والرسائل المتبادلة بين قيادتيْ الجانبين. ونجد ان جزءا كبيرا من روايات الطبري في هذا المجال غير مسندة ، وربما اعتمدها من بقايا كتاب لابن طيفور عن تاريخ بغداد ، لم يشأ الطبري ذكر اسمه، كما سبق. الا ان هذا لا يمنع من ان عددا كبيرا يتجاوز الاربعين من روايات الطبري عن الموضوع جاءت مسندة الى ما يقرب من ثلاثين راوية وهم حسب اهمية ما قدموه : يزيد بن الحارث ، الحسن بن ابي سعيد ، محمد بن يحيى النيسابوري ، الفضل بن اسحق ، اسحق الموصلي ، بعض الخدم ، سفيان بن محمد ، عبدالرحمن بن وثاب ، احمد بن عبد الله ، عثمان بن سعيد الطائي ، محمد بن يزيد التميمي ، محمد ابن منصور البارودي ، محمد بن المصعب ، عمرو العتري (وهو شاعر نقل عنه الطبري الكثير من الأبيات) ، الحسين بن الضحاك ، يحيى بن سلمة الكاتب ، محمد بن عيسى الجلودي ، محمد بن اسماعيل ، سعيد بن حميد احمد بن اسحق ، والعباس بن احمد ، ومن خلال اسانيده هذه نجد الطبري يعتمد في هذا الموضوع علي مصادر شخصية لها صلة وثيقة بالاحداث ووظائف الدولة.

أما سير الخلفاء فهو الموضوع الاخر الذي يستقطب اهتمام الطبري ، حيث يخصص لكل خليفة صفحات طوالا. ويشير العدد الكبير لرواياته في هذه المواضيع الى كثرة مصادره عنها سواء كانت شخصية ام مكتوبة. وقد اعتمد الطبري في هذا عدة رواة وثيقي الصلة بالخلافة والحاشية ووظائف الدولة كما اعتمد على بعض افراد العائلة العباسية نفسها. ويشير اهتمام الطبري بسير الخلفاء الى اهتمامه بالخليفة الحاكم كمحور للتاريخ الاسلامي ، ولهذا علاقة بفكرته التاريخية واسلوبه مما سنعرض له فيما بعد.

أما موضوع بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) فقد تناوله الطبري في موضعين ، تحدث في اولهما عن اختيار موقع بغداد وميزاته والقرى التي كانت منشرة في المنطقة ، وتحدث في ثانيهما عن البناء والنفقات ومحاولة نقض ديوان كسرى وتنظيم الاسواق. وتتميز هذه الصورة التي يبسطها الطبري عن بغداد في ما يقرب من خمسين صفحة بانها متقطعة ، غير شاملة ، ويصعب ان نقرر لماذا اورد هذه المعلومات دون غيرها ؟ ولا ريب ان هناك تكاملا بين القسمين وان فصلهما حدث بسبب ضرورة تقسيم الاحداث حسب السنين.

والملاحظ ان معظم معلومات الطبري عن بغداد وردت في الجزء الاول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وفي كتاب البلدان للهمذاني. الا ان الطبري استمد معلوماته من غير رواة الخطيب. والملاحظ – كذلك – ان الطبري لم يرو – هنا – سلسلة الاسانيد كاملة ، والغالب انه لم ياخذها من شيوخه مباشرة ففي معظم هذه الاخبار يكتفي بذكر (وذكر فلان) وفي بعض الاحيان لايشير الى الراوي مكتفيا ببناء الفعل للمجهول (ذكر) مما يرجح انه نقل معظم اخباره عن كتب مدونة. والرواة الذين اعتمد عليهم الطبري – هنا – متعددون اورد كل منهم رواية واحدة او عددا قليل من الروايات.

لقد أورد الطبري في ثنايا مؤلفه عددا كبيرا من اسماء الاماكن والخطط والمعالم العمرانية لدى استعراضه احداثا وقعت في بغداد ، الا انه – رغم ذلك – لم يعط صورة واضحة لهذه الخطط عند كلامه عن بناء بغداد. لقد اراد الطبري – قبل أي شيئ اخر – ان يكتب تاريخا سياسيا وعسكريا وكل ما عدا ذلك من امور لا تعدو ان تكون ظلالا لهذا التاريخ. ومع ذلك فيندر ان نجد هذا العدد الكبير من الصفحات عن بناء بغداد في معظم مصادرنا ، تاريخية كانت ام جغرافية.

فيما عدا المواضيع انفة الذكر ، لا نجد الطبري يبدي اهتماما كبيرا بغيرها من الموضوعات فيعرض عنها صورة كاملة ، واضحة المعالم ، شاملة التفاصيل ، مما يجعل الصورة المعروضة عن هذه الفترة اشبه بمجموعة قصص تتضخم حينا وتهزل احيانا اخرى بحيث لا تفي بالغرض. (هكذا يفتقد الطبري – هنا – التوازن الكمي الذي علمنا اياه في الفترات السابقة. فمركز الثقل في هذه الفترة ينحصر في مواضيع محدودة ، اما المواضيع الاخرى فهي

اشيه بمعلومات عامة او خطوط رئيسية تنقصها التفاصيل والاستمرار الزمني. بل اننا نجد كثيرا من المواضيع يكتفي بمجرد الاشارة اليها وكانها عناوين فحسب[١].

النقد والاسلوب :

يظهر الطبري في هذه الفترة – شأن الفترات السابقة – متاثرا بثقافته وشخصيته كمحدث وفقيه ، فنجده يلتزم وجهة المحدثين في النقد الذي ينصب على الاسناد حيث يهتم به الطبري ويثبته في كل خبر او رواية مهما كانت صغيرة او تافهة ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة في المرحلة الاولى من هذه الفترة ، يتجه الطبري – بعد ذلك – الى عدم التاكيد على الاسناد والاخذ عن كتب شتى ، وربما كان سبب هذا الاتجاه فرب الفترة من عهده – نسبيا – وكثرة المدونات والوثائق عنها. وعلى اية حال فالاهتمام بالاسناد واضح لدى الطبري خلال هذه الفترة. ولكن كما ان لهذا الاسلوب النقدي مزاياه فله عيوبه ، فالطبري يورد خلال حدث واحد يتعلق بثورة العلويين ، مثلا ، سلسلة الاسناد بين حين واخر مما يودي الى التكرار في معظم الاحيان ، كما يؤدي الى ظاهرة الانقطاع في عرض الحدث[٢]. وبالرغم من استخدامه الاسناد الجمعي على نطاق واسع الا ان هذا الانقطاع يتكرر ويشكل عقبة اساسية امام الوحدة الموضوعية للحادثة التاريخية.

وتبرز وجهة الطبري في النقد الخارجي هذا بايراده عدة روايات عن الموضوع الواحد، أي في المقابلة بين هذه الروايات ، وتتكرر هذه المقابلة مرارا عديدة ، فهو يستعمل تعبير (واختلفوا في ذلك) ثم يعقبه باستعراض الروايات المختلفة لرواته. كما انه يستعمل تعابير اخرى تتضح خلالها وجهته النقدية هذه مثل : (وقد قيل في هلاك قحطبة قول غير الذي قاله من ذكرنا قوله من شيوخ علي بن محمد ، والذي قيل من ذلك ان ...)[٣] (اختلف في قدوم ابراهيم البصرة فقال بعضهم ...)[٤] (فذكر بعض اهل بغداد ... وذكر عمرو بن سعيد ... وذكر بعضهم)[٥] (وأما المدائني فانه ذكر عن محمد بن عيسى الجلودي قال ...)[٦] (وقيل كان خروج عبد الله الصحيح سنة كذا ...)[٧] وعن مقتل جعفر البرمكي ترد هذه الاسانيد (ذكر الفضل بن سليمان

---

(١) انظر علي سبيل المثال : التاريخ ٣٤١/٩.

(٢) انظر علي سبيل المثال : التاريخ ١٨٠/٩ –١٨٨.

(٣) التاريخ ١١٩/٩.

(٤) التاريخ ٢٥٠/٩.

(٥) التاريخ ١٥٠/١٠.

(٦) التاريخ ١٩٩/١٠.

(٧) التاريخ ٢٥٨/١٠.

... وذكر عن علي بن ابي سعيد ان مسرورا الخادم حدثه ... وذكر الزبير بن بكار ان جعفر بن الحسين اللهبي حدثه ... وذكر بعضهم ... وذكر محمد بن اسحق ان جعفر ابن محمد بن حكيم الكوفي حدثه قال حدثني السندي بن شاهك ...)[١].

بالاضافة الى ما ذكرنا من امثلة ، فان عنصر النقد والمقابلة يظهر بشكل متكرر في عدد من المواضيع ترد دائما في نهاية الحوليات كالوفيات والصوائف والادارة على الحج وتواريخ الاحداث وتعيين ولاة الاقاليم او عزلهم مثل : (واختلف في تاريخ وفاته – أي المنصور – فقال ابو معشر حدثني احمد بن ثابت الرازي عمن ذكره عن اسحق بن عيسى ... وروى عن ابن بكار انه قال .. وقال الواقدي : كانت مدت ولايته ... وقال عمر بن شبة: كانت مدة ولايته ..)[٢] (وغزا الصائفة سنة – ١٧٥ – فلان وقال الواقدي ان الذي غزا الصائفة في هذه السنة فلان)[٣] (وفيها – سنة ١٣٦ – توفي ابو العباس يوم ... بالجدري. وقال هشام بن محمد توفي يوم ... واختلف في مبلغ سنه يوم وفاته. قال بعضهم .. وقال بعضهم .. وقال الواقدي ...)[٤] (وفيها – سنة ١٨٧ – قتل فلان في قول الواقدي واما غير الواقدي فانه قال في سنة ١٨٨)[٥] وهكذا.

وبالرغم من ان الطبري لا يبدي وجهة نظره الخاصة بالروايات المختلفة ، ويقف منها موقفاً حياديا ، الا ان بعض التعابير التي يوردها في بداية اسانيده تنم عن ترجيح وتاييد لبعض الروايات ، وتضعيف وشك بروايات اخرى. فهو عندما يقول (ذكر) (قال) (حدثنا) (وقد حدثني) (واخبرني) فانه يوحي باطمئنانه الى الروايات التي يوردها ، ولكنه عندما يقول (وزعم) (وحدثت) (في قول فلان) (واما فلان فقد ذكر) فانه يوحي بشكه وعدم اطمئنانه. وفيما عدا ذلك لا يبدي الطبري وجهة نظر خاصة تجاه اية رواية.

إن التاكيد على الاسناد وعرض روايات عديدة عن الموضوع الواحد يؤدي غالبا الى تقطيع وحدة الحدث. الا ان الطبري استخدم – من جهة اخرى – ظاهرة الاسناد الجمعي على نطاق واسع ، وذلك عن طريق ايراد عدة روايات يكمل بعضها بعضا يتقدمها جميعا مجموعة رجال الاسناد الذين اسهموا بدرجة او اخرى بتقديم هذه الرواية المشتركة. وبهذا حافظ الطبري على وحدة عدد من الواضيع التي عرضها بهذا الشكل. ويستخدم الطبري اسناده الجمعي اما بصورة مباشرة ، أي مزج مجموعة روايات اخذها مباشرة عن رواته في عرض مسلسل واحد ، او

---

(١) التاريخ ٨٤/١٠.

(٢) التاريخ ٢٩٣/٩.

(٣) التاريخ ٥٣/١٠.

(٤) التاريخ ١٥٤/٩.

(٥) التاريخ ٩٤/١٠.

بصورة غير مباشرة عن طريق قيام احد رواته بدمج الروايات من عدة اسانيد وتقديمها للطبري كواحدة متسلسلة. وهذه بعض امثلة الاسناد الجمعي المباشر :

(وحدثني محمد بن معروف قال حدثني ابي ، وحدثني نصر بن قديد قال حدثني أبي ، وحدثني عبدالله بن محمد بن البواب وكثير بن النصر بن كثير وعمر بن ادريس وابن ابي سفيان واتفقوا على جل الحديث واختلفوا في بعضه ...)[١] (وذكر عن الفضل بن العباس بن موسى وعمر ابن ماهان انهما سمعا السندي يقول ...)[٢] (فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وابراهيم الحجي ...)[٣] (ذكر محمد بن يزيد التميمي وغيره ...)[٤].

أما الاسناد الجمعي غير المباشر فهذه بعض امثلته :(كذلك قال الواقدي وغيره ...)[٥] (حدثني احمد بن زهير قال حدثني علي بن محمد قال حدثنا سلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن اوس وابو حفص الازدي والنعمان ابو السري ومحرز بن ابراهيم وغيرهم ...)[٦]. (وذكر عبدالله بن راشد بن يزيد قال سمعت الجراح بن عمر وخاقان بن زيد وغيرهما من اصحابنا يقولون ...)[٧] (حدثني عبد الله بن راشد بن يزيد قال سمعت اسماعيل بن موسى البجلي وعيسى بن النضر السمانين وغيرهما يخبرون ...)[٨] (وحدثني خالد بن خداش بن بن عجلان مولى عمر بن حفص قال حدثني جماعة من اشياخنا انهم ...)[٩] (قال الكرماني وحدثني غير واحد ...)[١٠].

يقدم الطبري اخباره على اساس التسلسل الزمني أي العرض على توالي السنين ؛ وتقسيم التاريخ واحداثه على السنين يحتاج إلى جهد فائق من حيث تصنيف المادة وتقسيم الحادثة الواحدة على مداها الزمني وهذا يشير إلى مدى تمكن الطبري من التاريخ ، ولهذه الطريقة مزاياها وعيوبها التي سبق ان اشرنا اليها ، وعدم المحافظة على الوحدة الموضوعية للحدث مراعاة للتسلسل الزمني ، تبدو عيوبه في بحث الطبري عن بناء بغداد ، اذ ربما كان سبب عدم

---

(١) التاريخ ٢٤٤/٩.
(٢) التاريخ ٢٥٤/٩.
(٣) التاريخ ٧٣/١٠.
(٤) التاريخ ١٧٤/١٠.
(٥) التاريخ ١٤٨/٩.
(٦) التاريخ ١٥٩/٩.
(٧) التاريخ ١٩٧/٩.
(٨) التاريخ ٢٤٩/٩.
(٩) التاريخ ٢٥٠/٩.
(١٠) التاريخ ٣٥/١٠.

اسهابه في عرض خططها ومعالمها العمرانية ، اعتبار بنائها من الاحداث ، وبما ان الطبري يسير حسب النظام الحولي فانه ادخل هذا الحدث الحضاري في حولية (١٤٥هـ) ولم يعطه بابا خاصا مما يساعد على التوسّع فيه كما فعل الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد).

ولكن مما يعوض عن هذا النقص انه يعطي لبعض الاحداث اهمية كبيرة بحيث تشغل معظم الحولية ، ولا تبدو الاحداث الاخرى بجانبها سوى اشارات عابرة لا تؤثر على الاستمرار الموضوعي للحدث ، ويتضح هذا في كتابته عن الصراع بين الامين والمامون. واما ثورة العلويين فان حدوثها في اطار سنة واحدة ساعد كثيرا على اظهار وحدتها الموضوعية وعدم تجزئتها ، وهي بحد ذاتها تشكل فصلا رائعا اشبه بكتاب متكامل لا تعوزه التفاصيل او قواعد البحث سوى تكرار الاسناد مما يعرقل الى حد ما الوحدة الموضوعية للحدث. ومما يؤخذ على الطبري – كذلك – انه يذكر – احيانا – جزءا من الخبر ثم يتركه الى رواية جانبية ويعود ثانية الى استئناف عرضه للخبر[١].

وطريقة الطبري في عرض اخباره على الاساس الحولي تسير وفق نظام قلما يشذ عنه فهو يبدأ حوليته في معظم الاحيان بايراد مجموعة احداث مختصرة بدون اسناد ، وينتقل من ثم الى الأحداث المهمة حيث يذكر عنوانها ثم يورد تفاصيلها باسناد او بدون اسناد ، ويعود بعد ذلك لاستعراض مجموعة اخرى من الاحداث السريعة الموجزة دون اسناد ، وهو في هذه الحالة يبدأ روايته مباشرة او باحدى التعابير التالية (ذكر) (فيما ذكر) (قد قيل). وفي ختام الحولية يعرض الطبري اسماء عمال الاقاليم وامراء الحج في تلك السنة ، وتغدو سلسلة الاسناد لهذه المعلومات واحدة لا تتنوع الا نادرا حيث يبدو الواقدي المصدر الاساسي لها مما يجعلنا نتسائل هل كان للواقدي جداول احصائية عن عمال الاقاليم وامراء الحج في كل سنة ، ام انه اورد هذه المعلومات في ثنايا تاريخه الكبير الذي وصل الى عهد المعتصم ؟

راعى الطبري الى حد كبير فكرة التوازن الجغرافي والموضوعي في المصادر التي نقل عنها، ففي المواضيع الهامة التي عالجها كان يفضل المصادر القريبة من الحادثة او على صلة بها. فهو فيما كتبه عن البرامكة يتجه الى رواة من العائلة نفسها ويتمها بروايات مقابلة او معارضة ياخذها عن افراد من العائلة العباسية ؛ وهو فيما كتبه عن ثورة العلويين ياخذ عن رواة من الحجاز واخرين من العراق ولاسيما الكوفة ، أي انه يعتمد على رواة من جميع انحاء المنطقة التي كانت مسرحا للنشاط والثورة العلوية ، فهو يعرض لنا روايات علوية واخرى عباسية ، وثالثة محايدة. وهو في اخباره عن الصراع بين الامين والمامون يعتمد على روايات عراقية وعباسية تمثل وجهة النظر العربية ، كما يعتمد على روايات خراسانية وفارسية تمثل وجهة نظر الفرس

---

(١) انظر على سبيل المثال : التاريخ ١٦٠/٩.

وانصار المامون ، ويحاول قدر الامكان ان يكون محايدا يعرض لوجهات النظرالمختلفة دون تحزب او تميز.

يقدم الطبري مادته باسلوب انشائي فصيح هو الاسلوب الكلاسيكي الذي يستند في اساسه الى مؤثرات الدراسات الفقهية واللغوية ونجد في هذا الاسلوب نوعا من الرصف اللغوي الذي يعتمد كلمات وجملا على طريقة اللغويين ، يقابله نوع من عدم الاهتمام بابراز الجانب الفني الجمالي للاسلوب. وهذا الاسلوب يختلف في خصائصه عن الاسلوب الذي يمكن ان نلمحه بوضوح لدى الدينوري – مثلا – في كتابه (الاخبار الطوال) ، ويمكن اعتبار كل من هذين الاسلوبين مدرسة متميزة في الكتابة العربية ، فالطبري – اذا صح التعبير – يمثل الوجهة الكلاسيكية بينما يمثل الدينوري وجهة جديدة هي نتاج تفاعله مع ثقافات الامم والشعوب ، وهي شبيهة الى حد ما بالدرسة الرومانسية التي ظهرت في اعقاب الكلاسيكية ونادت بالابداع. فنجد الدينوري – مثلا – يعرض تاريخه باسلوب مشرق جميل ويسعى الى احياء الموقف التاريخي عن طريق طرح مواقف عديدة للحوار بين ابطاله ، وهو يمزج هذا الحوار مزجا داخليا في صميم الاخبار التي يوردها. ولا نلمح هذا لدى الطبري الذي يكثر من ايراد النصوص من رسائل وخطب واضعا اياها في ثنايا اخباره بشكل مصطنع لا يساعد على احياء الموقف التريخي ، وهو حتى فيما يورده من شعر لشاهدي عيان ومساهمين في الاحداث لا يبدو سوى ملتزم لنهج المدرسة اللغوية التي تعزز اراءها بايراد ابيات من الشعر.

وقد كان لالتزام الطبري نظام الحوليات في تاريخه اثر واضح في اسلوبه اذ منعه هذا النظام من عرض الحدث الواحد في اطار موضوعي شائق متسلسل – كما فعل الدينوري – كما ان استخدامه الاسناد بكثرة كانت له نفس النتائج السلبية فيما يتعلق بالاسلوب.

وأسلوب الطبري هو مزيج من عناصر تاريخية محدودة تتعلق بالحروب والسياسة وسير الملوك ، وبعض العناصر القصصية – خاصة فيما يتعلق بثورة العلويين حيث نجد قصصا واساطير في حنايا الاحداث – والطبري بالرغم من دراساته الفقهية الواسعة النطاق ، فاننا لا نلمح لديه – في هذه الفترة من تاريخه – اثرا كبيرا لتلك الدراسات ، فهو لا يقدم لنا قضايا فقهية في جانبها التاريخي– الحضاري ، ولا يحلل شخصيات الروّاد لفقهاء الرواة في تاريخ الاسلام كمالك وابي حنيفة والشافعي وأبي يوسف.

وفيما عدا ما قدمه الطبري عن بناء بغداد ، فان هذه الفترة تكاد ان تخلو من العناصر الجغرافية ((ورجل مثل الطبري قطع شوطا كبيرا من حياته في التنقل في اهم الاقطار الاسلامية والتي كانت مركز الحياة الثقافية في الشرق القديم ، وزار المواقع التي كانت تجاور اثار اقدم مدن العالم ، وكانت تناديه ليكتب تاريخها كتابة شاهد عيان ، ان هذا المؤرخ لم يكتب عن مشاهداته ولم يتحدث عن الخرائب التي مر بها ، او التي كان يتحدث عنها الناس ... ولم يدون

شيئا من تواريخ المدن التي مر بها على النقيض من المسعودي – مثلا – الذي سجل في تضاعيف كتبه ملاحظات .. وتحدث عن عادات الشعوب التي زارها .. وغرائب الطبيعة وغير ذلك. كل هذه الامور لم تلفت نظر الطبري ولم تحرك منه ساكنا))[1]. ويعود السبب الرئيسي لهذا في ان الطبري كان (عالما مولعا بالحفظ والرواية يهتم بالجمع وتركيز الروايات ، دون عناية بالفائدة العملية ، فلذلك تضاءلت وجهات نظره بازاء الرواة فلا يتبين رايه بين معرض الآراء)[2].

أما العناصر الاجتماعية فاننا نلمحها الى حد ما فيما كتبه عن سير الخلفاء كالمنصور والمهدي والرشيد ، اذ يعرض الطبري لنا حياة القصور الاجتماعية بدقائقها ، ولكن هذا العرض لا يتعدى حدود الطبقة العليا الحاكمة الى الشعوب والجماعات ، وهذا يقودنا الى فكرة الطبري التاريخية.

فكرة الطبري التاريخية :

إن البحث في فكرة الطبري التاريخية يتطلب دراسة معطياته التاريخية ، أي من خلال كتابه (تاريخ الرسل والملوك) في جميع فتراته : المبتدأ والسيرة والتاريخ الاسلامي ، حيث نجده يعبر بوضوح عن فكرة كتابة تاريخ عالمي يتمثل بتوالي الانبياء ، وهذا ينعكس في العنوان ذاته الذي اورده ياقوت (تاريخ الرسل والانبياء والملوك والخلفاء) فهو يرى في توالي الانبياء الذين ارسلهم الله (سبحانه وتعالى) لهداية البشرية حلقة مترابطة متماسكة تشير الى وحدة البشرية ووحدة تاريخها الذي هو وعاء تجاربها. كما نلمح فكرة اخرى هي وحدة تجارب الامة واتصالها عبر التاريخ الاسلامي ، لذا يتناول فترة الرسالة ثم يليها بالكتابة عن الخلفاء الراشدين فالامويين والعباسيين[3].

ولكن المهم هنا هو دراسة فكرة الطبري التاريخية من خلال معطياته عن هذه الفترة أي صدر الدولة العباسية ، وبالرغم من قصر الفترة وكونها جزءا يسيرا من الزمن الطويل الذي تناوله الطبري مبتدأ بالخليقة ومنتهيا عام (٣٠٢هـ) الا اننا نستطيع ان نلمح فيها احدى جوانب فكرته التاريخية.

فالطبري يتخذ – هنا – من توالي الخلفاء عمودا فقريا لدراسته التاريخية فهو يقسم هذه المرحلة على اساس فترات الحكم لكل خليفة ، ويخرج قارئ هذه الفترة وقد تبلور في ذهنه ان الخلفاء هم مركز الثقل والفاعلية فيها ، وان جميع الاحداث التي تقع في عصرهم انما يكون

---

(١) جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١/١٧٠.

(٢) جواد علي : المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٣) انظر : الدوري ، نشاة علم التاريخ عند العرب.

الخلفاء منطلقا او مردّاً لها ، والا فهي احداث جانبية لا اهمية لها بجانب هذه المراكز ومما يؤكد ذلك اسهاب الطبري في عرضه لسير الخلفاء واعطائه صورا شاملة تتعلق بتفاصيل الحياة داخل البلاط العباسي. وبجانب هذا الاهتمام يبدو البحث عن المجتمع الاسلامي واتجاهاته وفعالياته ضئيلا ويحاول (الحوفي) ان يبرز هذا الاتجاه لدى الطبري بقوله ((وقد يخفف من هذا الماخذ انه ليس بدعا في هذا الاتجاه بين مؤرخي عصره ولا بين مؤرخي العالم قبل العصر الحديث ، فقد نهجوا جميعا هذا النهج ، ومعذرتهم في عنايتهم بتاريخ الملوك انهم المسيطرون على الشعوب ، ولم يكن للشعوب ولا للرأي العام صوت في العالم الى القرن الثامن عشر ، حتى نطالب الطبري بان يسجل مظاهر قوتها ونهضتها ونظمها العامة في الاجتماع والاقتصاد والعادات))[١].

وهذان التبريران لا يقدمان اقناعا تاما ، فان اتجاه معظم المؤرخين المعاصرين للطبري في اتخاذ الملوك محاور للدراسة التاريخية ، لا يمنع الطبري – وهو احد كبار الرواة في حقول التفسير والتاريخ والفقه – ان يسلك طريقا مخالفا فيؤكد على الجانبين معا خاصة وانه ثبت كلمة (الامة) في عنوان كتابه ذاته وهو كمحدث وفقيه ومفسر ، ادرك المفاهيم الاساسية للقرآن الذي لا يؤكد في استعراضه التاريخي على الملوك بقدر ما يؤكد على العبر الخلقية المنتزعة من سير الشعوب والجماعات ، فضلا عن ان الفقه الاسلامي يطرح مفهوم (الاجماع) كمصدر من اهم مصادره. والحق ان تاثير القرأن على افكار المؤرخين وأساليبهم بحاجة الى دراسة مستقلة جادة لمعرفة الاسباب التي حالت دون الافادة من هذا المنهج العظيم في حقل التاريخ الى المدى الذي يجب الذهاب اليه[٢].

أما ان الملوك كانوا هم المسيطرين على الشعوب وان هذه لم يكن لها راي عام في الاحداث الا في القرن الثامن عشر فما بعد ، فهذا ما يرفضه التاريخ الاسلامي اشد الرفض ، فثمة امثلة كثيرة تفوق العد تؤكد دور الشعوب والجماعات في التاريخ الاسلامي ، هذا الدور الذي جاء الاسلام لكي يؤكده ويضع له الضمانات والحماية الكافية ، والذي عبر عنه العصر الراشدي اروع تعبير ، كما عبر عنه فيما بعد وقوف عدد كبير من قادة الراي العام الاسلامي وعلى رأسهم الفقهاء بوجه أي انحراف قد يبدو من الخلفاء الحاكمين ، وفي موقف مالك وابي حنيفة من ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم مثل واضح على ذلك.

في هذه الفترة ايضا يعزز الطبري اتجاهه في التاكيد على الجوانب العسكرية من احداث التاريخ ، فيعرض تفاصيل واسعة عن الثورات المسلحة ضد الخلافة العباسية كثورة العلويين ،

---

(١) الطبري : صفحة ٢١٩ ، سلسلة اعلام العرب.

(٢) انظر كتاب (التفسير الاسلامي للتاريخ) للمؤلف (دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٧٥).

وتمرد ابي مسلم الخراساني ، وثورة عبد الله بن علي العباسي ، والصراع بين الأمين والمأمون باسبابه ونتائجه. وفيما عدا الصفحات التي خصصها الطبري لبحثه عن بغداد وخططها فانه قلما كان يتطرق لنواح تتعلق بالمجتمع والخطط والتيارات الثقافية والحضارية.

يتخذ الطبري – كما يبدو من دراسة هذه الفترة – موقف الاختبار وحرية الانسان في تشكيل مصيره ، فهذه العائلة العباسية بعد ان انحرفت عن تنفيذ البرنامج الاجتماعي الواسع الذي اعلنته في مرحلة الدعوة ، تجابه بثورات عديدة كرد فعل لهذا الانحراف ، وما ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم الا محاولة لتغيير نظام الحكم الجديد الذي لم يكن في حقيقته الا صدى لنظام الحكم الاموي مع تبديل في الوجوه. لذا يقف الطبري من هذه الثورة موقف العطف ويلقي ظلا خفيفا على سياسة المنصور وشدته تجاه مؤيديها[١] ولكن هذا لم يمنع من ان يقف الطبري في معظم الاحداث ملتزما جانب الحياد[٢].

والطبري ، هنا ، واقعي يعرض الاحداث كما هي دون مبالغة او تهويل ، اذ نراه لا يتجه الى المبالغة في ايراد الشائعات التي كثيرا ما انتشرت في تلك الفترة. والحق ان فترة العصر العباسي الاول كانت ارضا خصبة لنمو شائعات كثيرة ورواج اساطير شتى ، خاصة بعد ما اصيب الفرس بخيبة امل شديدة في استعادة امجادهم من وراء العباسيين الامر الذي جعلهم ينسجون الاساطير عن عودة ابي مسلم جديد ، لكي يملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا !! ولا نجد الطبري يابه لهذه الاساطير فيما عدا مرتين او ثلاث. ثم اننا نجد واقعية الطبري وموضوعيته في تاكيده على النقد ولجوئه ، في كثير من الاحيان ، الى المقابلة النقدية بين رواياته المختلفة لعرض الحقائق مجردة عن الهوى ، الامر الذي اوضحناه فيما سبق من صفحات.

---

(١) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٣٢١/٩-٣٢٢.

(٢) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٢٣٢/٩ ، ٢٦٠.

دراسات بلدانية

(ملاحظات في خطط الحلة)

تعرضت بغداد في الثامن عشر من شهر محرم لعام (٦٥٦هـ) لهجوم القوات التترية بقيادة هولاكو ، واضطر قائد الخليفة العباسي الى التراجع بجيشه الضئيل الى قلب بغداد ، وتسلل عدد من الاهالي هاربين الى الحلة والكوفة[١]. وخلال الحصار ارسل اهالي الحلة وفدا علويا الى هولاكو ليلتمسوا اليه ان يعين لهم شحنة[٢] فاجابهم الى طلبهم وارسل كلا من ((خان بوكله)) والامير ((بجلي النخجواني)) ثم الحق بهما الامير التتري ((بوقا تيمور)) لجس نبض اهالي الحلة والكوفة وواسط والوقوف على مدى اخلاصهم للتتر. ولما شاهد بوقا تيمور ترحيبهم واخلاصهم غادر الحلة في العاشر من صفر متوجها نحو واسط[٣].

ما لبث التتر ان اخضعوا – في فترة قصيرة من الزمن – معظم انحاء العراق ، بعد ان قتلوا وفتكوا بعدد كبير من سكانه وخربوا مساحات واسعة من المواقع التي تصدّت لهم. كما قتل معظم افراد البيت العباسي باستثناء البعض ممن استطاع الفرار والنجاة. ويمكن القول بان المقاومة الجدية للغزو التتري بين سنتي (٦٥٦ و٦٦٠هـ) لم تقم الا في الجانب الشرقي من بغداد، وفي اربل وواسط والموصل[٤].

وهكذا نجد ان مدينة الحلة لم تبد أية مقاومة للتتر ، ولم يلحقها ، بناء على ذلك ، الحرق والتخريب والتهديم في القليل او الكثير ، كما لحق المدن والمواقع الاخرى ، ومن ثم يمكن اعتبار هذه المدينة – من حيث خططها العامة – استمرارا للعصر الذي سبق السيطرة التترية ، وان المصادر التي تصف خطط الحلة في الفترة السابقة هذه ، لابد وان تعطي ايضاحا – في الخطط على الاقل – لتلك المدينة في الفترة التالية كذلك.

ومدينة الحلة حديثة العهد بالنسبة لمدن العراق الاخرى ، فبينما اسست البصرة والكوفة في مطلع القرن الاول للهجرة ، وانشئت واسط في النصف الثاني منه ، وبغداد في النصف الاول من القرن الثاني ، نجد الحلة قد اسست في اواخر القرن الخامس للهجرة. وهذه المدن جميعا من نتاج الحضارة الاسلامية ، الا ان ما يميز الحلة عن المدن الاخرى في العراق ، ان تلك المدن انشئت بامر من خلفاء الدولة الاسلامية وباشرافهم المباشر كما هو الحال في بغداد ، او اشراف نواب عنهم كما هو الحال بالنسبة للبصرة والكوفة وواسط. اما الحلة فقد انشاها احد الامراء المحليين ، وهو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي ابن مزيد الاسدي ، وكان يسكن هو وقبيلته من بني اسد في منطقة النيل المتفرع عن الفرات الاوسط ، فلما قوي امره واشتد

---

(١) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ ، صفحة ٢٨٦.

(٢) هو الشخص المسؤول عن قضايا الامن والادارة ، وهي وظيفة استحدثها السلاجقة. انظر حسين امين: نظام الحكم في العصر السلجوقي ((مجلة سومر /مجلد ٢٠/سنة ١٩٦٤)).

(٣) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، صفحة ٢٩٥–٢٩٦.

(٤) جعفر خصباك الادارة الايلخانية في العراق ((مجلة كلية الآداب–حزيران ١٩٥٩، صفحة ٣٠)).

ازره وكثرت امواله ، لانهماك السلاجقة بالحروب والصراع فيما بينهم، انتقل باهله وعساكره الى منطقة تدعى ((الجامعين)) ، غربي الفرات ، ليبعد عن ملاحقة السلاجقة ، وذلك في مطلع عام (٤٩٥هـ) ، وكانت هذه المنطقة ((اجمة تاوي اليها السباع)) فاستقر بقبيلته هناك حيث بنى واصحابه المساكن الواسعة والدور الفاخرة، وسرعان ماغدت مدينة واسعة من افخر بلاد العراق واحسنها. واخذ التجار يقصدونها من كل مكان ، وغدت قصبة تلك المنطقة[١]. ومن هنا غدا اسمها : الحلة بعد ان كان يطلق على المنطقة اسم ((الجامعين)). فكلمة حلة لغة : ((القوم النزول وفيهم كثرة))[٢].

لم يمض سوى وقت قصير على انشاء الحلة حتى تفوقت في اهميتها وعمرانها على مدينة اخرى كانت قد انشئت في العصر الاموي في منطقة الفرات الاوسط ، وسميت باسم بانيها ((قصر ابن هبيرة)) ، وغدت في القرن الرابع الهجري اكبر مدينة بين بغداد والكوفة ، واشتهرت بكثرة اسواقها ، الا انه ما ان بدأ القرن السادس الهجري حتى كانت قد انحطت وضعف شانها بارتفاع شان الحلة ، بحيث ان موضعها اليوم اصبح غير معروف ، وان اشارت اليها الخرائط كمجموعة من الخرائب شمالي بابل القديمة[٣]. ولعل تحول الفرات المتعدد في مجراه كان سببا في ذلك.

كانت الحلة تقع على الجانب الايمن من فرع الفرات الذي كان يسمى انذاك نهر سورا ، وسرعان ما علا شانها بسبب وجود جسر عظيم معقود على مراكب متصلة ، وصار طريق الحج من بغداد الى الكوفة يمر بهذا الجسر بعد ان بطل الطريق المار بقصر ابن هبيرة والذي كان قد آل حينذك الى الخراب[٤]. وأغلب الظن ان هذا العامل الديني ، وهو الحج ، كان له اثره الكبير في السرعة التي تميز بها نمو هذه المدينة ، اذ ان موقعها على طريق الحج بالقرب من العاصمة بغداد جعل منها المحطة الكبيرة الاولى لقوافل الحجاج السنوية التي تجتمع في بغداد من مختلف انحاء العالم الاسلامي ، ثم تتجه الى مكة – تحت اشراف نواب عن الحكومة – مارة بالحلة. ويسهب الرحالة ابن جبير في وصف تلك القوافل المارة بالمنطقة ذهابا وايابا ، فيشير الى ان الخليفة العباسي هو الذي امر بعقد الجسر على الفرات اهتماما بامر الحاج واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون بالمراكب ... ((ومن مدينة الحلة يتسلل الحاج ارتالا ، وافواجا افواجا ، فمنهم المتقدم والمتاخر والمتوسط ، لا يعرج المستعجل

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، صفحة ٢٩٤–٢٩٥.

(٢) المصدر السابق ، ٢/٢٩٤.

(٣) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، صفحة ٩٧–٩٨.

(٤) المرجع السابق ، صفحة ٩٧–٩٨.

على المتعذر ولا المتقدم على المتاخر ، فحيث ما شاؤوا من طريقهم نزلوا وارتحلوا واستراحوا ...)) ويذكر كيف ان كثرة القناطر المعترضة طريق الحجاج بين بغداد والحلة هي التي كانت تضطرهم الى التفرق وعدم السير سوية ، ومن ثم يجدون في الحلة مجالا واسعا لاعادة تجمعهم وتنظيم سيرهم من جديد تحت اشراف امير الحج الذي يعينه الخليفة لهذا الغرض ، والذي يقيم في الحلة – في كل موسم – ثلاثة ايام لتنظيم مسير الحجاج[١].

إن الذاهب الى الحلة ، الان ، يجد على الضفة الغربية للنهر بقايا اسواق وخانات وبيوت قديمة تشير طريقة بنائها وتنظيمها وقدم اجرها الى انها بنيت منذ عهد قديم يعود الى عدة قرون. ولقد مر بنا شيئ عن ظروف بنائها وتطورها. ومن ثم اخذت تنمو وتتسع بشكل تدريجي ، وقد ساعدها موقعها على ذلك ، فهي في منطقة خصبة كثيرة المياه كثيفة الزراعة ، بالاضافة الى أنها تقع على خطوط المواصلات التجارية البرية والنهرية ، كما انها كانت – كما مر بنا – محطة مهمة لقوافل الحجاج القادمين من بغداد. وفوق ذلك كله لم تتعرض الحلة لهزات سياسية وعسكرية عنيفة كما حدث بالنسبة للمدن الاخرى كالبصرة على يد الزنج ، وبغداد والموصل على يد جحافل التتر.

وباستطاعتنا ان نلقي نظرة على خطط هذه المدينة ، في اواخر القرن السادس الهجري، بحيث نستطيع تكوين صورة تقريبية لها ، هذه الصورة التي استمرت محتفظة بسماتها الرئيسية طيلة القرن السابع الذي هو مدار البحث. وعلى هذا ، فان الصورة التي قدمها ابن جبير اثر زيارته للحلة في اواخر القرن السادس ، تساعدنا على تصور معالم المدينة خلال القرون التالية ايضا ، خاصة وان ابن بطوطة ، الذي زار المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، قد قارب في وصفه اياها سلفه ابن جبير الى حد كبير.

فالحلة ((مدينة كبيرة ، عتيقة الوضع ، مستطيلة ، لم يبق من سوارها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها ، وهي على شط الفرات ، يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها))[٢]. ولم يقتصر عمران الحلة عن الجانب الغربي من الفرات بل امتد فشمل بعض مساحات الجانب الشرقي كذلك[٣].

هذا هو اهم ما تقدمه لنا المصادر عن خطط الحلة. وعلى كل ، فان الذي يميز المدينة كونها ممتدة بشكل مستطيل على ضفاف النهر ، وانها كانت في البداية تقتصر على الضفة الغربية ، ثم اتسعت وامتدت الى الضفة الاخرى حيث اقيمت دور السكن والاماكن العامة

---

(١) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩–١٩٣.

(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٨٩.

(٣) المستوفي القزويني : عن لسترنج ، المرجع السابق ، صفحة ٩٧–٩٨.

والاسواق ، وهكذا غدا نهر الفرات يخترق المدينة من وسطها. الا ان سكنى الجانب الشرقي جاءت في وقت متاخر نسبيا ، اذ ان ابن جبير لم يتطرق لذكر شيئ من ذلك. وعلى ما يظهر لم تكن الحلة ، اثناء زيارته لها في اواخر القرن السادس الهجري ، قد شملت الضفة الاخرى ، اما القزويني الذي ذكر ذلك فانه من معاصري ابن بطوطة ((قبل منتصف القرن الثامن الهجري)). وهكذا راح هذا الجانب الجديد من الحلة يتسع ، حتى غدا – خلال عقود معدودة – ينافس الى حد ما الجانب الغربي. ثم اننا نجد ان الحلة كانت تشابه بقية المدن الاسلامية في العصر الوسيط من حيث احاطتها بسور ، لم يبق منه في القرن السادس الهجري ، سوى بقايا جدار ترابي مستدير. وكان الامير سيف الدولة صدقة – مؤسس الحلة – قد بنى هذا السور من طين[١] ليخلصها – الى حد ما – من هجمات واخطار القبائل العربية المحيطة بالمنطقة.

كانت المدينة قوية العمارة ، وهذا مايفسر وجود بقايا من اثارها حتى اليوم على الضفة الغربية للنهر ، ويشير ابن بطوطة الى كثرة هذه العمارة[٢] ، وهذه ظاهرة بالاضافة ، الى ازدحام السكان ، تشير الى سعة الحلة وامتدادها – في فترة قصيرة – شمالا وجنوبا على نطاق واسع ، كما تشير الى سبب اتخاذ الضفة المقابلة منطقة للسكنى. واذا ما اضفنا الى ذلك كثرة حدائق النخيل في المدينة ، داخلا وخارجا ، وانتشار دور السكنى بين هذه الحدائق[٣] ، عرفنا مدى سعة المدينة.

إن اشهر ما كان يميز الحلة – كمدينة كبيرة – انتشار بساتين النخيل في مناطقها المختلفة ، تلك البساتين التى شجع صدقة بن مزيد على زراعتها[٤]، بحيث غدت الدور محاطة بهذه الحدائق ، فكان ذلك سببا لرطوبة هوائها ، واعتدال مناخها. وربما كان كل بيت – في الحلة – يحتوي على مجموعة خاصة به من اشجار النخيل ، كما كان سائدا في بعض مناطق بغداد حتى العصر الحاضر ، وقد تفصل كل بيت عن الاخر مجموعة من الاشجار ، وبهذا لا يكون هناك اتصال مباشر بين البيوت مما يؤدي الى كثرة الممرات والدروب وعدم تداخل مناطق السكنى مع بعضها ، على العكس مما حدث بالنسبة للكوفة والبصرة على سبيل المثال. وربما كانت البيوت تشكل مجموعات متصلة مع بعضها ، تفصل بين كل مجموعة واخرى حدائق النخيل ، والدروب التي تتخللها.

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج٩ ، صفحة ٢٣٦.

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ٩ ، صفحة ٢٣٦.

(٣) تحفة الناظر : صفحة ٢٢٠.

(٤) رحلة بن جبير : صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ٢٢١.

واغلب الظن ان جسر الحلة كان يعد من اهم معالمها العمرانية ، على الاقل بالنسبة للسواح الذين زاروها في تلك الفترة ، حيث نجد كلا من ابن جبير ، وابن بطوطة من بعده ، يسرع في استعراض المدينة وبيوتها ومعالمها بكلمات معدودة لينتهي بالجسر ، حيث يسهب في وصفه فهو ((جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة من الشط الى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظما وضخامة ، ترتبط الى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة))[١]. وقد مر بنا كيف ان الخليفة العباسي امر بعقد هذا الجسر على الفرات اهتماما بالحجاج واعتناء بسبيلهم ، وكان هؤلاء ، قبل ذلك ، يعبرون بالمراكب. ويشبه ابن بطوطة الجسرين المعقودين ببغداد بجسر الحلة[٢] ، مما يشير الى مدى ضخامة هذا الجسر واهميته.

وتخلو المصادر من تحديد مكان السوق الرئيسي والمسجد الجامع ، واغلب الظن انهما كانا اقرب إلى الضفة منها إلى الجهات الداخلية من المدينة ليكونا على مقربة من النهر الذي يشكل الطريق الحيوي للذهاب والاياب والنقل التجاري. كما انهما كانا متجاورين شانهما في هذا شان معظم المدن الاسلامية. ومن المقطوع به انهما كانا يقعان في الضفة الغربية التي انشئت الحلة في ربوعها ، وهي التي تمثل الجانب الاكثر اهمية وقدما واتساعا من الضفة الشرقية. هذا وليس بين ايدينا ما يشير الى اماكن المؤسسات الاخرى في الحلة وبخاصة دار الامارة. ولمدينة الحلة ((اسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية))[٣] ولا ريب ان غنى المنطقة الزراعي وموقعها التجاري على شبكة من طرق المواصلات البرية، وصلاحية نهرها لسير السفن صعودا وهبوطا[٤] وكونها محطة لقوافل الحجاج العظيمة، قد ادى جميعا الى نمو اسواقها بحيث غدت حافلة جامعة للمرافق والبضائع المختلفة، وكانت الحركة التجارية في اسواقها مستمرة[٥] وتهافت اليها التجار من كل مكان ومن ثم اصبحت من ((افخر البلاد))[٦] وتجب الاشارة – كذلك – الى أن وجود عدد كبير من القبائل البدوية المحيطة بالمنطقة ادى الى ان تغدو الحلة مركزا تجاريا لتبادل المنتجات بين المراكز البدوية والحضرية.

أما الصناعة فلابد وان تكون الحلة قد بلغت مرحلة بعيدة من الرقي في نشاطها الاقتصادي بحيث احتوت اسواقها عددا كبيرا من الصناعات الضرورية ، كما يشير كل من ابن

---

(١) رحلة بن جبير، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠.

(٢) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٣.

(٣) رحلة بن جبير، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠.

(٤) رحلة بن جبير، صفحة ١٩٠.

(٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، صفحة ٢٤٥ ((حاشية)).

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٢/٢ (طبعة ليبزج) ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠.

جبير وابن بطوطة ، واغلب الظن ان الحلة كانت في هذه الفترة قد ورثت صناعات النسيج المختلفة وفنونها العريقة التي عرفتها منطقة الفرات الاوسط منذ قيام الحيرة في العهد الساساني ، خاصة بعد ما لحق قصر ابن هبيرة من خراب ، اذ كان هذا الموقع هو المركز التجاري والصناعي في المنطقة قبل ظهور الحلة.

فاذا ما انتقلنا الى النشاط الزراعي ، وهو الاساس الحيوي لاقتصاديات معظم البلاد آنذاك، فاننا سنجد الحلة والمناطق المحيطة بها بستانا واسعا لانتاج شتى الغلال والثمار بسبب خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ ، فضلا عن اهمية موقعها الذي يشجع على تصريف هذه المنتجات.

ويصف ابن جبير الطريق الصاعد من الحلة الى بغداد بانه ((احسن طريق واجملها في بسائط من الارض وعمائر ، تتصل بها القرى – أي المراكز الزراعية – يمينا وشمالا. ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب وتسقيها)). ويشير الى ان هذه الارض كانت منبسطة على امتداد النظر وان الامن فيها منتشر[١]. وهذا لاريب من اهم العوامل المساعدة على ازدهار النشاط الزراعي في المنطقة. ولنستأنف رحلتنا مع ابن جبير على الطريق بين الحلة وبغداد الى ان نصل ((قرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كثيرة المساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال ((باشجار)) الفواكه ، من احسن القرى واجملها ... والفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ... وقرى هذا الطريق – من الحلة الى بغداد – على هذه الصفة من الحسن والاتساع ...))[٢] والمنطقة بصورة عامة – فضلاعن هذا الطريق – كثيرة القرى والمزارع والضياع والمراكز الزراعية[٣].

واهم ما كانت تنتجه هذه المنطقة هو الحنطة والشعير والارز[٤] وقد بلغ انتاج الغلال هذا هذا حدا كبيرا جعل المنطقة اشبه بمخزن لتزويد العاصمة بغداد بالغلال في اوقات الحاجة[٥].

كما كانت تكثر في المنطقة زراعة الكروم[٦] وازدهر – كذلك – انتاج الفواكه المختلفة[٧] المختلفة[٧] بسبب وفرة المياه وملاءمة المناخ. هذا فضلا عن انتشار اشجار النخيل التي كانت

---

(١) رحلة بن جبير ، صفحة ١٨٩–١٩٠.

(٢) المصدرالسابق ، صفحة ١٨٩–١٩٠.

(٣) انظر : ابن الوردي ، خريدة العجائب ، صفحة ٣٩ ، ورحلة ابن جبير ، صفحة ١٩٠ ، والاصطخري مسالك الممالك ، صفحة ٨٧.

(٤) ابن خرداذبه ، السالك والممالك ، صفحة ٨ ، ١٠ ، رحلة بن جبير، صفحة ١٨٩–١٩٠.

(٥) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، صفحة ٤٤٧/٣٣١.

(٦) البكري ، معجم ما استعجم ، ج١ ، صفحة ٢٨٠ ، ياقوت (طبعة ليبزج ٤٤٧/١ ،١٨٥/٣).

(٧) رحلة بن جبير، صفحة ١٩١.

تغل انواعا مختلفة من اجود التمور[١]. كما انتشر في المنطقة نوع من القصب استخدم في بعض الصناعات المحلية[٢] وقد ساعدت كثرة الانهار والسطوح المائية على انتشاره. واعتمادا على هذا الازدهار الزراعي وبخاصة انتاج الغلال ، فضلا عن كثرة المراعي بسبب وفرة المياه ، انتشرت مهنة تربية المواشي والاغنام للاستفادة من منتجاتها في تنمية الدخل الفردي لعدد من سكان المنطقة ، تلك التي شهدت اعدادا كبيرة من قطعان الماشية والاغنام[٣].

أدى هذا النشاط الاقتصادي التجاري والصناعي والزراعي الى زيادة سكان مدينة الحلة ((وازدحامها بالخلق))[٤] وهنالك نص طريف يورده ابن جبير ، يشير الى مدى ازدحام المنطقة المحيطة بالحلة بالسكان حيث يقول ((رحلنا واجزنا جسرا على نهر يسمى النيل – يقصد جسر الحلة – وكان عليه ازدحام ، فغرق كثير من الناس والدواب في الماء ، فتنحينا مريحين الى ان انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية والحمد لله)) !![٥].

ويشكل العرب الغالبية العظمى لسكان الحلة التي تقع في منطقة يقطنها عدد من القبائل العربية كبني اسد وبني عقيل وبني عبادة وبني خفاجة ، فضلا عن ان نشأة الحلة واتساعها تم على يد امراء المزيديين من بني اسد الذين حكموا المنطقة فترة طويلة واعتمدوا على العرب الى حد كبير. والى جانب العرب كان هناك عدد لا بأس به من الاكراد[٦] واليهود حيث يشير الرحالة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي توفي في العقد السابع من القرن السادس الهجري ، الى ان عددا من اليهود يبلغ زهاء عشرين الفا كان يسكن بابل القريبة من الحلة[٧] هذا كما ان هناك عددا من الاماكن المقدسة كانت منتشرة في المنطقة ، كما كانت مدينة ((قصر ابن هبيرة)) كثيرة اليهود. ولما اندثرت هذه المدينة ، واتسعت الحلة على حسابها نزح كثير من سكانها – بما فيهم اليهود – واستقروا هناك ، منذ ذلك الوقت ، وهذا يفسر السرعة التي ازدهرت بها اسواق الحلة وفعالياتها الاقتصادية.

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٤/٩ ، رحلة بن جبير، صفحة ١٨٩، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، صفحة ٢٧٧. ابن بطوطة ، تحفة النظار ٢٢٠.

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ٢٧/١٠.

(٣) المصدر السابق ، ٢٩/٨.

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، صفحة ٢٤٥ ((حاشية)).

(٥) رحلة بن جبير، صفحة ١٩٠.

(٦) ابن بطوطة ، صفحة ٢٢٠ ، وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٦٠/٨ ، ٨٨ ، ٢٠٥.

(٧) رحلة التطيلي ، صفحة ١٤٠–١٤١ ، وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٣٨/٩ ورشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة ٣٢ ، ويتطرق ابن الساعي في كتابه ((الجامع المختصر)) ، صفحة ٦٥ الى وجود بيت يهودي في الحلة هو بيت كمونة اليهودي وأنه من البيوت المشهورة في القرن السابع الهجري.

ومعظم سكان الحلة كانوا يدينون بالمذهب الامامي ((الاثني عشري)) ، وهم ينقسمون الى طائفتين احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين ، ((والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبداً))[١] وتورد المصادر عددا من الروايات عن قداسة منطقة الحلة في نظر سكان تلك الجهات وانتشار الاضرحة والمقامات فيها. فهنالك على مقربة من شواطئ الفرات بين الحلة والكوفة قرية تذكر الروايات ان النبي الاسرائيلي حزقيال مدفون بها ، وقد ابدى اليهود دائما تقديسهم الشديد لهذا الضريح ، فكانوا يحجون اليه ويقدمون له الصدقات الوافرة[٢]. وفي مدينة الحلة نفسها انتشرت مشاهد ((الجمجمة)) والشمس ، والجامعان، وعلي بن ابي طالب (رضي الله عنه) والى اسفل من الحلة قرية تدعى ((شوشة)) يقبع فيها قبر ابي القاسم ابن موسى بن جعفر ((رضي الله عنهم))[٣].

تأثر سكان الحلة بالاعتقادات السائدة حول الاضرحة والمزارات ، واصبحت لهم بالتدريج مجموعة من العادات والتقاليد المذهبية ، منها خروج مائة رجل من اهل المدينة كل مساء بكامل اسلحتهم ، حيث يتجهون الى امير المدينة بعد صلاة العصر فياخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة فيضربون الطبول والبوقات امام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشي اخرون عن يمينها وشمالها ، وياتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله اخرج. قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل. ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون الابواق والطبول الى صلاة المغرب. وهم يقولون ان محمدا بن الحسن العسكري دخل المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج، وهو الامام المنتظر عندهم[٤] ويشير ابن بطوطة الى ان اهل الحلة كانوا متطرفين في اعتقادهم المذهبي وانهم ((رافضة غالية)). وكذلك الحال بالنسبة لعدد من القرى القريبة من الحلة[٥].

غدت الحلة في وقت قصير – بعد بنائها – عاصمة للمنطقة الوسطى من العراق ، وقضت على شهرة واهمية المدن الاخرى في المنطقة كالكوفة وقصر ابن هبيرة وغيرهما. وقد حكمت في هذه المدينة ، منذ تاسيسها عام (٤٩٥هـ) ، اسرة بني مزيد الاسدية حكما ذاتيا ، فترة تزيد على نصف القرن[٦] ظهر خلالها عدد من الامراء المزيديين الذين كان لهم دور في الاحداث السياسية التي شهدها العراق طيلة هذه الفترة. وقد ساعد وجود هذه الامارة في الحلة

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠.

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة٣٢.

(٣) الهروي ، الاشارات الى معرفة الزيارات ، صفحة ٧٦.

(٤) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠-٢٢١.

(٥) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠-٢٢١.

(٦) انظر زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، مجلد ٢ ، صفحة ٢٠٧-٢٠٨.

على نمو هذا المركز في شتى المجالات العمرانية والدينية والبشرية والاقتصادية ، حيث مرت الحلة في عهد هذه الاسرة – رغم طابعها البدوي – في فترة من الهدوء والاستقرار مهدت لنمو مرافقها المختلفة. وفي عام (٥٥٩هـ) ، وجهت الضربة الاخيرة لبني مزيد الاسديين في الحلة ، حيث توجه اليهم الخليف العباسي المستنجد بالله على راس قواته ، وتمكن من اجلاء بني اسد – وبضمنهم المزيديون – عن المنطقة بمساعدة بعض القبائل المجاورة[١] لذا نجد المدينة تغدو ، بعد هذا الهجوم ، مجالا لتحكم القبائل العربية المجاورة.

وفي أثناء زيارة ابن بطوطة للعراق ، في اواخر العقد الثالث من القرن الثامن الهجري، اشار الى مدينة الحلة بقوله ((كان قد غلب عليها ، بعد موت السلطان – الايلخاني – أبي سعيد، الامير محمد بن رميثة ابن ابي نمي امير مكة ، وحكمها اعواما ، وكان حسن السيرة يحمده اهل العراق ، الى ان غلب عليه الشيخ حسن – الجلائري – سلطان العراق ...))[٢].

وهكذا تقلبت الحلة بعد سقوط بني مزيد في ايد عديدة الى ان غدت جزءا من ممتلكات الدولة الجلائرية التي قامت في العراق على انقاض الايلخانيين قبيل منتصف القرن الثامن الهجري. وكانت حتى ذلك الحين من الاهمية والسعة بحيث جذبت اليها انظار الرحالة الجغرافيين ، فخصصوا لها فقرات من تصانيفهم لوصفها وتوضيح معالمها.

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، ١١/١١٩–١٢٠.

(٢) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٢.

أهم المصادر

١. **الاصطخري** : ابو اسحق ابراهيم بن محمد ((ت ٣٤٦ هـ)). مسالك الممالك : نشر دي غوية، بريل- ليدن ، (١٩٢٧).

٢. **ابن بطوطة** : محمد بن عبد الله اللواتي ((ت ٧٧٩هـ)) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : بيروت ، (دار صادر-١٩٦٠).

٣. **البكري** : ابو عبدالله بن عبدالعزيز البكري ((ت ٤٨٧ هـ)). معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع : تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة، (١٩٤٥-١٩٥١).

٤. **بنيامين** : ابن يونه التطيلي الاندلسي ((٥٦١-٥٦٩هـ)) الرحلة : ترجمة عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، (بغداد-١٩٤٥).

٥. **ابن جبير** : ابو الحسين محمد بن احمد الاندلسي ((ت ٦١٤هـ)). الرحلة : دار صادر ، بيروت (١٩٥٨-١٩٥٩).

٦. **ابن الجوزي** : ابو الفرج عبد الرحمن ((ت ٥٩٧هـ)).
المنتظم في تاريخ الملوك والامم : مطبعة دار المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٨.

٧. **ابن حوقل** : ابو القاسم محمد بن علي ((ت ٣٦٧ هـ)).
صورة الارض : نشر دي غوي ، ط٢ ، (ليدن – بريل ١٩٣٨).

٨. **رشيد الدين** : فضل الله الهمداني ((ت ٧١٨هـ)).
جامع التواريخ : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، (القاهرة -١٩٦٠).

٩. **ابن الفوطي** : أبو الفضل عبد الرزاق ((٧٢٣هـ)).
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، (بغداد-١٣٥١هـ).

١٠. **الهروي** : ابو الحسن علي ((٦١١هـ)).
الاشارات الى معرفة الزيارات : تحقيق سورديل ، دمشق – ١٩٥٣.

١١. **ابن الوردي**: عمر بن مظفر بن عمر ((٧٤٩ هـ)).
خريدة العجائب وفريدة الغرائب : المطبعة الشرقية ، (مصر-١٣١٤هـ).

١٢. **ياقوت الحموي** : شهاب الدين ابو عبدالله ((ت٦٢٦هـ)).
معجم البلدان : (بيروت ، دار صادر-١٩٥٧) ، ليبزج (١٨٦٦-١٨٧٠). ((تحقيق فستنفلد)).

نقــد

(الصفحات الاخيرة من حضارتنا)

يبدأ (عبد الحليم عويس) بحثه[1] بالاشارة الى ان (المكتبة الاسلامية والتاريخية حافلة بالدراسات والقصص حول الصفحات الوضيئة من تاريخنا .. ولكم كتب الكاتبون حول صناع الحضارة الاسلامية ولكم اطنبوا في الحديث عن ابطالنا وعن فضلنا على اوربا وغير اوربا. ولقد ظهر تاريخنا من خلال هذا التركيز وكانه تاريخ اسطوري وكأن الذين عاشوه واسهموا في صنعه ملائكة وليسوا بشراً – صفحة ٤). ثم يستعرض النتائج الخطيرة التي تمخضت عن هذا (المنهج) واولاها ترك مهمة التحليل العلمي لتاريخنا لاعداء هذا التاريخ الذين راحوا يركزون على الجوانب السلبية منه ، وثانيهما ضياع الحقائق الموضوعية المتصلة بهذا التاريخ وانقسام الناس بصدده الى قسمين قسم يرفضه بالجملة وآخر يراه كل شيئ ، وثالثها ان التركيز المتزايد على (المديح) صرفنا عن الاستفادة الحقيقية من تاريخنا ودفع البعض الى الاعتقاد بان ما نعانيه في هذا القرن من مشاكل وتحديات نموذج لم يتكرر في تاريخنا ، فقادهم الى طريق الياس المسدود.

يبني الباحث منهجه – استنادا الى الرغبة الجادة في تجاوز هذا الموقف – على تناول الصفحات الاخيرة في حضارتنا من خلال التركيز (على سقوط دول اسلامية بعضها كان درسا ابديا حين كانت الامراض خبيثة وفتاكة ، وحينما ذهبنا نطلب الدواء من عدونا فكانت فرصته لاعطائنا السموم القاتلة – صفحة ٥).

ولم ينس ان يشير الى ان (اكثر الصفحات في حضارتنا كانت مجرد تغيير في هيئة الحكم بحثا عن طموح شخصي، او انطلاقا من دعوى عنصرية او دفاعا عن نعرة مذهبية ، او فشلا من دولة كبيرة جامعة كالعباسيين والامويين في السيطرة على كل ما تحت يدها مما يمنح الفرصة للمطامع ان تظهر وللنعرات ان تحكم – صفحة ٦). ويعود الباحث ليشير في نهاية مقدمته الى ان (هذا البحث دعوة لتشريح تاريخنا من جديد .. وبجرأة ، فلان نشرحه نحن – بانصاف – اولى من ان نتركه لادعياء المنهج العلمي يشرحونه بحقد وعنف واجحاف – صفحة ٨).

نلتقي – بعدئذ – بعرض مركز لخطواتنا الاخيرة في مراحل السقوط عبر ساحات ثلاث: الساحة الاندلسية فالمشرقية ثم المغربية ، وعبر كل ساحة من هذه الساحات يتجول الباحث ليقف قليلا عند تجاربها المؤلمة واخطائها المدمرة وممارساتها الخاطئة التي قادت تجاربها السياسية الى التدهور والسقوط ، محاولا ان يسلط اضواءه على البقع السوداء من تاريخنا لتشخيص مواطن الداء وتبيين الاسباب الحقيقية للضعف والتفتت والانهيار ، ومتجاوزا بذلك مناهج الاجيال السابقة من مؤرخينا التي كانت تعتمد الاغضاء عن هذه البقع وكأن تاريخنا تاريخ مجتمعات ملائكية سداها الطهر ولحمتها النور – تلك المناهج التي اعطت الاشارة لمدعي المنهج العلمي في

---

(١) نشر المختار الاسلامي ، (القاهرة–١٩٧٥).

البحث ، فجاسوا خلال تاريخنا – وهم يحملون – مسبقا – رؤيتهم المدخنة السوداء ، فما لبثوا ان وقعوا في الطرف الاخر من الخطيئة عندما تعمدوا الاغضاء عن مساحات الضوء في هذا التاريخ وكأنه تاريخ حفنة من الشياطين والمردة سداها الكراهية ولحمتها البغضاء.

في الساحة الاندلسية يحدثنا الباحث عن خطيئة التشبث بالغنيمة وكيف انها اوقفت (آخر خطوات المد الاسلامي في اتجاه اوربا)[1]. في معركة بلاط الشهداء (توقف المد. لان بريق المادة غلب على اشعاعات الايمان. والذين يسقطون في هاوية البحث عن الغنائم لا يمكن ان ينجحوا في رفع راية عقيدة او حضارة – صفحة ١٢)[2].

في عام (٤١٧هـ) قضي – نهائيا على وحدة الخلافة في الاندلس بسقوط الامويين حيث (قامت على انقاضهم مجموعة دويلات هزيلة عرف عهدها بعهد ملوك الطوائف الذي كان من اكثر عهود المسلمين في الاندلس تفككا وضعفا وانحدارا نحو هاوية السقوط) ويضع يده على السبب (ان هؤلاء الامويين لم يفهموا سمات التكوين الاندلسي ، او فهموه ولم يقدموا بما تتطلب طبيعته. وابرز سمات هذا التكوين وجود النصارى في ترقب دائم لأية ثغرة ينفذون منها ، وتباين الاجناس التي تعيش على ارضهم وتستظل برايتهم ، لا يجمعها الا اقوى وشيجة في التاريخ وهي الاسلام. ولم يكن هناك من حل حضاري لمواجهة طبيعة هذا التكوين الا تعميق (الاسلامية) وتجديدها بين الحين والحين بحركات جهاد مستمرة ضد الممالك النصرانية المتحفزة .. وحركات جهاد تمتص (المشاكل الجنسية الداخلية ، وفي الوقت نفسه توقف النصارى عند حدودهم وتجعلهم في موقف الدفاع لا الهجوم – صفحة ١٤).

تمزقت الاندلس الأموية ، ولم يجيء تمزقها وسقوطها دفعة واحدة ، فلقد (جرى عليها ما جرى على الفاطميين بعد ذلك في مصر ، وما جرى على المماليك ايضا ، لقد ضاعت

---

(١) هنالك من يرى ان بلاط الشهداء لم تكن خاتمة الهجوم الاسلامي على اوربا الغربية وان كانت غيرت من الاتجاه الاستراتيجي لهذا الهجوم حيث استهدف عبر العقود والقرون التالية سواحل اوربا الجنوبية وجزر البحر المتوسط وحيث وصل المسلمون الى اطراف سويسرا وانشاؤا لهم امارة هناك. كما توغلوا في الجانب الغربي لايطاليا حتى حاذوا سهل لومباردي (انظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا لرينو).

(٢) في بحث حديث كتبه الدكتور علي المياح (استاذ الجغرافية في جامعة بغداد) ونشرته مجلة (المحارب) العراقية قبل ثلاث سنوات نلتقي بدراسة ميدانية للظروف والمصاعب الطوبوغرافية والمناخية التي جابهتها حملة الغافقي في اقاليم فرنسا الجنوبية الغربية ، وانها – وليست الغنائم – كانت السبب الرئيسي في هزيمة المسلمين. ويبدو ان مؤرخينا القدماء كانوا يتخذون من مسألة الغنائم في بعض الاحيان مشجبا يعلقون عليه اسباب هزائم المسلمين بين الحين والحين. وان كنا لاننفي هنا دور الاغراء المادي في مصائر الحروب .. فليست معركة احد عنا ببعيدة. وليست ايات القرآن العديدة التي تؤكد هذه المسالة حتى على مستوى الجماعة المؤمنة نفسها ، ليست هي الاخرى ببعيدة.

الزعامة منهم عبر انقلاب سلمي لم ترق فيه قطرة دم بالمعنى المباشر للانقلابات الدموية – صفحة ١٥). ولقد ورث خلافة الامويين اكثر من عشرين حاكما في اكثر من عشرين مقاطعة او مدينة (وقد انقسم هؤلاء الحكام الى بربر وصقالبة وعرب وكانت بينهم حروب قومية لم تخمد اوارها طيلة السنوات التي حكموا فيها ، ولقد ترك هؤلاء الملوك المستذلون الضعاف الملوك النصارى يعبثون بهم ويتقدمون في بلادهم ، وانشغلوا هم بحروبهم الداخلية ، وباستعداء النصارى ضد بعضهم البعض ، وتسابقوا الى كسب ود النصارى وامتهنوا بذلك كرامتهم وكرامة الاسلام فدفعوا الجزية ، وتنازلوا طوعا عن بعض مدنهم للنصارى ، وحاربوا في جيوش النصارى ضد المسلمين من اخوانهم والمدن الاخرى من ارض الاندلس الاسلامية–صفحة ١٦).

ويقف الباحث بعض الوقت عند تجربتي بني عباد وبني الاحمر (آخر قوة اسلامية في الاندلس) لكي يحلل طبيعة الاخطاء والممارسات التي قادتها الى التدهور والزوال ، وهو تحليل ينسحب – ولا ريب – على سائر الدويلات العشرين التي شهدتها الساحة الاندلسية (فحين يبحث كل عضو منا عن نفسه تسقط سائر الاعضاء–صفحة ٢٥).

في الساحة المشرقية ينتقل الباحث عبر مصارع بضعة عشر دويلة اسلامية ، مكثفا في بدء عرضه للدويلة او في ختامه ، القوانين والسنن التي قادت (التجربة) الى البوار .. وهو التكثيف الذي اعتمده في كتابه كله والذي يعد بحق ابرع ما في البحث رغم تعميميّته احيانا.

(الانتصار في معركة – يقول الباحث بصدد الحديث عن سقوط الدولة الطولونية في مصر – والحصول على مكسب وقتي ، والوصول الى السلطة ... هذه كلها ليست هي قضية التاريخ ، ولا معركة التقدم البشري ... بل هي عموما ليست من عوامل تحريك التاريخ الى الامام او الخلف على نحو واضح وضخم. ان الانتصار في معركة قد لا يعني الهزيمة الحقيقية ، فحين لا تتوفر العوامل الحقيقة للنصر يصبح أي نصر مرحلي عملية تضليل واستمرار للسير الخطا تماديا في طريق الوصول الى الهزيمة الحقيقية .. هكذا سار التاريخ في مراحل كثيرة من تطوراته .. كان النصر بداية الهزيمة ، وكانت الهزيمة بداية النصر. وحين يصل انسان ما الى الحكم ، دون ان يكون معدا اعدادا حقيقيا للقيادة ، ودون ان يكون في مستوى امته ، يكون وصوله على هذا النحو المسمار الاخير الذي يدق في نعش حياته وحياة الممثل لهم. والتاريخ في دوراته غريب ، وهو يعلمنا انه لا توجد قاعدة ثابتة للتحول ترتكز على اسس متينة ، اللهم الا قاعدة التغيير من الداخل المرتكزة على عقيدة لها جذورها في اعماق النفس ، ولها انسجامها مع حركة الكون ولها صلاحياتها في البقاء والانتشار والخلود – صفحة ٣٢–٣٣).

أما الصفارون في بلاد فارس فقد (سقطوا كما تسقط كل حركة انفصالية ترتكز على طموح شخصي وتفتقر الوعي بحركة التاريخ وبايديولوجية قتالية واضحة تستاهل الموت في

سبيلها .. ودائما يعلمنا التاريخ الاسلامي : ان الاندفاع غير الموضوعي وغير المتناسق مع روح التطور ، لا مصير له الا الموت السريع – ٣٧).

وأما الاخشيديون في مصر فانه حتى لو لم يتم لجوهر الصقلي – القائد الفاطمي – ان يصل الى حدود مصر فانهم كانوا سيسقطون بفعل عامل اخر. فعندما لا يكون هناك مبرر للوجود، لا يكون ثمة دافع للبقاء. ولاتفعل القوى الخارجية التي تسيطر على الامم والشعوب سوى ان تتقدم في فراغ دون ان تصطدم بجدران حضارية او صخور قوية راسخة بالعقيدة بمبرر الوجود ومؤهل البقاء – (صفحة ٤٠).

ولم تكن الدولة السامانية فيما وراء النهر (اكثر من حركة قومية غرقت في احياء تراثها الخاص، كما انها لم تكن اكثر من حركة انقلابية قامت باسلوب الطفرة غير الطبيعة وانتهت كذلك باسلوب الطفرة غير الطبيعية سنة (٣٠٨هـ) بعد ان عاشت في ظل حماية ضعف الخلافة قرنا من الزمان – (صفحة ٤٢–٤٣).

أما البويهيون في بلاد فارس والعراق فما كانوا باكثر من اسرة متسلطة (وكما هي العادة في امثال هذه الأسرة .. انها سريعة الانقسام على نفسها شديدة التنافس فيما بينها ، وهكذا سقطت الاسرة البويهية الى حضيض الانقسام والتناطح الداخلي .. ان سيطرة عنصر من العناصر المتعصبة قوميا او المتاثرة بخلفية تاريخية لم تتخلص من شوائبها هو ابرز ما واجه ركب مسيرتنا الحضارية والتاريخية. وبالقومية المتعصبة وباصحاب النزعات المشبوهة وذوي الولاء لحضارات معاكسة لنا ولخطنا الحضاري .. بهؤلاء تمت عملية سقوطنا المتكرر في مراحل تاريخنا. ولكن تاريخنا الذي تتدخل فيه ارادة الله بحفظ هذا الدين كي يظل المعلم المضئ في ليل البشرية الطويل المظلم ، هذا التاريخ يجد مع كل نكبة تاريخية او فترة من فترات التداعي والهبوط، من يعيد الى الجسم حيويته ويمنع عنه السقوط القاتل. وهكذا انبعث من جديد ، من بين الاتراك انفسهم ، عنصر اسلامي مجاهد ، اعاد للخلافة شبابها ، ونجح قائد الاتراك السلاجقة (طغرلبك) سنة (٤٤٧هـ) في ان يقضي على دولة البويهيين .. لقد تعبت الامة من سيادة البويهيين اشد التعب .. وسقطوا .. لان التاريخ يعلمنا دائما انه : بانفصال راس الامة عن جسدها تتعطل طاقات الحياة فيها – (صفحة ٤٥–٤٦).

وأما الدولة الحمدانية في حلب فقد تمثلت قوتها في شخص هو سيف الدولة (وكعادة الدول التي ترتبط باشخاص تسقط بسقوطهم .. وكان اكبر عامل حضاري زحزح الدولة الحمدانية عن مكانها في التاريخ انها فشلت في الاستجابة للتحدي – البيزنطي – الذي كان اقوى منها ، ولم تنهج النهج السليم في مقاومته ، عن طريق ايجاد وحدة اسلامية تتجاوز الصراعات لتواجه الخطر الحضاري الكبير وعندما تفشل دولة في الاستجابة للتحدي الذي يفرضه القدر عليها ، فانها ، وان قاومت قليلا ، لابد ان تسقط – (صفحة ٥٠–٥١).

والسلاجقة انفسهم سقطوا (لأنهم لجأوا الى نظام الاقطاعات واسندوا معظمها الى شخصيات سلجوقية وقد حسبوا ان هذا من شانه ان يشغل السلاجقة عن التفكير في الحكم ، وان يرضيهم بالبعد عن السلطة ، لكن الاقطاعيين السلاجقة سرعان ما حاول كل منهم ان يكّون لنفسه من اقطاعاته امارات صغيرة حاولت كل منها الانفصال عن السلطة ، وهو عكس ما كان يهدف اليه السلاجقة الحكام. وقد ادى هذا الى تفكك وحدة السلاجقة والى اجهاد السلطة السياسية المالكة .. وتبقى كلمة التاريخ الموحية : فان السلطة غير الحازمة ، والتي تقبل التهاون في وحدة الدولة ارضاء لبعض العناصر او الشخصيات ، لابد وان تدفع ثمن تهاونها يوما .. وهكذا كان يجب ان يفهم السلاجقة وغيرهم من زعماء الدول ، الذين يقبلون نصف الحكم او شيئا من الحكم، دون وعي منهم بان سيادة الدولة لا تتجزأ وبان انصاف الحلول مقدمة طبيعية لزول الحكم كله – (صفحة ٥٢-٥٣).

أما الفاطميون فقد مارسوا الخطأ القاتل باستعانتهم بعدوهم التاريخي ، وفقدانهم القدرة على الرؤيا الصحيحة (والتسامح قضية كبرى من قضايا حضارتنا ، ومبدأ عظيم من مبادئ اسلامنا. لكن هذا التسامح – بترك الناس يحيون وفق معتقداتهم – شيئ ، وتسليمك مقاليد الامور لهذا الذي ينتمي روحيا لاعدائك ، ويشعر بتعاطف نحو من تحارب ، وتقل حصانته – مهما يكن – عن اخيك المسلم .. تسليمك هذا شيئ اخر بعيد عن التسامح .. انه نوع من الغفلة والحماقة ، او بتعبير اخر نوع من الانتحار. وفي الدولة الفاطمية التي قامت في المغرب العربي سنة (٢٩٦هـ) وانتقلت قيادتها الى مصر سنة (٣٦٢هـ) ، كانت ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى سمة من سمات الحكم في الدولة ، فمن هؤلاء كثير من الوزراء وجباة الضرائب والزكاة ، والمستشارون في شؤون السياسة والاقتصاد والعلم ، ومنهم الاطباء والثقات لدى الحكام، واليهم تحال معظم الاعمال الجسام .. وقد بلغ من حب العزيز الفاطمي لوزيره يعقوب بن كلس اليهودي أنه ترك له أمر الدعوة إلى المذهب الفاطمي ، وكان هذا الاخير يجلس بنفسه يعلم الناس فقه الطائفة الاسماعيلية ، وقد الف نفسه كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز والعزيز الذي قال ((وددت لو انك تباع فابتاعك بملكي)) .. لقد نسى الفاطميون الاستراتيجية الاسلامية العالمية : ﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ – (صفحة ٥٤ ، ٥٦) .. فسقطوا !!

أما الأيوبيون فسقطوا لان الحكام الذين جاؤا بعد صلاح الدين كانوا اقل من صلاح الدين ، اقل بكثير (فلم يستطيعوا لعب الدور الذي لعبه ، وكان بعضهم متخاذلا يؤمن بامكانية المفاوضات مع العدو الصليبي التاريخي – صفحة ٥٩).

وعندما يجئ الباحث الى الدولة العباسية يستبعد حركات الانشقاق وتحكم العناصر في سقوطها ، ويرى ان اخطر العوامل على الاطلاق هو اهمال العباسيين لركن هام من اركان

الاسلام وهو (الجهاد) .. (لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية فحصرتهم وماتوا ببطء ، ولو انهم وجهوا طاقة الامة نحو الجهاد لتغير امر الحركات الهدامة التي قدر لها ان تظهر وتنتشر ، ذلك ان هذه الحركات لا تنتشر الا في جو مليء بالركود والفساد ، والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية ويذيب المعدن الرخيص .. والذين لا يملكون ارادة الهجوم يفقدون القدرة على الدفاع – صفحة ٦٢-٦٣).

والمماليك في مصر سقطوا لانهم (نسوا الرسالة التي عاشوا من اجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشانها. نسوا رسالتهم في الدفاع الخارجي وتبلدوا عند اسلوب معين ، ولم يطورا انفسهم ، ثم تطوروا فانقلبوا من حماية خارجية للامة الى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها – صفحة ٦٥-٦٦).

فاذا ما انتقلنا الى الساحة المغربية فاننا نلتقي بحشد اخر من السنن والقوانين التي يفسر بها الباحث تدهور وسقوط تجاربها السياسية واحدة تلو الاخرى : الأغالبة في تونس والبحر المتوسط (لان الدول الانفصالية لايمكن ان تقف امام الحضارات الجامعة التي تمثل كيانا له ابعاده الحضارية المتكاملة ، وهكذا فانهم لم يستطيعوا ان يصمدوا امام كيان الفاطميين الحضاري الزاحف وهو كيان له راية ايديولوجية يقف تحتها ، مهما اختلفنا في ابعاد هذه الراية او هذه الايديولوجية – صفحة ٨٤).

والخوارج في الجزائر لانهم (تحولوا في ظل دولتهم الرستمية الى رجال حكم ودولة اكثر منهم رجال عقيدة ودعوة .. وجلي ان الذي لا يتقدم يكون عرضة للتاخر. وهكذا تاخر الرستميون بعد ان فقدوا روحهم النضالية – صفحة ٨٦-٨٧).

والادارسة في المغرب لانهم لم يكونوا اكثر من مجرد حركة انفصالية ... (والسقوط – وان كثرت المقويات والمساعدات – هو مصير كل الحركات الانفصالية – صفحة ٩٠).

والمرابطون في المغرب لان (.. حركة التاريخ التي تقودها سنة الله التي لاتتخلف كانت تاكل دولة المرابطين التي تركت امرها لمجموعة من ضيقي الافق ومرتزقة الكلمة ، وهؤلاء لا يفهمون اصول الاسلام .. ولا روح الحكومة الاسلامية الحقيقية – صفحة ٩٦).

وبنو صنهاجة .. وبنو حماد .. والموحدون .. (ومن خلف مسيرة الدم والعنف ، بقي قانون الله في القصاص عبرة للذين يعتبرون ، فالدم هو طريق الدم ، اما الذين يحاولون صنع الانسان او صنع حضارته فلهم طريق آخر .. كريم ونظيف صفحة ١٠٤).

تلك هي المسائل الاساسية التي يطرحها الاخ عويس في بحثه الذي بين يدينا .. ولنا ان نتساءل عن عنوان البحث نفسه (الصفحات الاخيرة من حضارتنا) هل كان الباحث دقيقا في اختياره ؟ واذا كانت حضارتنا وحدة متماسكة لها شخصيتها ونفسها وملامحها وروحها ، بغض النظر عن هذه الوحدة ومتانة تلك الشخصية او ضعفها .. اذا كانت هذه الحضارة لم تاخذ

– بمجموعها – طريقها نحو التوقف والتعثر والجمود – ولا اقول السقوط – الا في القرون الثلاثة او الاربعة الاخيرة من تاريخ العالم ، واذا كان المؤلف نفسه يؤكد في مقدمة بحثه على ان اكثر هذه الصفحات الاخيرة مجرد (تغيير في هيئة الحكم) .. الم يكن الاولى تسمية البحث بـ (الصفحات الاخيرة من تجاربنا السياسية او دولنا) .. ؟ ان البحث يحلل نهايات ما يزيد على العشرين دويلة او تجربة سياسية اسلامية ، فهل يعني ذلك ان (حضارتنا) قد سقطت ما يزيد على العشرين مرة ، ثم عادت الى الحياة من جديد في اعقاب كل سقوط ؟

ان الذي حدث على مسرح تاريخنا اذن لا يعدو بمجموعه ان يكون حركة تغيرات نسبية كانت تحدث دائما تبدلا في جغرافية العالم الاسلامي السياسية ، ولكن حضارته ظلت – في تارجحها بين الاتباع والابداع ، بين البطء والاسراع – تملك ديمومتها واستمراريتها عبر الحدود الاقليمية المتبدلة ، وعبر حركات الانفصال التي اكد المؤلف نفسه ، اكثر من مرة ، على انها ما كانت لتنطفئ الواحدة تلو الاخرى لولا انها كانت بمثابة الشذوذ عن الارضية الواحدة لحضارتنا ووجودنا.

فاما ان كان هدف الباحث ان يحدثنا عن الصفحات الاخيرة من التجارب السياسية في حضارتنا فما كان احراه ان يسمي بحثه (الصفحات الاخيرة في حضارتنا) من اجل ان يزيل من ذهن القارئ أي لبس او غموض .. هذا اذا لم اكن مخطئا في فهم العنوان وهو الارجح.

فاذا ما جئنا الى المقدمة فاننا نلمح بين سطورها رغبة الباحث الجادة في اعتماد ذلك المنهج الموضوعي العادل في التعامل مع تاريخنا ،المنهج الذي يبحث عن الاسود والابيض في الوقت نفسه ، والذي كان مالك ابن بني – رحمه الله – قد دعا الى الاخذ به – كما حذرنا من نقيضه – في بحث له عن الاستشراق بعنوان (انتاج المستشرقين واثره في الفكر الاسلامي الحديث) ونتذكر قوله بهذا الصدد (.. هكذا اصبح الفكر الاسلامي ، على اثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته ، وما تسبب عنها من مركب نقص ، ينحاز الى معسكرين : احدهما يدعو لتمثّل الفنون والعلوم والاشياء الغربية – حتى اللباس – والاخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس. للتغلب على المهانة التي اصابته من الثقافة الغربية المنتصرة ، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتا اشباع حاجته (المرضية). ثم يضرب مالك ابن نبي مثلا على ذلك فيقول (اننا عندما نتحدث الى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه واجداده ، انما تاتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها ، اننا قطعا لا نشفيها. فكذلك لا نشفي امراض مجتمع بذكر امجاد ماضيه. ولا شك ان اولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للاجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة الف ليلة وليلة ، وتركوا بذلك، اثر كل سمر ، نشوة تخامر كل مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق اجفانهم على صورة ساحرة

لماض مترف. ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتنفتح ابصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم .. وان الاعجاب بالشيئ الغريب لم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك – صفحة ١١-١٤).

ومن أجل ألاّ يحتوينا هذا الموقف الخاطئ في تعاملنا مع تاريخنا علينا ان نتحول الى موقع اكثر علمية وايجابية وانفتاحا، موقع نتحمل فيه مسؤلية الرؤية الشاملة لمواضع الخطأ والصواب ، والنقد البصير للحدود الدقيقة الفاصلة بين الأسود والأبيض ، والانتقاء الواعي لكل ما من شانه ان يشعل الاضواء في طريقنا صوب المستقبل ، ويقدح شرارة الايمان والثقة في نفوسنا من اجل ان نتحول من حالة (السكون) التي نعانيها ، الى حالة (حركية) لا تدع الزمن والتراب وسائر المكونات الحضارية تفلت من بين ايدينا.

ولقد أسهم الاخ عبدالحليم عويس في بحثه هذا – الذي كان يمكن ان يكون اكثر اتساعا وامتدادا من الصورة التي اخرج بها – ومن قبله الاستاذ انور الجندي في كتابه (الاسلام وحركة التاريخ) ، إسهاماً أصيلاً لتنفيذ هذا المنهج الذي يتجاوز موات الاكاديمية وحقولها البور ، ويتشبث – في الوقت نفسه – بالاسلوب العلمي الذي يرفض تحويل العمل التاريخي الى (غنائية) فخر او مديح او رثاء تضع بين القارئ المسلم وبين عصر (الفعالية والميكانيك) سدا من الغفلة والغيبوبة والنسيان ، وتعطي الاشارة الى مدعي العلمية من الماديين والمستشرقين كي يجوسوا وحدهم في تاريخنا لكي يطفئوا اضواءه جميعا ، ويسحقوا زهراته البيضاء.

الا ان الباحث في تلمسه لمواقع السلب في صفحاتنا الاخيرة ، ورفضه لظاهرة الانفصال والتجزؤ ، ودفاعه – الذي يتردد صداه اكثر من مرة – عن الوجود العباسي باعتباره الدولة او الحضارة الجامعة (وهو تعبير يقتبسه المؤلف – كما يبدو – من مصطلحات توينبي المعروفة) .. لا يقدم تاكيدا كافيا – في صلب بحثه – على ان المسالة ليست مسالة وحدة الارض والخلافة العباسية – على خطورة هذا الجانب – قدر ما هي وحدة الحضارة الاسلامية وحيويتها وتدفقها وابداعها .. ومن ثم فان التفكك السياسي والتساقط الدوري المستمر للدويلات الاسلامية ، قد لا يبدو شرا كله ، لا سيما اذا تذكرنا ان الخلافة العباسية ، في عصورها التالية ، كانت قد استنفذت طاقاتها تقريبا واصبحت اعجز من ان تلعب دورا قياديا وتتسلم زمام المبادرة في نهر التاريخ المتغير .. وان الكيانات الشابة التي ولدت من رحم الخلافة الام كانت اكثر صلاحية لاداء هذا الدور.

هذا رغم ان المؤلف كان قد اشار في مقدمة بحثه اشارة ذكية الى هذة المسالة بقوله (نحن لا نستطيع القول بان هذه الصفحات كانت كلها خيرا او شرا ، ولعل بعضها كان لفتة قوية للدول الكبرى كي تسير في الطريق الاسلامي الصحيح ، كما اننا كذلك لا نميل الى القول بان هذه الصفحات التي ادت الى تغيير دولة بدولة او حكم بحكم كانت تسير بالامة بطريق الهاوية،

فلا شك ان ثمة مزايا اخرى يمكن ان تكون قد تناثرت على الطريق. انني لا اميل الى ما يعتقده البعض من ان التاريخ يسير في طريق عمودي سواء الى اعلى ام الى اسفل ، ان تجربة تاريخنا الاسلامي تكشف لنا ان حركة التاريخ في دائرة الحضارات الكبرى الجامعة – كالحضارة الاسلامية – حركة لولبية – ان صح هذا التعبير – فثمة انحناءة الى اسفل في جانب تقابلها انحناءات الى اعلى في جوانب اخرى ، فهي حركة دورية تنتظمها مراحل الهبوط والصعود. الهبوط بفعل التناحر والفساد الداخليين ، والصعود بفعل الاستجابة لتحديات خارجية قوية. ومن الملفت للنظر ان مراحل الهبوط – في التجربة التاريخية لهذه الامة – قد ارتبطت باوضاع داخلية ، فهذه الامة لم تضرب من خارجها بقدر ما ضربت من داخلها ، بل ان الاعداء الخارجيين لم ينفذوا اليها الا من خلال السوس الذي ينخر فيها من الداخل .. ولقد افادنا الاعداء بتدخلهم كثيرا، وغالبا ما كان لتدخلهم فضل ايقاظ الضمير الاسلامي او اعلان الجهاد العام او اظهار (صلاح الدين) او (سيف الدين) مما من شانه ان يجمع المسلمين تحت راية واحدة) ويمضي عويس الى القول (لقد كانت الامة المسلمة قادرة ، بما فيها من عناصر القوة الكامنة ، على الاستجابة للتحديات الخارجية ، كاروع ما تكون الاستجابة للتحديات ، لو لم ترهق هذه الامة – في اغلب مراحل تاريخها – بحكام يشلون حركتها ، ويخنعون امام اعدائها ، ويبددون من طاقاتها حفاظا على انفسهم. لو لم تكن هذه الظاهرة مستشرية على هذا النحو ، ولو ان هذه الامة قد تركت لفطرتها وتراثها وقيمها وحضارتها التي غرسها ورعاها الاسلام ، لو تم هذا لكان في الامكان ان تحدث منعطفات كثيرة في تاريخ هذه الامة هي لصالحها ولحساب رقيها وازدهارها : صفحة ٦–٧).

واذ تبدو هذه المسالة على درجة كبيرة من الاهمية ، فيما نحن بصدده ، فلنا ان نقف عندها بعض الشيئ.

ان التمزق الذي اصاب جسد الدولة الاسلامية بعد عقود فحسب من نجاح العباسيين في تاسيس دولتهم ، وظهور عدد من الامارات والمدن المستقلة ، في انحاء العالم الاسلامي ، رغم انه يعد بحد ذاته ظاهرة سلبية ومرضا عرضيا خطيرا يدعو للتأمل والنقد ، الا ان امة متحضرة كالامة الاسلامية في ذلك العصر ، كان بامكانها ان تحول هذه الظاهرة التي تبدو حتمية مقفلة ولا مناص مما قاله الله (سبحانه وتعالى): ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ .. تحولها الى (حركة) ايجابية مثمرة في مجالي السياسة والحضارة .. حيث صرنا نجد عددا من الدويلات تنشا حيوية قوية ، لكي ترد على العدوان الذي كان يهدد حدود الاسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال ، في وقت كان مركز الدولة اسلامية فيه يعاني مرضا وشيخوخة زمنية وإرهاقا وغيابا مكانيا ، لم تتح له ان يقوم بالتصدي الفعال لهذه الاخطار .. كما صرنا نجد عددا من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حدة التنافس الحضاري بين امارات المسلمين ولكي تعمق مجرى الحضارة

الاسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات ، الامر الذي دفع تلك الحضارة خطوات واسعة عريضة الى الامام .. ثم اننا صرنا نجد عدداً من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين ، ويصوغ تنظيمات عسكرية وعقائدية وسياسية لتحقيق هذا الهدف العظيم الذي لولاه لما قامت للاسلام قائمة. ولو ان تمزقا سياسيا وجغرافيا كهذا اصاب امة منحلة متعبة مكدودة لاطاح بها وبمقدراتها ولقدمها لقيمات سائغة لاولئك المتربصين بها على الحدود .. وشواهد التاريخ كثيرة كثيرة في هذا المجال.

هذا هو القانون الحضاري الذي لا يخطئ : ان امة تتميز بالتحضر والحيوية – وهما بلا شك أمران متلازمان – بمقدورها ان تحيل كل ظواهر الهدم في جسد الامة الى قيم انشاء وابداع وبناء ، لان الانسان هوالذي يتحكم في صياغة الظروف الخارجية ، ان امتلك زمام نفسه وسعى دوما الى ممارسة عملية التغيير الذتي التي اعلن عنها القرآن الكريم في قانونه الثابت : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾** .. ان الفيضانات الخطيرة ، قوة هائلة مدمرة ، ولكن (الانسان) هو الذي يحيلها الى اداة تنمية واستثمار ، او يتركها تغرق المزارع والحقول وتكتسح المواقع والقرى .. وانه لتحدٍّ خطير يطرحه الله سبحانه لكي يستثير همة الانسان وحيويته وفاعليته ، على نطاق (الطبيعة) حيث الصواعق والزلازل والفيضانات والاعاصير .. وعلى نطاق (التاريخ) حيث النشوء والسقوط ، والسلم والحرب، والتحضّر والهمجية ، يلفها جميعا قانون الله الثابت: **﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾**.

وهكذا استطاع (المسلم) ان ينطلق من نقطة الضعف هذه حيث تمزق الدولة الواحدة الى مدن واقاليم ودويلات ، الى افاق التحضر والقوة والابداع .. وبدلا من ان يستسلم للظاهرة ويجلس قابعا في حدود امارته المنشقة ، نجده يقف متحفزا للحركة من اجل عالم الاسلام كله ، بمجرد ان تتاح له القيادة الصالحة المرنة الذكية المخلصة المجاهدة التي تعرف كيف توجه الحركة الى هدفها المطلوب ..

هكذا لعب (الادارسة) دورهم في المغرب في مد الاسلام الى قلب القارة السوداء عبر مسالكها الشمالية الغربية، وكانوا اول من مهد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة الى الاسلام في تلك القارة. وهكذا لعب (الاغالبة) قي تونس دورهم في صد خطر البيزنطيين تجاه السواحل الافريقية ، وفي تحويل موقف الدفاع الذي اتخذته هذه المنطقة الى هجوم استمر عقودا طويلة من الزمن ، واستطاع ان يجلو بواسطته قوات البيزنطيين الى داخل القارة الاوربية ، وان يكتسح جزرهم في البحر المتوسط وينشئ فيها حضارة ثرية كانت احدى الجسور التي انتقلت عليها حضارة المسلمين الى الغرب .. وهكذا لعب (الطولونيون) في مصر والشام دورهم في ايقاف محاولات البيزنطيين الارتدادية صوب بلاد الشام .. وهكذا لعب (الحمدانيون) في حلب دورهم المشهور في صد تلك المحاولات نفسها ، وهي على اعنف ما تكون ، وتمكنوا من كسر

حدتها .. وهكذا لعب (السامانيون) فيما وراء النهر دورهم في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية في اقاليم التركمان الوثنية الشاسعة الممتدة حتى اطراف الصين ، وفي تحويل هذه القوة البدوية التي لا تعرف السلم والاستقرار ، الى قوة بشرية مسلمة مثقفة مستقرة ، مارست دورها – فيما بعد – على طريق الاسلام .. وهكذا لعب (الغزنويون) و(الغوريون) من بعدهم ، في شمال الهند ، ازاء الهنود الوثنيين نفس الدور الذي لعبه رفاقهم السامانيون من قبل ازاء الاتراك .. وهكذا ايضا ظهرت دولتا (المرابطين) و(الموحدين) في المغرب لكي تعيد للجهاد الاسلامي مفهومه الثائر العميق ، ولكي تنشئ التنظيم الذي يكفل تحقيق هذا الهدف ، ولكي (تتحرك) هذه التنظيمات للدفاع في الوقت المناسب عن مقدرات الاسلام والمسلمين في وقت كانت القوى الصليبية تتحرك فيه لتوجيه ضربة ماحقة للجناح الغربي من عالم الاسلام .. ثم اذا التفتنا الى دويلات الشام والجزيرة الفراتية ، وجدناها تسهم هي الاخرى سواء في عهد (ولاة السلاجقة) ام في عهد (الاتابكة) ، اسهاما قياديا مباشرا وخطيرا ضد الغزو الصليبي في حملته الاولى على الجناح الشرقي لعالم الاسلام.

إن حضارة الاسلام ، كما اكد كثير من الباحثين في الشرق والغرب ، هي حضارة (الوحدة والتنوع) ، ولقد انعكست هذه السمة الاصيلة على ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الاسلام .. فصرنا نجد تنوعا في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة ، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدة وتجانسا وتعاطفا في العطاء الحضاري ، وفي الاساليب والاهداف الكبرى ..

وفيما عدا حالات معدودة شاذة لهذه القاعدة الشاملة ، حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنت مبادئ وعقائديات باطنية اباحية هدامة ، ذات جذور مجوسية ويهودية ،غريبة عن عقيدة الاسلام وتصوره وقيمه ، دويلات لمت شعث مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحته وانكشافه وحريته .. دويلات مارست قواها الذاتية ، لا في الدفاع عن ارض الاسلام وعقيدته ووجوده ، وانما ضد ارض الاسلام وعقيدته ووجوده (قرامطة البحرين على سبيل المثال). بل ان بعض هذه الدويلات سعى الى عقد محالفات ومواثيق مع الاعداء الخارجيين المتربصين على الحدود والثغور. فيما عدا حالات كهذه ، حيث التشكيلات السياسية الاسماعيلية بمختلف اجنحتها ، والتي لا زالت بحاجة ماسة الى دراسات اصيلة لتفحص دوافع نشوء الحركات التي اقامتها واهدافها وارتباطاتها السرية مع الحركات المجوسية والصليبية واليهودية ، دراسات تنظر بجد وموضوعية الى الارضية الاجتماعية الظالمة التي الجأت الكثير من البائسين والمظلومين الى الانضواء اليها، ولكنها لا تغفل في الوقت نفسه عن تركيب (القيادات) وعلاقاتها وارتباطاتها ، الامر الذي قادها الى الوقوف ، لا بوجه السلطة

كجهاز سياسي متعسف ، ولكن بوجه الاسلام كعقيدة وتنظيم ، والى الصراع ، لا مع بني العباس كقيادة عربية مستأثرة ، ولكن مع الوجود العربي نفسه !!

فيما عدا هذه الحالات ، فان معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الاسلام ، اسهمت حسب قدراتها وطاقاتها ، في (خدمة) هذا العالم سياسيا وحضاريا ، ولن تغني الامثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه !!

لقد جاء كتاب (الصفحات الاخيرة من حضارتنا) (قراءة جديدة للتاريخ) كما أراد له مؤلفه ان يكون .. واذ كان البحث خطوطا مركزة عريضة لفترة تاريخية ممتدة في الزمان والمكان .. فاننا نامل ان نلتقي بعبدالحليم عويس مرات اخرى وهو يقف طويلا عند ظاهرة ما او مرحلة او تجربة سياسية وحضارية ، فاحصاً ، دارسا .. لكي يغني مكتبتنا التاريخية الفتية بمزيد من المعطيات وفق المنهج (العدل) الذي حدثنا عنه في مقدمة بحثه.

اقتراحات

(في التدريس والمنهج التاريخي)

تشكل مادة التاريخ وسيلة من اهم وسائل التثقيف في المؤسسات الاكاديمية ، لاسيما بعد التطور الكبير الذي طرأ على الدراسات التاريخية في حقولها المختلفة، وبعد ان ظهرت مذاهب شتى للتفسير التاريخي تشحذ ذهن الانسان وتدفعه للكشف عن آفاق جديدة في حقول المعرفة ، اعتمادا على ما يقدمه التاريخ من احداث وظواهر وسنن تسير فعاليات البشر وترسم مصائرها.

وهكذا فان هدف التاريخ ان يتخذ وسيلة لتخريج طلاب يمتلكون القابلية على إستقراء الظواهر والاحداث ، وتحليلها ومقارنة بعضها ببعض ، وادراك طبيعة السنن والقوانين التي تحكم نشاط الجماعات البشرية ، وتطور الحضارات وعوامل سقوطها ، فضلا عن تميز هؤلاء بثقافة واسعة بحكم تخصصهم في فرع – يعد اليوم – من اشد الفروع اهمية في سعة مساحته ، وامتداد افاقه ، وعمق اغواره ، واعتماده – بما انه تجربة البشرية وحصيلة معطياتها – على معظم الادوات التي تيسرها له العلوم الاخرى ، وبخاصة الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والاداب والفنون ، لأنها جميعا تساعد على تعميق الاضواء الكاشفة عن طبيعة الحدث التاريخي ، ودوافعه واهدافه ، وعلاقاته بالاحداث الاخرى القبلية والبعدية ، وعن المصير الذي تتشكل به هذه الاحداث جميعا ، والسنن التي توجّهها في هذا الطريق دون ذاك.

ومن ثم يبدو أن التخصص في التاريخ يفتح الطريق امام الطالب لان يمتلك ثلاث امكانيات تعد اساسا متينا للثقافة الحقيقية ، اولاها القدرة على التحليل والمقارنة ، وربط الجزئيات في أُطر كلية وتشكيلات موحدة في طبيعتها ودوافعها واهدافها ، وتعطيه امكانية الرؤية الواسعة لما يجرى على سطح الارض من افعال واحداث ، ولما ينتج عن نشاط الانسان من معطيات ، ومن ثم يتيح له – هذا التخصص– ان يصل بسهولة الى تفسير مقنع للتاريخ ، والايمان بتصور معين ينبثق عن هذه الرؤية لرصيد التاريخ ، والقدرة على تحليله ومقارنته ، وثانيهما الاطلاع على مساحات واسعة في حقول المعرفة البشرية لا تتيسر لطالب الفروع الاخرى بسبب عدم اهميتها له .. وهكذا فان طالب التاريخ يتخرج وهو يمتلك معلومات واسعة عن الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والاداب والفنون .. الخ بسبب من ارتباطها الوثيق بالتاريخ. وثالثتها منح الطالب القدرة على تشكيل معلومات ، في أي موضوع ، في نسق معين ، لاعطائها معنى خاصا، او للتوصل الى حقيقة مهمة من حقائق التريخ ، وذلك بتمرسه على كتابة التقارير والابحاث التي تمكنه في المستقبل من الكتابة والتاليف اعتمادا على ما يمتلكه من معلومات عن فن الكتابة ، وطريقة تنسيق المعلومات.

إن امتلاك الطالب لهذه الامكانات الثلاث – بعد تخرجه – بدرجة او اخرى ، يعني ان هذا الفرع المهم في الاكاديميات قد حقق هدفه على احسن ما يكون ، دون ضرورة – أبداً – لتكديس كثير من تفاصيل التاريخ وجزئياته تكديسا عشوائيا ، لا يخدم ايا من هذه القيم الثقافية الثلاث.

ولكن الذي يحدث – للاسف – ان فروع التاريخ في جامعاتنا ، لا تخرج طلبة يمتلكون جانبا كافيا من هذه القيم الثلاث.

وذلك راجع بالدرجة الاولى الى النظم التعليمية التي تسود هذه الفروع ، فهي تؤكد دائما على تكديس مزيد من التفاصيل التاريخيه في اذهان الطلاب ، وعلى الاسراع بتغطية كافة تاريخ البشرية قبل ان يخرج الطالب ويهرب من بين ايدينا !! وهكذا تصب في اذهان الطلاب تفاصيل كل الفترات ابتداء من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، دون أي اهتمام بتوجيه الطالب نحو المقارنة والتحليل او توسيع افاق رؤياه للتاريخ ، ودون أي اكتراث باعطائه قاعدة ثقافية واسعة من العلوم والمعارف التي لها مساس مباشر ، بالتاريخ ، فضلا عن عدم اهتمامها – الا بشكل ثانوي – بتعويد الطالب على البحث ، والتنسيق الفني ، والتأليف .. ومع اهتمام هذه الفروع بالتفاصيل والجزئيات ، وتاكيدها على الناحية الكمية ، لا الكيفية للتاريخ، فان الطالب ما ان يتخرج ، حتى يلف النسيان معظم التفاصيل ولا يتبقى في ذهنه الا الخطوط الاساسية للتاريخ ، وتلك التي نقشت في اعصابه وهو بعد صغير !!

فاذا ما انتقلنا الى التاريخ الاسلامي بالذات ، وهو تاريخنا ، والزاوية التي يجب ان ننطلق منها لفهم تاريخ العالم .. التاريخ الاسلامي الذي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات اصيلة تهبه شخصية مستقلة ، والذي يعبر اكثر من غيره عن حصيلة اعظم لقاء بين السماء والارض ، وعن طموح الانسان المؤمن لاعادة سير التاريخ في مجراه الطبيعي ، وانطلاقه نحو هدفه المرسوم في الكون .. التاريخ الذي يصور لنا الجهود العملاقة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في اطار واحد : الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والمادة والروح .. ويفتح امام الانسان الطريق لتقديم اقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مهزوزة .. حضارة تنساح فاعلية صناعتها على كل المساحات وسائر القطاعات : الاداب والفنون ، والعلوم والفلسفة ، والقانون وعلم النفس والاجتماع .. وتنبثق عن ايمان عميق بدور الانسان في الكون وهدفية فاعليته وتوازنها. اذا ما انتقلنا الى هذا التاريخ .. فماذا نرى ؟؟ عددا هائلا من الطلاب يتخرجون وهم لا يعرفون المعالم الاساسية التي تميز تاريخهم ، ولا السمات الاصيلة التي تطبع حضارتهم .. وهم يجهلون التصور الذي يقوم عليه هذا التاريخ ، وتنبثق عنه هذه الحضارة .. يتخرجون وقد التبست في اذهانهم معالم كل التواريخ ، وتداخلت سمات كل الحضارات ، وضاعت مفاتيح التفسير التي تقدم لكل تاريخ معناه ، ولكل حضارة مفهومها العميق .. يتخرجون وليس في نفوسهم أي اعتزاز بهذا التفرد الذي يتميز به تاريخهم وحضارتهم ، ولا في ثقافتهم تلك القيم التي تتيح لهم استقلالا في التحليل والتفسير ، واللذان ينبثقان عن المفاهيم التي يتميز بها هذا التاريخ وهذه الحضارة. ليس هذا فحسب ، بل هناك الاهداف المرسومة بخبث ودهاء ، والتي فرضت

عليهم ان يتلقوا تاريخهم وفق مناهج التفكير والبحث الغربية ، هذه المناهج التي لا يمكن بحال ان تقدم تفسيرا معقولا شاملاً لتاريخنا الاسلامي .. فهي ان نجحت في تفسير وتقييم التاريخ الغربي ، فستخفق حتما في تفسير التاريخ الاسلامي. ذلك انها مناهج لا تقوم على اساس متوازن ينظر الى القيم المادية والروحية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ ، بل على العكس ، تسعى بدافع من علمانيتها ، الى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ ، بل طمسها احيانا ، وانكارها اساسا كعوامل فعالة في تاريخ البشرية.

وهذه المناهج – ثانياً – تقدم تاريخ العالم كله ، وبضمنه تاريخنا نحن ، من زاوية نظر غربية اقليمية تجعل اوربا مركزا للعالم تدور حول قطبه كل المساحات الاخرى في الارض ، وما عليها من شعوب ودول وحضارات ، حيث تغدو في معظم الاحيان اشبه بالظلال الباهتة لهيكل التاريخ الاوربي العالي الذي يشع نورا وبهاءا !! ولنستمع الى ((محمد اسد)) وهو يعلق على هذه الرؤية القاصرة في كتابه ((الطريق الى مكة)) قائلا ((لقد مال المفكرون والمؤرخون الاوربيون ، منذ عهد اليونان والرومان ، الى ان يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الاوربي، والتجارب الثقافية الغربية وحدها. اما المدنيات غير الغربية ، فلا يعرف لها الا من حيث ان لوجودها ، او لحركات خاصة فيها ، تاثيرا مباشرا في مصائر الانسان الغربي. وهكذا فان تاريخ العالم ، وثقافاته العديدة لا يعدو ان يكون – في اعين الغربيين – تاريخا موسعا للغرب. وطبيعي ان النظر من هذه الزاوية الضيقة لابد ان يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم. ان الاوربي ، او الامريكي العادي ، بما اعتاد ان يطالع من الكتب التي تعالج او تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسيط وتوسّع يضفيان عليها الوانا حية ، دون ان تلقي على سائر اجزاء العالم سوى نظرات عابرة هنا وهناك ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر الى الوهم الخادع الذي يصور ان الخبرات الثقافية الغربية ، ليست اسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب ، بل لا تتناسب معها على الاطلاق ، وبالتالي ان طريقة الحياة الغربية هي النوذج الصحيح الوحيد الذي يمكن ان يتخذ مقياسا للحكم على سائر طرائق الحياة ، وان كل مفهوم ثقافي او مؤسسة اجتماعية او تقييم ادبي يتعارض مع النموذج الغربي ، انما ينتمي – حتما – الى درجة من الوجود ادنى واحط. ومن هنا نجد ان الغربي ، تمثلا باليونان والرومان ، يجب ان يعتقد ان جميع المدنيات ليست ، او لم تكن ، الا تجارب متعثرة في طريق الرقي هذا الطريق الذي تتبعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ ، او انها في افضل الاحوال – كما هي الحال في مسالة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة – ليست اكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد ، آخره – غير شك – المدنية الغربية))[1].

---

(١) ليوبولد فايس [محمد اسد] الطريق الى مكة ، ط١ ، صفحة ١٧–١٨ ، ترجمة : عفيف بعلبكي.

وما من شك في ان ابسط مفاهيم التعليم التاريخي هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وامتهم وحضارتهم ، شاعرين في قرارة انفسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الامم والتوايخ والحضارات ، لاسيما ان الشرق عامة ، والامة الاسلامية خاصة ، تمثل في حضارتها لقاءات معطاءة بين السماء والارض ، وتنبثق في معظم الاحيان عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وان هذه النقطة بالذات هي ما يجب ان توضح دائما في عملية التعليم لكي تغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء، وابعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الاخرى ، وقطع الطريق على أية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء.

وهذه المناهج – ثالثاً – وعندما تدرس تاريخنا بالذت تتحكم فيه عصبيات شتى ، ورواسب نفسية ، ومخلفات ثقافية ، واطماع سياسية واقتصادية ، وتحزبات دينية وعرقية ، لكونها نشات وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار القديم للعالم الاسلامي المتعب اوجها، وراحت موجة الصلبية الثانية تثأر لما لحقها من هزائم في الموجة الاولى تثار على مستوى الفتوحات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وعلى مستوى الافكار حيث برز الى العالم عدد كبير من المؤلفات ، تميزت جميعا بروح التعصب الصليبي والعرقي الذي يسودها ، وسعت جميعا الى تقديم التاريخ الاسلامي في أطر واشكال تختلف اساسا عن حقيقته وجوهره الاصيل. ولنستمع الى ((محمد اسد)) مرة اخرى وهو يحلل هذه المواقف الفكرية المتعصبة تجاه اوطان غدت في نظر الصليبية الثانية اراض موات يجب احياؤها لصالح الكنيسة والدولة الغربية .. انه يقول ((أما فيما يتعلق بالاسلام ، فان الاحتقار التقليدي اخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية. وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوربا والعالم الاسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر.ثم اصبح احتقار الاسلام جزءا اساسيا من التفكير الاوربي. والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التاثير في موقف الاوربيين من (الوثنيين). غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر ، مع ان علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. اما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصلبيبية بكل ما لها من ذيول ، في عقول الاوربيين))[1]. ومن ثم فان تطبيق هذه المناهج في دراسة التاريخ الاسلامي في جامعاتنا قد اتى ثماره المرة من اول جيل خرجته هذه الجامعات ، وسيظل يقدم هذه الثمار الى ان يحدث

(١) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ، ط٦ ، صفحة ٦٠-٦١ ، ترجمة : عمر فروخ.

المؤرخون الجامعيون انقلابا جذريا في الاسس التي يعمل بموجبها داخل هذه الجامعات ، وبخاصه في الفروع الانسانية. جيل بعد جيل من الشباب ، يتخرجون وهم يمقتون تاريخهم ، وتتغلغل الشبهات في اذهانهم و نفوسهم فتحيل التأريخ الاسلامي ساحة مظلمة يسيطر عليها الجهل والطغيان والقتل والظلم الاجتماعي .. وان المصاب ليزداد فداحة عندما نتذكر أن مناهج الفكر الغربي تمكنت ان تنقل مآسي التاريخ الغربي الى الشرق الاسلامي فتزرعها في قلب ابنائه، وتخيل اليهم ان تاريخ الغرب – لا سيما في عصوره الاخيرة – لم يعرف هذه المآسي في يوم من الايام.

كيف يتم القضاء على هذه الاخطاء التي تمارس في تدريس التاريخ ؟ وعن أي طريق يمكن تخريج طلاب يستطيعون ان يناقشوا ويحللوا ويقارنوا ، اعتمادا على خلفية ثقافية واسعة، وامكانية في التنسيق والتاليف ؟ وبأية مناهج نتمكن من تقديم التاريخ الاسلامي على حقيقته دون اعتساف او تشويه ؟ ان لكل باحث او مرب او مدرس للتاريخ امكانية ايجاد الحلول لمشاكل كهذه ، الحلول التي تخرج فروع التاريخ من الدوامة التي تدور فيها ، وتحطم الحلقة المفرغة التي تحيط باجيال المتخرجين .. وها هي بعض هذه الاقتراحات التي يمكن ان يضاف اليها الكثير فيما بعد :

١. هناك ساعات محدودة للمحاضرات يجب الا تضيع بالقاء الدروس على طريقة التدريس الابتدائي او الثانوي .. يكلف الطلبة بتحضير صفحات ثلاث او اربع ، ثم يسالون عنها في المحاضرة التالية. وبعد ان تعدو عشرين او ثلاثين صفحة يمتحنون بها ، وتقدر درجاتهم ومستوياتهم اعتمادا على مدى سيطرتهم على مزيد من سطور هذه الصفحات العشرين .. صحيح ان حفظ تسلسل الاحداث والسنين والحدود الزمنية والمكانية لكل دولة او امارة ، يعد قدرة مهمة يجب ان ينميها الطالب وبخاصة في فرع التاريخ الذي يحتاج الى تمرين ((الحافظة والذاكرة)) الى حد كبير باعتبارها المفتاح الاساسي لسجل التاريخ الحافل بالاحداث والسنوات والتشكيلات ، الا ان الامر يجب الا يقف عند هذا الحد لا يتعداه .. ان هذه الطريقة المتعبة ، سخرية مرة نضحك بها على انفسنا وعلى طلبتنا من اجل ان نبذل جهدا اقل ، ومن اجل ان يضمنوا هم مستقبلا ومعاشا .. ان هذه الساعات المحدودة للمحاضرات يجب ان تستغل الى الدرجة القصوى ، وان تحطم فيها طريقة الاعتماد على كتاب او مجموعة من المحاضرات المطبوعة او المكتوبة .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد نقاشا مستمرا بين الطالب والمدرس ، وبين الطلبة انفسهم افرادا ومجموعات ،نقاشا يتميز بالحرية والتنظيم في وقت واحد ، بحيث يجد كل طالب المجال لان يتكلم ويناقش ويعبر عن وجهة نظره ، ويصدم بافكاره افكار الاخرين ، ويقدح – كما يقولون – الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد عرضا حيويا للتاريخ : فيه التحليل والمقارنة

والهدم والبناء والتجميع والتنسيق ، وفيه النظرة الشاملة والرؤية الواسعة التي تجمع الاحداث المتشابهة من هنا وهناك .. من الشرق والغرب ، ومن العصور القديمة والحديثة لكي تسلكها في وحدة معينة تعطي للتاريخ معنى ، ولدوافعه واهدافه مبررات وقيما.

وتمكين الطالب من تنمية القابلية على التصور التاريخي والنظرة الشاملة ، واتخاذ موقف شخصي اصيل من الاحداث.

ان هذه الساعات يجب ان تشهد اعتمادا غير متكلف على شتى فروع المعرفة التي – لها مساس بالتاريخ – من علوم وفنون وآداب ، وقضايا نفسية وفلسفية واجتماعية ، لكي يكون لدى الطلاب القاعدة والادوات التي يتمكنون بها من تقديم تفسير اوسع واعمق للتاريخ ، ومن امتلاك رؤية اشد تركيزا لاحداثه ووقائعه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد اغراء بمزيد من القراءات والمطالعات في شتى المعارف والعلوم ، وان تعرض على الطلبة خلالها المؤلفات والنشرات والكتب التي تتدفق على المكتبات كالسيل ، وان تقدم لهم عن كل منها خلاصة تتيح لهم معرفة ما يجب ان يقرؤوه وما يجب ان يدعوه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد تنمية التفكير المستقل لدى الطالب ، والذاتية المعتزة بامكاناتها دونما اسراف ، تنمية تتيح للطالب ان يناقش المدرّس فيما لا يؤمن به وان ينقد الكتاب المقروء كمعطيات تحتمل الخطا والصواب ، لا كقيم منزلة لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، كما يجب ان تشهد هذه الساعات بعثا للذوق الفني والادبي لكل طالب بحيث يستطيع ان يحكم من خلاله على الاساليب التي يكتب بها التاريخ ، ايها اجمل واروع ، وأيها اكثر ملائمة لكتابة التاريخ او عرض الشخصيات .. وان نناقش – في هذه الساعات – حتى قضايا الآداب والفنون التشكيلية لانها في حقيقية الامر رصيد من ارصدة التاريخ ، ووسيلة من وسائل التعبير الذاتي للانسان ، هذا التعبير الذي يعطي للتاريخ لونه ، ويطبع الحضارات بطابع خاص.

وخلاصة الأمر ان هذه الساعات المحدودة يجب ان تستغل لتكوين الانسان المثقف ، والمؤرخ الذي يستطيع ان يسهم – بامكاناته المرنة الواسعة – في مجرى التاريخ ... فاذا ما قابلنا هذا بما يجري فعلا من تضييع هذه الساعات بتلقين الطلبة صفحات معدودة ، وشرحها في الدرس كلمة كلمة ، وحرفا حرفا .. تبدت لنا النقيصة التي تمارسها جامعاتنا ، والزمن الذي تضيعه هباء.

٢. هذا يعني وجوب تخصيص بعض الساعات لتدريس مواد تاريخية تساعد على تحقيق الاهداف السالفة :

آ – فمثلا تخصيص ساعة في الاسبوع لتدريس فلسفة التاريخ والحضارة التي غدت اليوم تشكل قطاعا من اهم قطاعات الثقافة المعاصرة ، لانها المفتاح الحقيقي لفهم الاسس التي تقوم عليها الدول وتنشا بموجبها المجتمعات ، والمنحنيات التي تسلكها هذه الدول والمجتمعات ،

والنهايات التي تنتهي اليها وتسقط فيها. هذا فضلا عن ان موضوع فلسفة التاريخ والحضارة يقدم للطالب الطريقة التي يتعلم فيها استغلال ذكائه وثقافته الخاصة في تعليل الاحداث وتفسير الظواهر التاريخية ، كما انها تقدم له ثقافة واسعة نظرا لما يحتاج اليه هذا الموضوع من قاعدة ثقافية واسعة[1].

ب – يمكن تخصيص ساعة اخرى في الاسبوع لدرس يطلق عليه ((اساليب تاريخية)) : باي اسلوب يكتب التاريخ ؟ وعلى أي اساس يمكن تصنيف الدراسات التاريخية الحديثة ؟ وما هي احسن الاساليب لعرض التاريخ كتابة وتدريسا ؟ وما هو المدى الذي يمكن ان نذهب اليه في الاستفادة من اساليب المدرسة الحضارية في تدريس التاريخ وكتابته ؟ وماهي اهمية المعايشة التاريخية ، والتجربة الذاتية ، والرؤية الفنية في دراسة التاريخ ؟

جـ – ويمكن استغلال الساعة السالفة لتدريس الطلبة طريقة البحث التاريخي ، وتنسيق المعلومات والنصوص ، وتنظيم الهوامش ، وقوائم المراجع والمصادر .. الخ مما هو ضروري لكل متخصص في هذا الفرع الذي هو من اشد الفروع الانسانية حاجة الى معرفة اكيدة بطرق البحث والتنسيق. ويمكن الاعتماد في هذا المجال على ((التقارير والابحاث)) التي يكلف بها الطلاب ، لكي يعرفوا بانفسهم مواطن الخطأ والصواب في ابحاثهم. ويجب ان يؤكد في هذه الاعمال على الناحية الكيفية لا الكمية ، اذ ان انجاز تقرير واحد في السنة يمكن ان يقدم من الفوائد ما لا تقدمه كتابة عدد كبير من التقارير.

٣. اذا القينا نظرة على حجم المادة التاريخية التي تعطى للطلاب ، خلال السنوات الاربع – حسب النظم المنهجية المتبعة ، ومهما بذل المدرس من جهد لتكريس مادة اكثر في اذهان الطلبة وفي كراساتهم ، نجد انها لا تكفي اساسا للالمام بالجوانب المهمة من التاريخ ولا بخطوطه الاساسية. وهذا يعود الى خطأ هذه المناهج في التاكيد على اعطاء تفاصيل وجزئيات المواضيع المعطاة للطلاب واضطرار المدرس الى استهلاك وقته المحدود في نطاق هذه التفاصيل والجزئيات ، فضلا عن ان هذه المناهج تؤكد على تدريس مواضيع مختلفة دون تمحيص للاهم فالمهم ، وبالتالي فان هذا يدفع المدرس الى ربط الطلبة بمصدر واحد او محاضرة محددة ، مكتوبة او مطبوعة ، لكي يستطيع بساعاته القليلة تغطية كل التفاصيل المطلوب منه تقديمها للطلاب وتخلصا من هذا الخطأ يمكن :

أ – تقسيم التاريخ – بعد دراسة دقيقة وعميقة – الى قسمين :

---

(١) انظر على سبيل المثال : (مختصر دراسة التاريخ) لارنولد توينبي ، (تدهور الغرب) لازوالد شبنغلر ، و(سقوط الحضارة) لكولن ولسن.

قسم تعطى تفاصيله الكاملة بدقائقها للطلاب ليتعلموا الطريقة الجزئية والنقد والاساليب التاريخية وطرق تنسيق المعلومات فضلا عن محاولة الالمام الكامل بالفترات الحيوية من التاريخ، وتلك التي تمثل مراكز الثقل في حركة البشرية وتطورها الحضاري. اما الاقسام الاخرى فتعطى خطوطها الرئيسية فحسب ، ويكلف الطلبة بتتبع تفاصيلها ، ومحاولة فحص سماتها وخصائصها عن طريق كتابة التقارير والابحاث ، شرط ان تتداول بين الطلبة ، وتناقش معهم جميعا خلال ساعات المحاضرات او في ندوات خارجية ، لا ان تبقى – كما هي عليه الان – مجرد واجب ثقيل يلقى على عاتق الطالب ، يعيده الى المدرس بعد الانتهاء منه ليأخذ عليه درجة ما ، دون ان يطلع هو ، او غيره من الطلاب على النتائج والمعلومات المهمة التي يمكن ان تستخلص من مجموع التقارير.

ب – تعويد الطلاب الاعتماد على انفسهم بالرجوع الى المصادر والمراجع واستخراج محاضراتهم منها ، ومناقشتهم فيها خلال الدرس. فليس من الصواب ان يكون اعداد المحاضرات حكرا على المدرس وحده ، اذ ان ذلك ينشئ في نفوس الطلبة الروح السلبية الاتكالية ، ويربطهم بمصادر محدودة ووجهة نظر خاصة. ان رجوع الطلبة بانفسهم الى هذه المصادر سيحقق نتائج مهمة منها اطلاع الطالب على المزيد من التفاصيل عن الفترة المدروسة ، وتفهم الاساليب القديمة في كتابة التاريخ ، وتكوين وجهة نظر يستطيع بها ان يناقش المدرس وان يصل معه الى نتائج مقنعة ، فضلا عن تمرسه على استخدام النظم المكتبية. ويجب ان يلزم الطلبة بالرجوع الى هذه المصادر ، لا ان يكتفي المدرس بمجرد التوجيه. وان تدخل هذه الفعالية في الامتحانات لكي يشعر الطالب بالزامها. وعلى المدرس ان يقدم في بداية كل سنة دراسية قائمة باهم المصادر والمراجع. ويسهم مع الطلبة في نقدها وتعريفها واحدا بعد اخر ، والتوصل الى السمات الاساسية التي تميز كلا منها.

٤. توسيع النشاطات اللاصفية : ان ساعات الدروس الاسبوعية محدودة ، وهي لا تكفي مطلقا لتنفيذ بعض هذه الاقتراحات ، ولابد اذن من استغلال الزمن المفتوح خارج نطاق الدروس ، هذا الزمن الذي يذهب معظمه جفاء ، والذي يمكن اقتطاع بعض ساعاته لاجراء لقاءات مع الطلبة في اجواء حرة لا اكاديمية .. في اجتماعات وندوات وحلقات ، يناقِشون ويناقَشون ، يستمعون لغيرهم ويقولون ما عندهم ، ويحاسب بعضهم بعضا على افكاره وارائه واجتهاداته. وليس من الضروري – أبداً – ان تقتصر هذه الندوات المفتوحة على موضوعات تاريخية. بل من المستحسن ان تتعدى التاريخ الى شتى حقول الثقافة التي لها مساس بالتاريخ ، والتي تنمي في الطالب سعة النظر ، وتعمل على توسيع افاقه ورؤياه ، وليس من الضروري – كذلك – ان تقتصر هذه الندوات على مدرس التاريخ وتلاميذه ، بل يجب ان يسهم فيها طلاب من شتى الفروع ، واساتذة من شتى الاختصاصات ، لكي يثمر النقاش ، وتلتقي

الافكار ، ويتسع مدى الرأي وآفاق الكلام. وهناك ، فضلا عن الندوات ، ضرورة اخرى لا تقل اهمية ، وهي اصدار نشرة او مجلة خاصة بالكلية او الفرع ، لكي يجد فيها الطلبة مجالا للتعبير عن ارائهم، واشباع رغبتهم في البحث والكتابة. ثم هناك الافلام التاريخية والتعليمية ، والنشاط المسرحي، والسفرات الطلابية التي يجب ان تاخذ مكانها جميعا في هذا الميدان.

٥. تضعيف القيود الاكاديمية :[١] ذلك ان القيود الاكاديمية بوضعها الحالي تخنق أية محاولة للنفاذ الى اعماق التاريخ ، وفهمه كحركة حية متطورة ، كفعل دائم الصيرورة ، كنهر عظيم مستمر الجريان ، والابتعاد عن خطر النظر الى التاريخ كعالم جامد مسطح ، واحداث عمودية يتلو بعضها بعضا. ان التاريخ يجب ان يقدم الينا وهو يموج حركة وحيوية ، كمسرحية حاضرة للعيان تجعل من التاريخ ((فعلا)) مستمرا اخذا شتى الاتجاهات والابعاد ، وليس مجرد عالم مسطح ، وتقضي على فكرة الامتداد العمودي للاحداث ، لكي تدفع انسان الى تدبرها افقيا ، بكل عناصرها وابعادها ، كما تدفع المؤرخ الى معايشة التاريخ ، ومن ثم مد ابعاد الرؤية الى كل جوانب الكينونة الانسانية.

فعندما يعيش المؤرخ احداث التاريخ ، وينفعل بها ، فان بامكانه ان يقول لنا اشياء لا يستطيع ان يقولها لنا الاكاديميون الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير العقلي المجرد، وتنظيم النصوص ، وسرد المحاضرة سردا تقريريا ميتا[٢] .. ان الدعوة الى تضعيف القيود الاكاديمية في كتابة وتدريس التاريخ لا تمثل رغبة شخصية في الحصول على مزيد من المتعة الروحية في مجالات النشاط التاريخي المعروض بهذا الاسلوب الحي ، وانما هو امر واقع حتمي تفرضه طبيعة الوجود التاريخي نفسه ، بما انه حركة حياة نامية متطورة، تتدفق من اعماق الوجدان البشري ، لتنساح – بعد هذا – على مساحات الزمان والمكان ، ولتنشئ – من ثم – دولا واحداثا وحضارات هي نتاج تفاعل خلاق بين العقل والعاطفة ، والمادة والروح ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية. ولا يمكن التوصل الى رؤية كاملة لهذا التدفق الحيوي الا بالاعتماد على نفس القيم والوسائل التي تصنع التاريخ وتوجهه ، ولا يتحقق النفاذ الى معنى التاريخ وهدفيته الا بافتراض هذا القاسم المشترك الاعظم بين المؤرخ نفسه والبشرية ، بين الذات

---

(١) انظر عن هذا الاقتراح بتوسع ، فصل لكاتب البحث بعنوان (نقد للاكاديمية وتأمل في التاريخ) في كتاب (في النقد الاسلامي المعاصر).

(٢) والمعايشة التاريخية لا تستلزم احياء الحدث التاريخي اسلوبا وموضوعا فحسب بل هي تتطلب كلك رصيدا من التجارب النفسية والفكرية والعقيدية تساعد المؤرخ على ادراك جوهر التاريخ. ودارسو التاريخ الاسلامي بالذات يجب ان يعايشوا التجربة الاسلامية. من هنا كانت قدرة مفكر كليوبولد فايس او دينيه – على فهم التاريخ الاسلامي اكثر من قدرة مؤرخ مختص كجب. اوبرنارد لويس ، فليوبولد ودينيه – عاشا التجربة ، اما جب ولويس فقد درساها من بعيد.

والموضوع ان على المؤرخ الجاد ان يحيل التاريخ الى عملية حيوية ويخلصه من التجريد ، ان يدخل الى صميم الحدث ، لا ان يقف خارج الاسوار وينظر من بعيد. وهذا البعد الاخير على درجة كبيرة من الاهمية ، لان التاريخ ليس حصيلة احداث خارجية فحسب بل هناك القوى الداخلية والطاقات الروحية التي تمثل دائما العامل الاهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره ، وهنالك القوى الغيبية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر او غير مباشر ، ولحكمة الهية بعيدة المدى ، لتوجيه التاريخ وجهة دون اخرى. وفهم التاريخ لا يتمّ اذا الا باسهام الطاقة الروحية والحيوية للانسان في عملية التقييم.

خلاصة الامر – فيما يتعلق بالتدريس كذلك – ان المدرس يجب ان يعرض التاريخ بهذه الحيوية وهذا التدفق ، وان يقدمه للطلاب كمسرحية حاضرة للعيان – كما يقول الناقد البولندي المعاصر : يان كوت – لا كفعل مسطح ، لان المدرس بهذا سوف يحرك وجدان الطلبة ، ويفتح في اعماقهم نوافذ جديدة تشدهم الى التاريخ ، وتعطيهم امكانية تسليط مزيد من الاضواء على ظلمات التاريخ لادراك معناه. ان هناك طلبة يملكون معرفة فطرية للمعاني وراء الاحداث وان على المدرس ان ينمي هذه القدرة ، لانه بهذا سوف يتيح للشرق ان يشهد في يوم من الايام دراسات تاريخية عملاقة كتلك التي قدمها توينبي واشبنغلروغيرهما. كما انه بهذا يؤكد على القيم الروحية في فهم التاريخ ، ويحطم الجدران المادية الضيقة التي تخنق الدراسات التاريخية وتمنع من النفاذ الى الاعماق.

فاذا ما انتقلنا – بصدد اقتراحاتنا هذه – الى التاريخ الاسلامي بالذات فهناك ثلاثة اقتراحات على الاقل :

١. تطبيق منهج اسلامي دقيق في دراسة تاريخنا ، يمتلك من الامكانات ما يستطيع بها ان يتوغل الى هذا التاريخ ، ويستنبط معناه ، ويحلل دقائقه ويحدد معالمه الرئيسة ، ويستكنه الاهداف التي كان – ولا يزال – يصب طاقاته في بحرها العظيم .. ان هذا التاريخ يختلف عن غيره اساسا لانه يمثل اوسع واعمق تعبير عن تاريخ ينبثق عن دين عظيم ، وعن حضارة يبعثها لقاء خلاق بين قوى السماء والارض. ان هذا التاريخ لم تسهم في صنعه فاعلية دون فاعلية ، ولا دفعه الى الوجود عنصر دون عنصر ، او عامل دون عامل ، انه يتميز بانه نتاج كل القوى والعوامل والطاقات التي اودعها الله في الكون والعالم ، والتي منحها للانسان .. لذا فاننا نجد في هذا التاريخ قوى المادة والروح ، والطبيعة والغيب ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية .. وان تطبيق أي منهج قاصر في دراسة هذا التاريخ ، من شانه ان يغفل احد هذه العوامل ، سيؤدي بلا شك الى فهم ناقص ، وتحليل مضطرب لمعنى هذا التاريخ وطبيعة مجراه .. ان المهندس الميكانيكي لا يطلب منه رسم تصميم لعمارة شاهقة ، وعالم الفيزياء لا يجازف باقامة

جسر على نهر عظيم ، والمهندس المعماري ، بدون ادوات الرسم ومستلزماته ، لا يستطيع تجسيد ما في مخيلته من مساحات وابعاد !!

وهكذا فان تطبيق المنهج المادي ، العلماني ، الغربي في دراسة تاريخنا احدث من الاخطاء والمهازل ما يجب علينا ان نوقفه عند حده ، وان نبدأ – نحن – من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الادوات والامكانات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ.

ولا ريب ان من اهم سمات هذا المنهج انه منهج شامل لكل الدوافع والقيم التي تصنع التاريخ ، غير عاجز امام حدود الواقع الملموس الظاهر للعيان ، ويتيح من الرؤية البعيدة ما يستطيع المؤرخ معها ان يقدم تقييما اصيلا لاحداث التاريخ الاسلامي وشخصياته. ان تاريخنا الاسلامي بحاجة ماسة الى طبقة جديدة من المؤرخين، يعيدون تحليل هذا التاريخ وعرضه بكل حيويته وتدفقه ، وعناصره الظاهرة والباطنة ، مما سيتيح – بلا شك – فهما اعمق لهذا التاريخ ، وادراكا اشد تركيزا لعناصر تطوره ، ورؤية اكثر وضوحا لخطوط سيره ومنعطفاته الفاصلة. لقد عثر التاريخ الاوربي – كما رأينا – على مؤرخين اعادوا اليه الحياة ، وقدموه في اطار حي كصورة فنية رائعة بكل عناصرها : الخلفية والتكوين ، والاضواء والظلال ، والالوان والمساحات. ومن زاوية عرقية اقليمية ، او مذهبية متعصبة ، قدموا تاريخ العالم. ونحن نلمح في صورهم الشاملة هذه اغفالا متعمد – او غير متعمدا – لمساحة من اهم مساحات التاريخ البشري ، تلك التي يحتلها التاريخ الاسلامي الذي يتصف – اكثر من غيره – بان بناءه قام على كل عناصر تقويم الانسان والعالم. ومن ثم فان عرضه وتفسيره لا يتم الا وفق منهاج حي شامل. وحينذاك سيجد التاريخ الاسلامي مفتاحه الضائع الذي ما حاول الاكاديميون يوما الدخول بواسطته الى التاريخ الاسلامي من بابه الواسع المفتوح.

١. تخصيص عدد من المحاضرات لتدريس ((علم الرجال)) او ما يسمى في مصطلح الحديث باسم ((علم الجرح والتعديل)).

ذلك انه ما من امة في الارض عنيت بتمحيص مصادر اخبارها وتاريخها كالامة الاسلامية فهناك تراجم لنصف مليون رجل اسهموا جميعاً في تقديم الاخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والاخذ بها الا بعد فحص اولئك الرجال الذين تناقلوها.

ومن ثم فان دراسة التاريخ الاسلامي دراسة جادة ، تستلزم حتما دراسة هذا الموضوع الخطير ، لكي تقدم الدراسات التاريخية معتمدة على اوثق المصادر وادق الاخبار. وسوف تؤدي هذه المحاضرات الى نتيجتين هامتين :

أولاهما :– غرس الاعتزاز في نفوس طلبتنا بتاريخهم الاسلامي ، الذي يتفرد – دون غيره من التواريخ – بهذه العلمية وهذه الدقة وهذا التمحيص.

وثانيهما :- وهي على درجة كبيرة من الاهمية - تعويد الطالب المتخصص على عدم التسليم بكل ما يعرض من روايات ، ومنحه الادوات التي يستطيع بواسطتها ان ينقد وان ياخذ ما يراه صحيحا ، ويدع ما دون ذلك. وفي هذا يستطيع ان يقدم هو ورفاقه ، بعد تخرجهم ، دراسات صحيحة خالية من كل الدسائس والسموم التي نفثتها القوى المضادة في تاريخ الاسلام ، وبخاصة المجوسية والشعوبية.

ولا بد من الاشارة هنا الى الملاحظة القيمة التي ابداها ((محب الدين الخطيب)) حول هذا الموضوع ، فهو يشير الى ان تاريخ الطبري العظيم لا يمكن الانتفاع بما فيه من آلاف الاخبار الا ((بالرجوع الى تراجم رواته)) في كتب الجرح والتعديل .. وان كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ، ومتى يجوز الاخذ برواية المخالف. ولا نعرف امة عني مؤرخوها بتمحيص الاخبار ، وبيان درجاتها ، وشروط الانتفاع بها ، كما عني بذلك علماء المسلمين. وان العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الاسلامي. اما الذين يحتطبون الاخبار باهوائهم ، ولا يتعرفون الى رواتها ، ويكتفون بان يشيروا في ذيل الخبر الى الطبري : رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ، ويظنون ان مهمتهم انتهت بذلك، فهؤلاء من ابعد الناس الى الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الاسلامي من الوف الاخبار. ولو انهم تمكنوا من ((علم مصطلح الحديث)) ، وانسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة كل خبر ، كاهتمامهم بذلك الخبر ، لاستطاعوا ان يعيشوا في جو التاريخ الاسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الاخبار وسيمنها ، ولعرفوا للاخبار اقدارها بوقوفهم على اقدار اصحابها[1] والطبري نفسه يقول في مقدمته ((فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجها صحيحا ، ولا معنى في الحقيقة ، فليفهم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وانما اتي من بعض ناقليه الينا ، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادي الينا)) !!

٢. وعدد اخر من المحاضرات يجب ان يخصّص لتدريس الطلبة ما يسمى بـ ((تحليل النصوص)) او ((النصوص التاريخية)) يكلفون خلالها بدراسة وتحليل نصوص من مختلف المؤلفات التاريخية القديمة ، واجراء مطالعات في هذا المجال داخل الدرس ، لتمكين الطلاب بذلك من التمرس على قراءة وفهم تلك الاساليب ، التي يخرج الكثيرون منهم وهم لم يعتادوها ويألفوها ، الامر الذي يبعدهم (نفسيا) عن الرجوع الى الموارد الاولى للتاريخ ، والاكتفاء باعتماد ومطالعة المراجع الحديثة لسهولة اسلوبها ووضوحه. وهذا يشكل ((بالطبع)) اشد الاخطار على اية دراسة تاريخية. هذا فضلا عن ان الطلبة سيزداد تمرسهم على الاساليب القديمة بما سيكلفون به من كتابة تقارير ، واعداد محاضرات تضطرهم الى الرجوع للمصادر

---

(١) المراجع الاولى في تاريخنا : مجلة الازهر ، مجلد ٢٤ ، ج٢ ، صفحة ٢١٠ ، (صفر-١٣٧٢هـ).

القديمة. ولا ريب ان التمرس على هذه الاساليب هو الوسيلة الوحيدة لفهم النص التاريخي واستبطان معناه ، وعدم الوقوع في اخطاء فاضحة كتلك التي وقع فيها بعض المستشرقين نتيجة عدم فهمهم بعض الكلمات والنصوص[1].

بهذا تتمكن جامعاتنا من تخريج الطالب الذي يجد في نفسه من الامكانات والدوافع والاغراءات ما يجعله يقوم بنفسه ، لا بالاطلاع على مزيد من مساحات التاريخ فحسب ، بل بتوسيع مطالعاته في شتى الاتجاهات ، وتقديم دراسات وبحوث تغني المكتبة التاريخية ، وتزيد من رصيد الفكر التاريخي.

(١) انظر : فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الاسلامي ، (صفحة ١٦٣-١٦٥).